

عالم القصور : تراث وتنمية

التحرير

لتقديم صورة متكاملة عن عالم القصور يختلف أبعاده يتضمن هذا العدد ملفا مصورا للقصور في الجنوب الشرقي التونسي وكذا لبعض قصور جبل نفوسة والجنوب المغربي. وذلك لأن القصور هي مخازن جماعية للحصول الزراعية في التخوم الصحراوية بالمغرب العربي حيث تقل التساقطات ويكون الإنتاج الفلاحي ضعيفا وغير منتظم ويضطر السكان إلى حماية مذكراتهم الغذائية من أجل البقاء.

وهذا الملف الذي يتضمن خرائط وصور ومعطيات تفصيلية حول القصور هو نتيجة برنامج بحث تونسي ألماني، اشترك فيه الأستاذ هريوت بوب والأستاذ عبد الفتاح القاصح. ويتطرق الملف المصور إلى الإطار الجغرافي العام للقصور مغاربيا وإقليميا، ثم يقدم أصناف القصور في وحدتها وتنوعها كما يستعرض مختلف مكونات القصور وتحولاتها، ويتضمن إلى هذا وذاك قائمة القصور والخريطة التي تحدد موقعها والتي صدرت ضمن كتاب: أطلس القصور للمؤلفين.

وقتل مقالة الأستاذ محمد غيب بوطالب مدخلا مناسباً لوضع القصور في سياقها الحضاري والإحاطة بمختلف أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية والثقافية. إذ

هذا العدد من الحياة الثقافية نخّصه لمعالم طريفة ومتميزة في الجنوب الشرقي التونسي، يعود تأسيس البعض منها إلى قرون عديدة كما تدلّ على ذلك الشواهد التاريخية، وقد تعود جذور نشأتها إلى عصور ضاربة في القدم. استلهمت في عمارتها ووظائفها من مؤثرات حضارية متنوعة، متوسطية وصحراوية، بربرية وعربية. وهي تعطي التلال الجبلية المنهزلة كما تتجلى في الهضاب والسهول المنبسطة. استغلها السكان المستقرون كما استغلها القبائل البدوية المتنقلة. إنها القصور التي تثير الإعجاب والفضول رغم أنها فقدت منذ سنوات عديدة وظيفتها الأصلية المتمثلة في خزن الإنتاج الفلاحي للسكان المستقرّين والبدو الرحل في هذه التخوم الشبه صحراوية.

ومثار الإعجاب والدهشة أنها بنايات صمدت أمام تحديات الزمن وهجمات الأعداء وما زالت تمثل شواهد حيّة على زمن الجوع والخوف وكذلك رموزا لتشبث الإنسان بالأرض رغم قسوة المناخ وجذب الطبيعة. وهي خير شاهد على الروابط الوثيقة بين الإنسان وبيئته في هذه المناطق القاحلة وعلى حرص الإنسان على الاستفادة القصوى من الموارد المحدودة والتأقلم مع المخاطر ومواجهة التحديات.

يؤكد الباحث على أهمية هذا التراث وما يحتاجه من مزيد العناية وتوظيفه توظيفاً ملائماً يحافظ على ثراء الثقافة المحلية ويدعم مكاسب الاقتصاد الوطني.

وتقدم بقية مقالات العدد إسهامات متكاملة حول هذه الظاهرة المعقدة.

القصور وتعدد المقاربات

أثارت القصور اهتمام الباحثين من مختلف التخصصات العلمية، كما ألهمت المبدعين في مختلف مجالات الفن والإبداع، وهي تمثل اليوم مجالاً خصباً للإبتكار والإلهام، وما زالت تثير إعجاب السياح والزوّار. وقد جمعنا في هذا العدد عيّنة من المقاربات بغية تقديم صورة متكاملة عن عالم القصور بأبعاده التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والثقافية. ولاشك أن في عالم القصور ما يغري بمزيد التعمق والبحث وما يُنبّط الإلهام والإبداع وهو ما يسمح بإعادة الاعتبار لما كان في السابق مخازن جماعية للغذاء وعند الحاجة للاحتماء، وما هو اليوم تراث ثقافي فريد ومتميز جدير بالصيانة والتوظيف.

لا تزال المقاربة التاريخية للقصور تحظى بأهمية كبيرة. فمنذ الفترة الاستعمارية اهتت الضباط الفرنسيون بوصف هذه المباني وتقديمها لمعاصريهم لما عثله من طرافة وغرابة حرصا منهم على فهم المجتمعات التي سيطروا عليها ومُط عيشتهم حتى يتمكنوا من إحكام سيطرتهم على السكان والأرض.

وقد مثلت القصور قلاع مقاومة ومراكز اجتماع ورموز تثبت بالأرض لذلك لم تسلم من التخريب والتهديم منذ الفترة الاستعمارية. وكان بناء أسواق جديدة ومراكز إدارية جديدة بعيداً عن القصور والقرى الجبلية يهدف إلى تغيير التنظيم الترابي والتمكين للسيطرة الاستعمارية. ولا تزال هذه الدراسات التي أنجزت في السنوات الأولى من الاحتلال رغم خلفيتها الاستعمارية مرجعاً مهماً لدراسة القصور في النصف الأول من القرن العشرين (أنظر قائمة المراجع).

وبالإضافة لهذه الدراسات اهتم المؤرخون بالقصور باعتبارها شواهد على التعمير في المنطقة وعلى تطور الروابط الاجتماعية والعلاقات مع السلطة المركزية. وكان تاريخ بناء القصور وتغير خريطة التعمير وتبدل الأحلاف القبلية من أهم المسائل التي أثارت اهتمام المؤرخين.

ولا تزال المقاربة التاريخية للقصور تثير الدراسة والبحث. فالباحث الهاشمي الحسين يكشف بالاعتماد على المعاينة الميدانية والمسح الأثري السطحي عن ثراء المخزون الأثري لجبل دمر وعن تعدد شواهد التعمير عبر مختلف العصور في هذا المجال الجبلي الوعر وشبه الجاف والذي لا يخلو من موارد مائية وزراعية تبقى رغم ندرتها وعدم انتظامها موردا نادرا وثميناً وعنصر جذب للاستقرار والعمران.

وتواصل المقاربة التاريخية مع الباحث محمد الهادي غمراسن في محاولة لاستكشاف جذور التعمير في منطقة غمراسن بالاعتماد على المصادر التاريخية والذاكرة الشعبية والمسح الأثري السطحي. والمؤكد أن استقرار الإنسان في تلك المربع كان منذ عصور ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك الرسوم الجدارية التي تم اكتشافها في مواضع عديدة، كما تواصل التعمير في مختلف الفترات الزمنية، ثم كان قلعة نفق، كما يسميها التيجاني، وهي القصر والمحزن الجماعي، دور رئيسي في بروز غمراسن باعتباره نواة تعمير واستقرار في هذا القطاع الأوسط من جبل دمر.

ولا تزال الجذور التاريخية للقصر تثير فضول الباحثين واهتمام. وفي هذا الإطار تنزل مقالة الباحث علي التابتي الذي سعى من خلال دراسة قصر زنّانة إلى الغوص في تاريخ هذا المعلم واستكشاف أسراره. ولئن كانت المصادر التاريخية والأدبية حول القصور نادرة جداً، فإن قصر زنّانة أو القصر القديم يروي تاريخه بنفسه بما حافظ عليه من نقوش وزخارف ومعمار وتخطيط شبه فريد بالجهة.

والتشريع والقضاء. وقد تراوحت مواقف السلطة المركزية بين توظيف القصور للسيطرة على المجال والاتصال بشيوخ القبائل لطلب النصرة أو لجمع الضرائب أحيانا واعتبرتها مراكز معادية ومناخسة نظرا لما توفره القصور من استقلالية واكتفاء ذاتي وتمرد، أحيانا أخرى.

وهذا البعد السياسي والسيادي للقصور يظهر بشكل واضح في ما آلت إليه قصور جبل نفوسة في ليبيا. فقبل نفوسة كان يضمّ عشرات القصور التي كانت تمثل تحدّ للسلطة العثمانية في طرابلس، إذ لم تجد السلطات العثمانية وسيلة لإخضاع سكان الجبل لسيطرتها وسيادتها أفضل من تخريب معظمها. فشكل التخریب 54 قصرا وأكثر من 10 آلاف غرفة.

ويقدم الباحث مسعود أبو عبد الله وصفا وتشخيصا لبعض القصور المتبقية والتي صمدت أمام التهديم العثماني والتخريب الإيطالي وهي قصر نالوت وقصر كايلا وقصر الحاج.

وليس غريبا لما تملكه مجتمعات القصور من قيم الاستقلالية وتثبت بالأرض ووفاء وصبر واكتفاء بالقليل، أن تكون القصور قلاع مقاومة وملجأ آمنة للمناضلين ضد الاستعمار. وهو ما أكدّه الباحث عمّار السوفي من خلال دراسته لوضع القصور في الفترة الاستعمارية ودورها في الحركة الوطنية. ففي الوقت الذي شهدت فيه عديد القصور التخريب والتهديم والنهب والحرق، تشكلت في معظم قصور الجنوب الشرقي خلايا مقاومة للاستعمار ساهمت بمختلف الأشكال في معارك التحرير. وهو ما يجعل اليوم عددا كبيرا من هذه القصور معالم تاريخية مرتبطة بالذاكرة الوطنية المقاومة والمناضلة.

من المخزن الجماعي إلى التراث الثقافي

لقد توقفت وظيفة خزن المواد الفلاحية للقصور بصورة تدريجية ثم نهائية منذ منتصف القرن الماضي. وأمام هذه المباني التي لم تعد تستغل في وظيفتها الأصلية مع تسلل

وليتمكن الفارئ من تصوّر ما كان يزخر به القصر من حياة اجتماعية ومن وظائف اقتصادية ومن أدوار ثقافية يقدم الباحث الضاوي موسى عرضا شاملا وطريفا عن مختلف الحرف والصناعات التي كان يحتضنها القصر وسقيفته أو التي كانت تنتشر في المغاور والمساكن الخفية المجاورة. فالقصر هو عالم حيّ يتفاعل مع محيطه ويقدم خدمات متنوعة لمستعمليه ويوفر الحد الأدنى من الأمن والرفاهية لمجتمعات تواجه باستمرار مخاطر الجوع والخوف.

ولعل في الدراسة التي قدّمها الباحث منصور بوليفة عن قصر بني بركة خير مثال عن الدور الكبير والخطير الذي كان يضطلع به القصر في هذه الربوع. ولا شك أنه ليس من السهل على من اعتاد أن تكون الأسواق والمتاجر في فضاءات مفتوحة أن يفهم وأن يقتنع بأن قصر بني بركة الذي يتربع فوق قمة عالية مستعصية كان إلى وقت قريب وقبل انتصاب الحماية سوقا تجارية نشطة ومحطة رئيسية في طريق التوافل الصحراوية التي تربط واحة غدامس بالموانئ المتوسطية. إن دواعي الأمن والمحافظة على البضائع الثمينة والمنوعة التي يتم تبادلها كانت تحتم هذا الموضع الغريب من منظور العصر الحاضر والذي كان عاديا ومألّوفا في العصر الوسط لما تزكده قصور البرزلية وبولسوار والحلّوف وغيرها.

القصور : وظائف ومواقف

إن كثرة القصور في الجنوب الشرقي التونسي ظاهرة أشارت إليها معظم الدراسات المتعلقة بالموضوع ولكن نادرا ما نجد إحصاء وتصنيفا وتوصيفا شاملا لجميع القصور. ولذلك فإن ما قام به الباحث كمال العروسي من معهد المناطق الفاحلة بمدينين من إحصاء شامل لهذه القصور سنة 2003 ومن قراءة اجتماعية وانتروبولوجية لهذا التراث يمثل خطوة كبيرة في هذا الاتجاه. وقد بين الباحث التنوع الوظيفي للقصور عبر العصور فقد كانت في نفس الوقت: مخازن معيشية للقبائل وملاذآ آمنًا زمن الاضطرابات، ومراكز هامة للاجتماع والتبادل والخدمات

وفي كلِّ الحالات هناك حاجة متأكدة للابتكار والإبداع من أجل تحقيق توظيف ناجح وطريف للقصور. ويمثل الإبداع الشعري والأدبي إحدى مجالات الإبداع المتجددة في عالم القصور. وتنبس قصيدة الشاعر المبروك الحمدي وعلي الجليدي إحدى هذه الإبداعات الشعرية الخالدة. وفي زمن تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية والانتاج السمعي البصري تمثل القصور فضاءات مناسبة للإبداع، كما بين ذلك الأستاذ محمد عبادة.

فقد شهدت عديد القصور تصوير أشرطة سينمائية ذات شهرة عالية، مثل حرب النجوم، الذي تم تصوير بعض حلقاته في قصر الحدادة، وقصر بني غدير الذي كان كواليس لتصوير مسلسل تلفزيوني.

ومجالات التوظيف الفني والسمعي البصري للقصور متعددة مثل المسرح والسينما والوسائل السمعية البصرية المتعددة الوسائط.

وتبقى القصور بالجنوب الشرقي تراثا فريدا وامتيزا بتعین صيانه وتوظيفه، حفاظا على الذاكرة والهوية من جهة وتبني الخصوصيات ثقافية واجتماعية وحضارية من جهة أخرى. وهذه الخصوصيات هي التي تكون رافدا للتنمية المحلية والإقليمية في زمن العولمة. كما أن القيم التي قامت عليها القصور لا تقل طرافة وحداثة وهي جذرية بالأحياء والصيانة مثل التنمية المستدامة والاكتفاء الذاتي والتسيير الجماعي.

الخراب إليها، كانت النظرة السائدة إليها بعد الاستقلال على أنها من مخلفات الماضي، القبلي والعروشي، وأنها مخالفة للحدثة والرقى والتقدم. لذا وقع هدم الكثير منها. مثلما حصل في مدين التي كانت تمثل أكبر تجمع للقصور في الجنوب الشرقي. وهو ما يتنه الباحث الطاهر ضيف الله الذي لفت الانتباه إلى التحول في الموقف الرسمي من قصور مدين، إذ تغير بصورة تدريجية من سياسة التهديم والتدمير إلى سياسة الصيانة والترميم.

إلا أن المعضلة تبقى في التوظيف الجديد للقصور المرممة. فلا مجال لإعادة استخدامها في خزن المحاصيل الفلاحية بل لابد من ابتكار وظائف تحافظ على خصائص القصور المعمارية وتدمجها في المنظومة الاقتصادية الجديدة.

ويمثل التوظيف السياحي إحدى مجالات الاستثمار التي حظيت بالأولوية في عديد القصور المرممة. غير أن تحليل تجربة التوظيف السياحي للقصور وتقييمها تبين أن السياحة لا تمثل الحل السحري لإعادة الحياة والاعتبار لهذه المعالم. وهو ما يتنه الباحث زايد الهمامي من خلال دراسته لمثال قصر زمور الذي قامت بترميمه جمعية تنمية وتسعى إلى توظيفه سياحيا. ويتأكد بالخصوص من خلال هذا المثال أن التنمية السياحية، وتحديد السياحة الثقافية التي يقوم عليها التوظيف السياحي للقصور، تحتاج إلى تضافر جهود عديدة والتنسيق بين عديد المتدخلين ومراعاة المعطيات المحلية، البيئة والاجتماعية والثقافية.

المصادر والمراجع

ابراهيم أولسيمان أشماخي (1998): قصور ومسالك جبال نفوسة، نشر وتعریب من الأمازيغية محمد حمام، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الرباط سنة 2004، 193 ص.
أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستائي النفوسي: القسمة وأصول الأراضي كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق وتعليق وتقديم محمد صالح ناصر وبكير بن محمد الشيخ بلحاج، مكتبة الضامري سلطنة عمان 1993، 528 ص.

- عمار السوفي 2001: بني خدّاش وجيراتها عبر الحركات النضالية (من الحركة التمردية إلى المقاومة اليوسفية)، تونس 240ص.
- فتح لبيير 1998: قبائل أقصى الجنوب التونسي تحت الإدارة العسكرية الفرنسية نجح ورمغة نموذجاً 1881-1939، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان 394ص.
- محمد الفاضل النويري 1996: تصوّر لصيرورة مكان إحياء قصور مدين، أطروحة مرحلة ثالثة هندسة معمارية، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والتعمير بتونس 93ص.
- محمد الناصر بالطيب 1998: بتقردان بين التاريخ والتراث، المطبعة الرسمية تونس، 348ص.
- محمد حسن 1999: المدينة والبادية في العهد الحفصيّ، جامعة تونس الأولى، جزءان 863ص.
- محمد نجيب بوطالب 2002: القبيلة التونسية بين التغيّر والاستمرار، الجنوب الشرقي من الاندماج القبلي إلى الاندماج الوطني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، 534ص.
- Arena Marinella & Raffa Paola 2007: Ksour della regione di Tataouine. Edizioni Kappa Roma.
- Baklouti Naceur 2000: Vers les pays des ksour. –In : Ifriqiya Treize siècles d'art et d'architecture en Tunisie. Démetér Edisud Tunis, pp.250-277.
- Ben Ouezdou Hédi 2001: Découvrir la Tunisie du Sud : De Matmata à Tataouine. Ksour, jessour et troglodytes. – Tunis 2001, 78p.
- Blanchet P. 1897: Le Djebel Demmer. – Annales de Géographie 6, pp. 239-254. [avec planche hors-texte]
- Bossoutrot Auguste 1910 : Notes sur Médénine Gasr du Sud; traduit du français par Ayoub Abderrahmane, Sfax 1978, 29p.
- Capot-Rey Robert 1956: Greniers domestiques et greniers fortifiés au Sahara, le cas du Gourara; Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes, Tome XIV, pp. 139-158.
- Carton L. 1913: Ksour et troglodytes de la Tunisie. – Bulletin de la Société de Géographie de Lille XX., pp. 128-134.
- <http://Archivebeta.Sakhril.com>
- Despois Jean 1934: L'habitation dans le Djebel Nefousa. – Revue Tunisienne, N.S. N° 18/19., pp. 277-316.
- Despois Jean 1953: Les greniers fortifiés de l'Afrique du Nord. – Les Cahiers de Tunisie 1, pp. 38-60.
- Faublée-Urbain Marcelle 1951: Magasins collectifs de l'Oued el Abiod (Aurès); Journal de la Société des Africanistes, Volume 21, Numéro 2, pp.139-150.
- Golany Gideon S. 1988: Earth-Sheltered dwellings in Tunisia, ancient lessons for modern design; Delaware Press USA 164p.
- Jacques-Meuné D. 1944: Les greniers collectifs au Maroc; Journal de la Société des Africanistes, Volume 14, Numéro 1, p.1-16.
- Jacques-Meuné Djinn 1951 : Greniers-citadelles au Maroc. 2 volumes – Paris 1951 (= Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, vol. 52).
- Kioua Regaya, Rekik Ridha 2005: Les spécificités architecturales du Sud tunisien, répertoires et recommandations. Noha Editions Tunis, 249p.
- Laroussi Kamel 2008: Le Gasr, vestige des temps nomades; Revue des régions Arides n°20; Actes

de l'atelier «diversité du patrimoine culturel et naturel dans le Sud-Est tunisien: problématique de la conservation/valorisation» pp.47-96.

Louis André 1965 : Greniers fortifiés et maisons troglodytes : Ksar-Djouama. – Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes N° 112 (4e trim.) , pp. 373-400.

Louis André 1971 : Habitat et habitations autour des Ksars de montagne dans le Sud Tunisien. – IBLA, Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes N° 128, pp. 123-148.

Louis André 1975 : Tunisie du Sud. Ksars et villages de crêtes. – CNRS Paris (Publications du Centre de Recherches et d'Etudes sur les Sociétés Méditerranéennes, Série : Études Tunisiennes) 370p.

Macquart Emile 1905: Chez les troglodytes de l'extrême-Sud tunisien; Bulletin de la Société de Géographie d'Alger, pp550-568.

Macquart Emile 1906: Les troglodytes de l'extrême sud tunisien; Bulletins et Mémoires de la Société d'Anthropologie de Paris; vol.7, n°1, pp.174-187.

Maquart Capitaine 1937: Etude sur la tribu des Haouïa (Territoire de Médénine). – Revue Tunisienne, N° 30 pp. 253-297.

Martel André 1965: Les confins saharo-tripolitains de la Tunisie (1881-1911). PUF Paris, 2 volumes 824 et 428p..

Moumni Youssef 1998: Conservation du patrimoine et développement. L'insertion du phénomène de Ksar dans le développement des régions arides du sud-est tunisien. – Revue des Régions Arides [Médénine] 10 (N° 1), pp. 93-106.

Mrbat Abdellatif 2004: La Tunisie du Sud. Sites et monuments. Ministère de la culture, Agence de mise en valeur du patrimoine et de promotion culturelle, Tunis 77p.

Naji Salima 2006: Greniers collectifs de l'Atlas, patrimoine du Sud marocain; Editions Edisud Casablanca, La Croisée des Chemins, 301p.

Résidence Générale de France en Tunisie, Service des Affaires Indigènes 1931: Historique du bureau des affaires indigènes de Médénine; Bourg 37p.

Zaïed Abdesmad 2006: Le monde des ksours du Sud-est tunisien. – Centre de Publications Universitaires Tunis, 236p.

Zouari Mohamed 2008: Les ksour du Sud-Est tunisien: décors importants et variés mais en danger; Revue des régions Arides n°20; Actes de l'atelier «diversité du patrimoine culturel et naturel dans le Sud-Est tunisien: problématique de la conservation/valorisation» pp.33-40.

الأبعاد الحضارية لظاهرة القصور بالجنوب الشرقي

محمد نجيب بوطالب (*)

فالبداية لم تكن حالة غالبية في كل مراحل التاريخ الحديث والمعاصر كما أنها لم تكن على الدوام دالة على تقيض الحضارة بالمعنى الخلدوني للعبارة.

ومن جهة أخرى فالفرضيات التي صيغت متأثرة بالمدونة الكولونيالية حول العلاقة المتعارضة بين الجبل والسهل أصبحت بدورها بحاجة إلى مزيد الاستجلاء والتعميق. فالجبل باعتباره المجال الذي احتضن القصر بداية لم يكن منعزلا ولم يكن هامشيا.

فالهامشية كانت نسبية كما كانت تظهر في بعض مراحل التاريخ. وليس في جميعها هذا ما ينسجم مع أطروحة كلتر (1) (E. Gellner) حول المجتمعات المغاربية الانقسامية. ولذلك فالجبل في جهة تعاوين لعب دورا فاعلا كمحطة أساسية على طريق السودان، كما كان منطلقا لحضارات عريقة حيث أن فروع قبائل زناتة مثلا لعبت أدوارا ثقافية واقتصادية هامة في إفريقيا الوسطى وبلاد السودان عن طريق محطات الجبال والمسالك التجارية التي كانت تتخلل هذه الجبال، حيث تم إنشاء

عرفت بلاد المغرب العربي في مجملها ظاهرة القصور كظاهرة معمارية تدل على التحضر واستقرار السكان في الجهات الجنوبية. والقصر هو من أهم المنشآت المعمارية في جنوبي المنطقة المغاربية، استطاع أن يحقق علاقة متوازنة بين السكان ومحيطهم المتميز بالتأثر المستمر بالمجال الصحراوي من جهة وبالبحر من جهة أخرى. وما يصحبه من اختلافات أجنبية من جهة أخرى.

وبناء على هذه الأهمية يمكن إعادة النظر في بعض الفرضيات التي صاغتها المدارس السوسيولوجية- تاريخية الغربية وطبقها أتباعها في المنطقة دون نقد أو تعديل، ومنها أن القصر كنمط معماري تميزت به المنطقة قد توازى وجوده واستعماله مع انتشار النمط البدوي ولم يكن على الدوام تقيضا له. فقد حمل القصر معه خصوصية سكانية اجتماعية وهي الجمع بين ثنائية الاستقرار والتبدي، وقد ميزت المنطقة عبر مختلف المراحل التي عرفت فيها هذه الظاهرة.

(*) جامعي، تونس

بعض القرى والقصور كمحطات أولى للراحة والتبادل مثلما هو الحال بالنسبة لقصر بني بركة.

لقد كانت القصور عبارة عن نقاط إشعاع ثقافي وسياسي واقتصادي بلا منازع في جنوبي المنطقة، كما كانت فضاءات انصهرت فيها الثقافات والعناصر الوافدة على منطقة الجنوب الشرقي خاصة من يهود وأفارقة وأوروبيين، فقد اندمجت تلك الثقافات وتركت بصماتها على جدران غرفها وفي أنماط الحياة اليومية بها. لذلك فالقصر كان فضاء معماريا حضاريا متطورا لأنه استطاع أن يستوعب مختلف الأنماط الثقافية الوافدة عليه وأن يواكب التغيرات الطارئة حوله دون أن يفقد خصائصه ووظائفه الأساسية.

ملامح التواصل الحضاري في القصور التونسية:

يمكن تلخيص أهم ملامح ومظاهر التواصل والإدماج في القصر كظاهرة حضارية في تونس في العناصر التالية:

أ - الجانب المعماري:

يتجسد التلاحق الحضاري في القصور في المواد التي يتكون منها وفي شكل وهندسة البناء وطبيعة الفاعلين فيه:

* مواد بناء ارتبطت عملية استعمالها بطبيعة المناخ وبما يعرض من أدوات ومواد في المحيط، وقد كان كثير منها يأتي من المناطق والمدن المجاورة كجربة والجريد وقابس وغيرها، فضلا عن الاستعمالات المحلية للجبس والجير والحجارة عن طريق الأفران وباستعمال الحطب المحلي.

* الحرفيون والبنائون الذين كان أغلبهم يتوافد على المنطقة من جهات مجاورة، وعديد منهم من الأقليات العرقية والدينية التي عاشت بالبلاد التونسية.

* الأنماط الهندسية للقصر التي اعتمدت على الدوام

على عمليات التأثر والتأثير عبر نقل الأشكال الهندسية المعمارية السائدة في المدن المغاربية «السقيفة - النهج - الزنقة»، وأخرى مستوحاة من المواقع والمدن الأثرية القديمة ومنها الرومانية «الطوايق - الدهاليز - المعاصر». والإسلامية من خلال إضافة المساجد كمنشآت حضارية ثقافية هامة، أخذت مكانها تدريجيا حول فضاءات القصور.

ب - الجانب الثقافي والاجتماعي:

كانت القصور فضاءات تواصل حضاري بين:

- المجموعات القبلية المحلية المتجاورة بمختلف أحجامها وأصولها.

- بين المجموعات المحلية والوافدين لأغراض مختلفة من مركز الدولة أو من أهم مدنها وجهاتها أو من البلدان المجاورة (تجار - أئمة - إداريين - عساكر - رحالة - حجاج ...)

فالقصور كانت فضاءات التواصل مع أقطار المشرق العربي عن طريق الحج أساسا ثم عن طريق التعليم والتجارة. وثمة عدد هام من أبناء منطقة تطاوين ومدنين وجبلها ممن تابعوا تعليمهم بجامعات القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت وخاصة في المراحل المتأخرة. لكننا نجد كذلك العديد ممن عمقوا تحصيلهم الدراسي بجامع الأزهر ممن تولّوا مراتب القضاء والعدالة والتدريس والأمانة بجهة الجنوب الشرقي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (2).

التواصل المحلي لسكان القصور:

لئن مثلت القصور فضاءات حضرية ناشئة عرفتها المنطقة منذ العصر الوسيط كقرى وتجمعات موسمية تدل على الاستقرار وحركية النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فإنها لعبت أدوارا تواصلية من خلال ما كانت توفره للسكان من فرص اللقاء والتفاعل في فضاء عرف باتساع المجال وبشظف

العيش وشحّ الموارد وما استتبع ذلك من تشتت السكن وتقطع النشاط.

لقد لعب القصر باعتباره نواة الجماعة ومجسّم هويتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية دور نقطة اللقاء بين السكان المحليين، ففي القصر تحفظ الذاكرة الجماعية وفيه تتم عمليات التنشئة الثقافية والاجتماعية عن طريق تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم مثلما تحفظ فيه ممتلكاتها المادية وغير المادية.

وفي القصر تعقد جلسات المجلس القبلي (الميعاد) الذي يتخذ القرارات الحاسمة في حالات السلم وفي حالات الخطر.

التقسيم الداخلي للقصور ووظائفها :

لقد لعبت القصور عبر التاريخ دورا مركزيا في حياة السكان باعتبارها مظهرًا من مظاهر الاستقرار، مثلما مثلت الخيمة مظهرًا من مظاهر الترحال والاستباح. وإن التعمق في وظائف القصور المتعددة كفيل بإبراز هذا التداخل الذي كان قائما بين أنماط العيش في مواجهة مناخ شبه صحراوي.

ولعلّ هذا التكامل بين الخيمة والتحصين على حد سواء في الحياة البدوية في المنطقة الجنوبية بما جعلها تتميز في بعض خصائصها عن أنماط البداوة الأخرى في البلاد التونسية.

فالقصر يقوم بوظيفة تخزين المنتجات الفلاحية المحلية على عكس ما يتصوره بعض المهتمين بالظاهرة من أنه كان معدا للسكن. وتتنوع ملكية القصور بين القبائل والعشائر بحسب حجم السكان وقوة العدد والعدة ورصيد الجاه الموزع بينها كمجموعات. على أن ذلك ارتبط بطبيعة المراحل التاريخية التي يلعب فيها الانشطار والانصهار على حدّ التعبير الأتروبولوجي دورا فاعلا. فالمجموعات تكتسب مكانتها وقوتها وحضورها بحسب علاقاتها الداخلية والخارجية وبحسب علاقاتها بالسلطة المركزية والمحلية.

وإذا كان مرجع كل قصر القبيلة، ولبعض فروع كل قبيلة قصورها مثل غمراسن والجليدات والعمارنه وغيرها، فإن الغرفة ملكية عائلية لكنها تحولت مع مرور الزمن وفي الفترة المعاصرة بالأساس إلى ملكية فردية ترتبط بالثروة والموقع الاجتماعي، تباع وتشترى داخل الأساق القروية.

وللقصر تقسيماته الاجتماعية على غرار تقسيماته الهندسية.

فهو يضم السقيفة والصحن والساحة والطوابق وغيرها من الأقسام لكن تلك العناصر لا تحضر في كل القصور على نفس الشاكلة. فهذه العناصر أتم وأشمل وأكمل في القصور الجبلية منها في القصور السهلية وخاصة تلك التي انشئت حول المراعي ومضاعن الفلاحة. مع بعض الاستثناء في قصور المدن التي اكتملت دائرتها وارتفعت طوابقها مع انتشار المراكز الحضرية خلال المرحلة الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر. ومنها قصور مدنيين وجرجيس وبنقردان التي اندثر أغلبها بفعل قصورات وسياسات تنمية خاطئة سادت خلال العصور الأولى من الاستقلال.

وهكذا فالقصر أصبح في بعض الفترات علامة تدل على المكانة الاجتماعية لأصحابه من العشائر والقبائل، فالحجم وعدد الغرف وعدد الطوابق بالإضافة إلى عناصر الجمالية والترتيب والتنظيم والمراقبة والحراسة، كل ذلك كان مؤشرا لمعرفة حجم المجموعات ومكانتها في المجتمع.

في التسمية وما يلحقها :

عديدة هي التسميات والنسب التي تلحق بالقصور، فهي بين «قصور جبلية» وأخرى «صحراوية» وأخرى «بربرية». غير أن الدال أحيانا لا يطابق المدلول.

وهي بين قصور بالجمع «كقصور الجليدات» وأخرى مفردة كقصر العوايد، وثمة نطق خاص بحرف الفاف وبطريقة «سكون الراء»، «فصّر» على طريقة أهل الجنوب.

مواقعها في سهل الجفارة (3) وعلى مشارف مراعي الوعرة . وثمة تصنيفات أخرى بحسب مؤشر آخر هو التجميع مثل القصور المجمعة التي عرف بها «مركز قيادة ورغمة»، أي مدينة مدين . ويضم هذا النمط عديد الساحات المفتوحة إلى بعضها البعض . أما القصور العزولة فهي تلك التي أصبحت ملجأ للراحة ومواشيهم عند الأنواء، وتوجد غالبيتها بالسهول بعيدا عن مراكز تجمع السكان وفلاحتهم حيث «أراضي الملك» .

هكذا فقد عرف القصر منذ القديم تحولات عديدة، فمن وظيفة الخزن إلى وظيفة تحقيق اللقاء والتواصل بين السكان وبينهم وبين ممثلي السلطة المحلية، إذ كان القصر يلعب في مواسم الخصب وخاصة خلال فصل الصيف دورا اقتصاديا هاما من خلال النشاطات التي تضمها بعض القصور باعتبارها أسواقا وفضاءات للتبادل التجاري، وقد تحولت بعض الغرف فيها إلى دكاكين لبيع المتبقيات الاستهلاكية اليومية، فضلا عن تخصيص بعضها للنشاطات الحرفية كالحدادة والتجارة أو التعليم .

التوظيفات الحديثة :

أما في المراحل الحديثة فقد تحولت بعض غرف القصر إلى محلات لطواحين الحبوب ودكاكين لتلبية الاحتياجات الاستهلاكية من عطرية وكنية ومحلات خياطة أو حياكة وغيرها . كما تم استغلال بعض القصور لإقامة محلات بالغرف لعرض الصناعات التقليدية أو لبيع مقاهي ونزل يؤمها السياح من الداخل والخارج، فضلا عن مهن السياحة التي اقتص بها كل من قصر الحدادة وقصر أولاد دباب وقصر الغرش بجهة تطاوين . كما وظفت قصور أخرى توظيفا ثقافيا من خلال تنظيم الحفلات والعكاظيات والمهرجانات (قصر الزهراء) . وقد خصت الدولة عديد القصور بالترميم والعناية مثل بعض قصور مدين والصمار والمزطورية وقلة أولاد شهيدة وغيرها . لكن عمليات الترميم لم تكن دائما على الشاكلة اللازمة

ومن الملاحظ أن هذه التسميات المشار إليها أعلاه لم تكن دقيقة ولا مضبوطة لارتباط استخداماتها بحاجات يومية ودوافع سياحية أو احتفالية، رغم أن كل تسمية لا تخلو كما هو معروف في علم السميولوجيا من موقف ودلالة .

وبمرور الزمن وتفاعل الإنسان مع محيطه عرفت منطقة الجنوب الشرقي أنماطا عديدة من القصور تحكمت في الفصل بينها العوامل البيئية والمناخية والطبيعية، كما تحكمت فيها العوامل السياسية والأمنية بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية .

وأهم تصنيف يبرز للدراس هو التصنيف الجغرافي الذي يقسمها إلى :

- قصور جبلية : وهي التي توجد في أعالي الجبال والمرتفعات، وقد أنشئت لأسباب أمنية بالأساس وتعرف في أغلبها بتوطن القبائل البربرية . وقد استخدمت للسكن في بعض المراحل إلى جانب استخدامها للخزن في مراحل أخرى، ولكنها مثلت على الدوام مجالا شبه حضري مستقر يتم فيه تبادل الخبرات بين المجموعات المحلية وجيرانها .

- قصور سهلية : وهي امتداد للقصور الجبلية وقد انتشرت في سهل الجفارة وتوجد بمدين والقسم السهلي من بني خدش وأم التمر وجرجيس والموانسة وبنقردان، كما توجد بولاية تطاوين في معتمديتي الصمار والبئر الأحمر، وتوجد حول نقاط المياه وسهول الخرائة والمراعي، تستخدم للخزن أساسا إلى جانب تقديم الاحتياجات الفلاحية المحلية وخاصة منها الحرفية .

لقد ارتبط انتشار القصور السهلية خلال القرنين 18 و 19 بانتشار الأمن في المناطق السهلية وعلى السواحل حيث توقفت عمليات الغزو، كما ارتبط من جهة ثانية بالنمو السكاني السريع وانتشار الفلاحة وتوسع الطلب على تربية الماشية . لذلك فقد قُربت المجموعات السكانية التي أعادت انتشارها في المنطقة على ضوء هذه المتغيرات قصورها الجديدة حذو

سل هذه الأرض كم من أمة نبت
على ثراها وفيها الخير مدرار
سل القصور إذا ما شئت معرفة
إذ خلف زخرفة الآثار أسرار(5)

خاتمة :

هكذا يتبين للدارسين وخصوصا للمهتمين بالبحث
في تاريخ و تراث وثقافة هذه الجهة الهامة من البلاد
التونسية مدى ما لظاهرة القصور من أبعاد وخصائص
تدفع إلى مزيد العناية بهذا التراث وتوظيفه توظيفا
ملائما يحافظ على ثراء الثقافة المحلية ويدعم مكاسب
الاقتصاد الوطني.

على أن هذا التوظيف يجب أن يتجاوز النظرة
الضيقة التي تميز سلوكات أغلب الفاعلين في القطاع
السياحي الخاص إلى نظرة الفاعلية والمشاركة. ومن
ذلك ضرورة مساهمة هذا القطاع في حماية المواقع
الأثرية والمعمارية ومنها القصور من عمليات التدهور
التي تسببها فيها العوامل الطبيعية وبشكل أخطر وأدفع
العوامل البشرية. يبدو أن التعامل مع هذه المسألة أصبح
يتطلب تدخلا حاسما من قبل الدولة لدفع المستفيدين
من سياحة القصور على الالتزام بالمشاركة في عمليات
ترميم القصور وإيصال الضروريات إليها من بنية أساسية
حتى يسهل الوصول إليها ويتم التشجيع على التوقف
عندها للاستمتاع والاستجمام بها ومحيطها. كما أن
دعم الجمعيات الثقافية في الجهة سيكون من أوكد
الحاجات لدعم هذه العملية الانقاذية التي أضحت مطلبا
ملحا على جميع المستويات.

وقد يكتمل الطموح بتحقيق مطلب طالما طرحه
مثقفو الجهة ودارسوها ألا وهو بعث مركز للقصور
بالجهة يجمع بين وظائف الدراسة والبحث.

من حيث احترام النمط المعماري ومواد البناء وأساليب
التوظيف.

لقد، وصف الشعر الشعبي بجهة الجنوب الشرقي
وظائف القصور وتغنى بمحاسنها وافتخر بمرورها وقيمها
وعاداتها فالشاعر بن يحيى يقول :

العادات ديمة حية

وأوتادها في فجعنا مرسية

تبغ معاني الملحمة الشعرية

وياسر شواهد في القصور عديدة

هاهي القصور معالم

عربي بناها والساس قاعد قايم

قداش قدعوا من عنيد وظالم

وقداس يرزم طبلهم تهويده (4) *

أما الشاعر علي الجليدي فقد فصل الوصف وأطنب
الشرح في وظائف القصور وبين الإمكانات المتاحة
لتوظيفه قائلا :

إن شئت أن تشهد الأجيال في عجل

فلمهرجان شريط فيه أخبار

فيه العروض تشد العين في عجب

ما شاهدت مثلها من قبل أنظار

وعن دور القصر في ترسيخ الهوية والدفع إلى
الاعتزاز بالوطن والموطن قوله :

إن هزك الشوق أو ساقنت أخبار

فأسأل قصورا كستها المجد أثار

يمضي الزمان ولا تمحي معالمها

وكيف يححو منبع العز إعصار

المصادر والمراجع

- بوطالب (محمد نجيب) : القبيلة التونسية بين التغير والاستمرار : الجنوب الشرقي من الاندماج القبلي إلى الاندماج الوطني . طبعة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس : سلسلة علم الاجتماع- المجلد 8، تونس ، 2002 .
- بوطالب (محمد نجيب) : «بعض مظاهر التواصل في الملكية المشتركة للأرض وانعكاساتها : نموذج الجنوب الشرقي التونسي» ضمن كتاب : التحولات الراهنة في المجتمعات الريفية المغاربية ، نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس ، 1995 .
- بوطالب (محمد نجيب) : «هجرة العمل من قبيلة ورغمة إلى مدينة تونس : 1881 - 1950» ضمن كتاب المغيثون في التاريخ الاجتماعي . بيت الحكمة 1996 .
- حسن (محمد) القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس 1986 .
- الغرابي (محمد الهادي) : «ملاحم من تاريخ ولاية تطاوين» ضمن نشرة المهرجان الدولي للقصور الصحراوية، تطاوين مارس 1996
- لبيش (سالم) : قراءة في علاقة مجتمع عكارة بالسلطة المركزية في تونس بين 1850 و1907 ، في مجلة «إبلا» عدد 177 ، 1996 .
- ليسير (فتحي) : نفع ورغمة تحت الإدارة العسكرية 1881 - 1939 ، [شهادة التعمق في البحث في التاريخ، تونس 1991 ، نشر مركز التميمي] 1997 .
- Carton (Lieutenant) : « Le sud de la région de Tunis : Régime des Ksours » in bulletin de la société de Géographie de Lille. 1889.
- Forest (G) : Tataouine et sa région, in les tribus, Mémoire, CHEAM, 1942.
- Louis (André) : Tunisie du Sud, Ksars et villages de Crêtes, CNRS, 1975.
- Martel (André) : Les couffins sahariens tripointines de la Tunisie : 1881 - 1944 - PUF, Paris 1966.
- Zayed (Abdessamad) le monde des Ksours du sud - Est Tunisien, Pub/Beit El Hekma 1992 et C.P.U tunis 2006.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الهوامش والإحالات

- 1) Gellner (Ernest) : « Système tribal et changement social en Afrique du Nord » in Annales Marocaines de sociologie, n° 5, 1968.
- 2) بوطالب (محمد نجيب) : « المتعلمون بأقصى الجنوب التونسي ، نشاطهم ودورهم » - مداخلة ضمن فريق البحث حول الفئات الوسطى في التاريخ التونسي - بيت الحكمة - تونس - 1992 . وانظر كذلك دراسة لنفس الباحث حول «وضعية المثقفين بجرجيس في الفترة الاستعمارية» ضمن كتاب «شبه جزيرة جرجيس عبر التاريخ» شنت جمعية المحافظة على التراث بجرجيس- تونس. 1995 .
- 3) Zaid (Abdessamad) - Le monde des ksours du Sud - Est tunisien (1er éd), P 102.
- 4) الشاعر - محمد بن بلقاسم بن يحيى (عن : التهامي الروان) الأبعاد الثقافية للقصور : تطاوين نموذجاً - رسالة جامعية - المعهد العالي للتنشيط الثقافي - بئر الباي - تونس 1997 ص 65 .
- (*) قدعوا : ردوا ، يرزم : يضرب تهويده : مؤخر الليل .
- (5) الشاعر - علي الجليدي - (عن - مجلة «القصور» عدد خاص بمهرجان القصور - تطاوين 1987).

عالم القصور تراث وإبداع

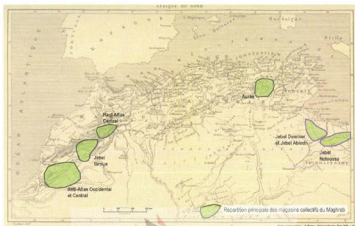
ARCHIVE
<http://Archive.net.sakrib.com>

عبد الفتاح القاصح

(جامعي، تونس)

بأبيرويت الألمانية وعبد الفتاح القاصح أستاذ الجغرافيا
في جامعة صفاقس، ودعمته المؤسسة الألمانية للبحث
العلمي DFG.

هذا الملف المصور هو نتيجة برنامج بحث تونسي
ألماني حول التراث والسياحة الثقافية اشترك فيه هربرت
بوب Herbert Popp أستاذ الجغرافيا في جامعة

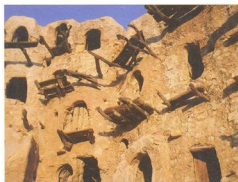


وجبال الأوراس الجزائرية وجبال الأطلس الصغير
وجبال سريرة وغرب جبال الأطلس الكبير بالمغرب.

القصور اللبية :

معظمها شهد التدمير خلال الفترة العثمانية
والاستعمار الإيطالي في إطار إستراتيجية هيمنة على

القصور هي مخازن جماعية للمحاصيل الزراعية
في التخوم شبه الصحراوية بالمغرب العربي حيث تقل
التساقطات ويكون الإنتاج الفلاحي ضعيفا وغير منتظم
ويضطر السكان إلى حماية مذكراتهم الغذائية من أجل
البقاء. تتواجد القصور في جبل نفوسة بليبيا وسهل
الجفارة وجبل مطاطة دمر بالجنوب الشرقي التونسي



قصر كابابا بليبيا



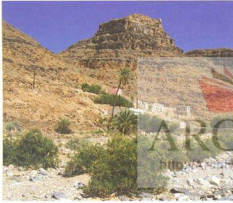
قصر الحاج بليبيا

التونسي من خزن المحاصيل الزراعية وخاصة من الحبوب، وكثير منها لا يزال يحافظ على وظيفته الأصلية وتتصرف فيه المجموعة القبلية ويقيم فيه حارس. ويحظى الأفادير بحرمة كبيرة واحترام السكان لما يمثله من رمزية الانتماء القبلي وبركة في حفظ المواد الغذائية واطمئنان على ما يحفظ فيه من مدخرات غذائية وعقود ملكية مكتوبة على الألواح. لكن المخازن الجماعية في المغرب تشهد نفس ظاهرة الإهمال والخراب نتيجة النزوح والهجرة وكذلك تفكك الروابط القبلية وتراجع النشاط الزراعي والرعوي والاعتماد المتزايد على التزود من السوق بالاستفادة من عائدات الهجرة الداخلية والخارجية.

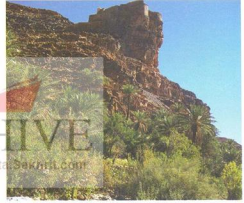
السكان والمجال. وفقدت القصور المتبقية وظيفتها الأصلية المتمثلة في خزن المتوجات الزراعية والرعية. وبعض القصور اللببية شهدت في السنوات الأخيرة عمليات ترميم وتوظيف جزئي في السياحة وهي قصور الحجاج و نالوت و كاباو.

المخازن الجماعية في المغرب :

يطلق عليها إسم «أفادير» أو «إيغرم». أما لفظ «القصر» فيطلق في المغرب على السكن القروي المجمع. وللمخازن الجماعية في المغرب نفس وظائف القصور في الجنوب



أفادير أيد عيسى في غرب الأطلس الصغير



أفادير أفلوي في غرب الأطلس الصغير



حفظ عقود الملكية - الألواح - في أفادير تاويرتين بمرور



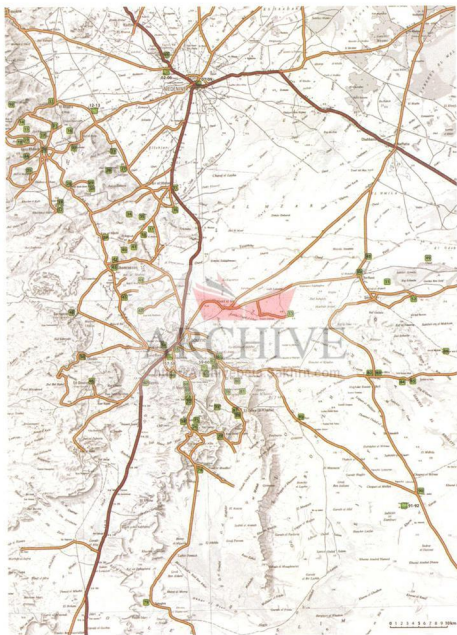
خزن الشعير في أفادير تاقلدينت

قصور الجنوب الشرقي التونسي

62	الجليدات 2 - قصر أولاد بوجليدة	32	قصر الجراء	01	قصر غبنتن
63	الجليدات 2 - قصر أولاد أمحمد	33	قصر أولاد مهدي	02	أم النمر - قصر أولاد عبد الله
64	قصر بني بركة	34	قصر تامزيت	03	أم النمر - قصر الخوخة
65	قصر تونكت	35	قصر الأعراف	04	أم النمر - قصر السوق
66	قصر الدويرات	36	قصر أولاد بويكر	05	أم النمر - قصر الغولة
67	قصر أولاد دباب	37	قصر بيولي (واد فرافر)	06	أم النمر - قصر أولاد مفتاح
68	قصر أولاد عون (مزطورية)	38	قصر الزحاحفة	07	مدنين - قصر أولاد إبراهيم
69	قصر العوايد	39	قصر الحدادة	08	مدنين - قصر أمرسية
70	قصر خاتمة	40	قصر بني غدير	09	مدنين - قصر لوبيرة
71	قصر القديم - زنانة-	41	قصر بيولي	10	قصر بولسوار
72	قصر الدغاغرة (المزطورية)	42	غمراسن - قصر بوغالي	11	قصر البحيرة
73	قصر معاند	43	غمراسن - قصر الرصفة	12	قصر الجلبد الغربي (الجباه)
74	قصر بوزيري	44	قصر المربطين	13	قصر الجبد الشرقي (الجوامع)
75	قصر أولاد عبد السيد	45	قصر الفرش	14	قصر الخلف
76	قصر قلمست	46	قصر فرماسة	15	قصر البرزلية
77	قصر أولاد سلطان	47	قصر ثلاث - الشهبان	16	قصر بن يوسف
78	قصر الرمة	48	قصر الفاعة	17	قصر زقور
79	قصر المزة (الدغاغرة)	49	قصر بوفقة (النفايصية)	18	قصر الخير
80	قصر بوحريدة	50	قصر كرشاو	19	قصر أولاد إبراهيم
81	قصر بني يخزر	51	قصر كروز	20	قصر بني خداش
82	قصر بني مهيمة (العطايا)	52	قصر الغرياني (النفايصية)	21	قصر الخربة
83	قصر بني مهيمة (زرغان)	53	قصر بحير	22	قصر الجوامع
84	قصر العمارة	54	قصر مقابلة	23	قصر الكريكية
85	قصر أولاد عون (بني مهيمة)	55	قصر الدغاغرة (أولاد عبد الله)	24	قصر أولاد بوعيد
86	قصر العين	56	قصر شنتي	25	قصر المحاضة
87	قصر الروضة	57	الجليدات 1 - قصر غورغار	26	قصر السموميتة
88	قصر الزهراء	58	الجليدات 1 - قصر بوجليدة	27	قصر ورجيجن
89	قصر السعادة	59	قطلوفة (قصر العجاردة)	28	قصر أبيار واد الخيل
90	قصر زرغان	60	قطلوفة (قصر الجلالطة)	29	قصر الخراشفة
91	قصر الشقايف (الحميدية)	61	الجليدات 2 - قصر أولاد	30	قصر أولاد محمد بن عمار
92	قصر الشقايف (الكراشوة)		عبد الواحد	31	قصر بئر الأحمر (العباسة)

المصدر: هريوت بوب وعبد الفتاح القاصح 2010: قصور الجنوب التونسي، أطلس مصور لثراث ثقافي، بايروت ألمانيا، 400 ص. (بالفرنسية).

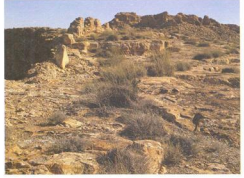
WWW.Ksour-tunisiens.com



قصور القمم والقرى الجبلية



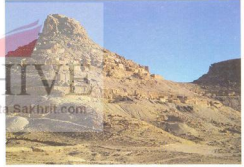
قصر بولسوار



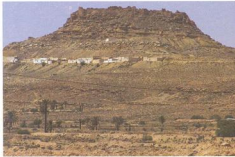
قصر البرزائية



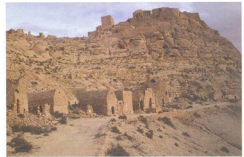
شني



قرامسة

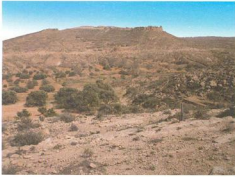


بني بركة



الدويرات

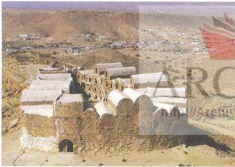
قصور الجبال والتلال



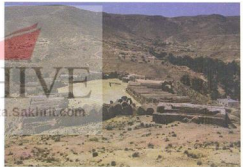
قصر الجوامع



قصر أولاد مهدي



قصر المرابطين



قصر الخلتوف

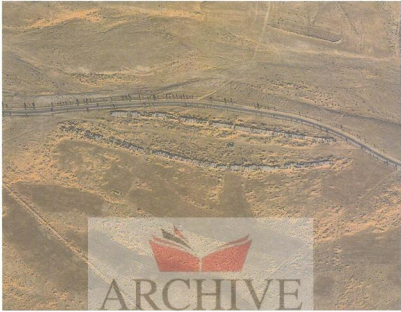


قصر القديم - زناتة-



قصر الخراشفة

قصور السهول



<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>
قصر العمارة - بني مهيرة

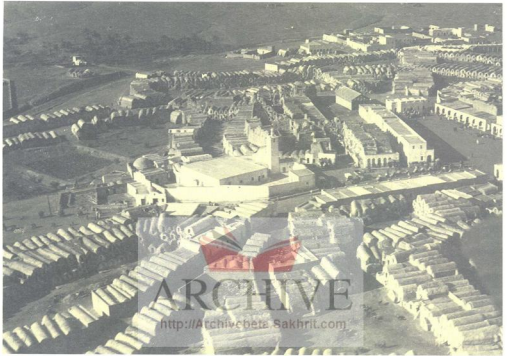


قصر برقفة



قصر الغاعة

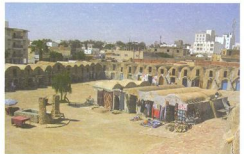
مدنين مدينة القصور



مدنين سنة 1936

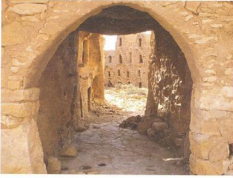


قصر النخلة . . . لم يبق منه إلا النخلة .



أحد القصور الثلاثة المتبقية من قصور مدنين

بوابات وسقائف



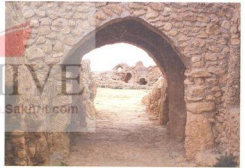
قصر المرابطين



قصر الزهراء



قصر القديم



قصر الجوامع

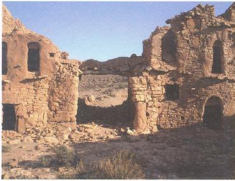


قصر تونكت

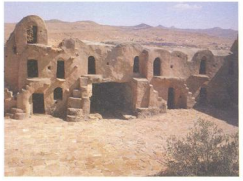


قصر معاند

غرف وطوابق



قصر أولاد عبد السيد



قصر العوايد



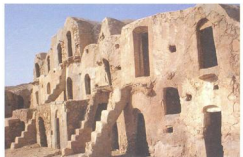
قصر المراتين (قبل الترميم)



قصر بوحريدة



قصر أولاد سلطان

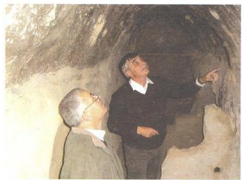


قصر أولاد عبد الواحد

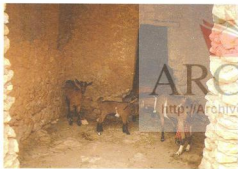
مخازن ومخابئ



قصر الدخاغة (أولاد عبد الله)



قصر المفايلة



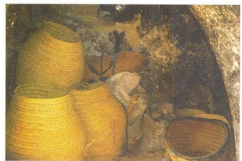
قصر أولاد بوبكر



قصر كرشاوا



قصر الزهراء



قصر زُمور

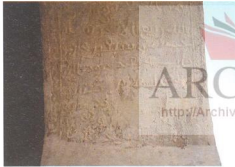
نقائش وزخارف



قصر البرزلية



قصر المخابلة



قصر القادهم - زناتة-



قصر الدغاغرة



قصر بني بركة

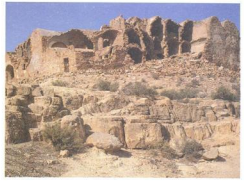


قصر بولسوار

خراب وتهديم



قصر بني يخبزر



قصر معاند



قصر بني بركة



قصر تونكت

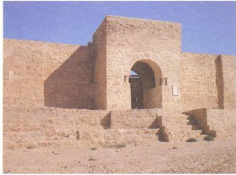


قصر أولاد مهدي

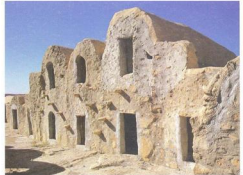


قصر عظيم - بتگردان

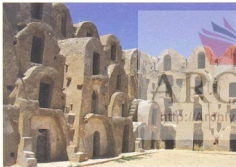
صيانة وترميم



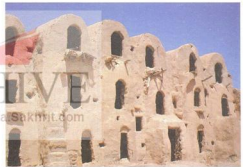
قصر القديم - زناتة



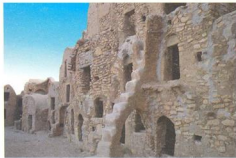
قصر زمور



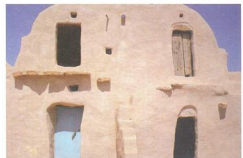
قصر الزهراء



قصر أولاد أمحمد - الجليدات



قصر المهابلة



قصر المورة - الدغاغرة

التوظيف السياحي: محاولة إنقاذ



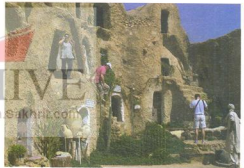
قصر الخدادة



قصر أولاد دباب



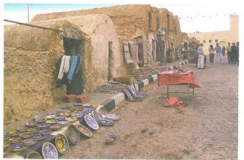
قصر الفرش



قصر مدلين: المتحف



قصر أولاد سلطان



قصر أم التمر

القصور بالجنوب الشرقي التونسي بين التصنيف والتوظيف عبر العصور

كمال العروسي (*)

1 - مُقَدِّمَة :

إنَّ الحديث عن القصور بالجنوب الشرقي التونسي يحمل في طياته العديد من الجوانب والأبعاد الإنسانية والحضارية والتاريخية. فهي عنوان لما تبقى من الشواهد العمرانية بهذه الربوع باستثناء بعض المعالم الأثرية الرومانية ذات الطابع العسكري (قصر غيلان) أو الميناء التجاري ببوغراقة (حكتام) أو تجغت (1) أو بعض الشدود الفلاحية المنتشرة ببعض الأودية. إن هذا المقال هو مدخل لبحث معمق طويل النفس، نحاول فيه أن نعود بالذاكرة الجماعية إلى هذا الموروث المعرفي والحضاري بهذه المناطق، عبر تاريخها الطويل الذي تجلّت فيه عبقرية السكان القدامى في المحافظة على بيئتهم والتعامل معها بعقلانية كامنة حافظت فيها الأجيال على التوازنات الطبيعية بلا إفراط ولا تفريط.

وإن ذكّرت بعض الدراسات بأن عدد القصور يتجاوز المائة وخمسين، (2) فإنّه وحسب المسح الميداني الذي

قمنا به على مدى ثلاثة أشهر (ربيع 2003) لم يقصّر رصدا إلاّ اثنيَ وثمانين قصراً من بينها خمسة قلاع، ستة وخمسون منها بولاية تطاوين. ولقد حرصنا في تلك الدراسة على توخّي المناهج العلمية بالاعتماد على بحث الجغرافي مُستفِيز مع التحريّ لدى السكان المحليين والمُعَدِّلِ لأيّ دليلٍ على وجود أثرٍ خفيٍّ خلال الدّراسة الميدانية التي اتّسع مجالها من قصور أمّ الثّغر وقصر الحلوّف شمالاً، إلى قصر غيلان وقلعة البرقي غرباً، إلى ذهبية جنوباً ووُصُولاً إلى قصر هنشير الفرس وقصر بُوْقَة شرقاً. ولقد وقع نشر نتائج هذه الدّراسة بإفاضة في مجلة المناطق القاحلة (3) مع إصدار لقرص مضغوط تفاعلي تحت عنوان: «بانوراما القصور بالجنوب الشرقي التونسي»، يُمكن مُستعمله من المعرفة الدّقيقة لمُكوّنات القصر وكيفية الوصول إليه من خلال الضّوّر والمعلومات الخاصة بالقصر ومُحيطه وتاريخه مع تحديد موقعه على خريطة تفاعلية (1/200000) متضمّنة لإحداثيات النّقاط الجغرافية.

(*) باحث، تونس

وإن لم نجد، خلال المسح الأثري الذي قمنا به، ما يؤكد إشارة محمّد حسن إلى وجود نقاش تدعّم نظرية تعمير قصر قطوفة منذ القرن الخامس هجري، إلا أنّ المصادر التي استعان بها المؤرّخ تؤكد أنّ «قصر قطوف»: يُعتبر من أهم القصور السكنية بجبل دمر، الذي استوطنته فرع من لواتة بنو قطوف، الوارد ذكره في المصادر منذ القرن الرابع هـ / X م (5). ويبقى السؤال: هل كان القصر على هيئة القصر المتعارف عليه اليوم؟ أم أنّه كان على هيئة غيران جبلية كتلك التي تمّ العثور على النقاش بداخلها حسب إحالات المؤلف.

وهذا الاختلاف في التكوين تواصل مع عبد الصمد زايد الذي يرجع تاريخ إنشاء القصر إلى خمسة قرون خلت (513 عام)، معتمداً على نقشة رُسمت بنفسية (6). أمّا بالنسبة لنا فلم نعث داخل القصر سوى على نقشة تحمل تاريخ 1164 هـ / 1750 م. أمّا بالنسبة للنّاشطين في جمعية صيانة القصور والمحافظة على التراث ببني خدّاش، فإنّهم يرجعون منطقة «دمر» الحديثة، أي بني خدّاش، كأصل لانتشار عمارة القصور بباقي الجبل في حقبة «دمر» القديمة في العهد الوسيط. ويعود تاريخ أقدم قصر وقع وصفه، حسب نقشة وجدوها داخل إحدى الغرفتين المتبقيتين من القصر في بلد البرزالية ببني خدّاش، تحمل تاريخ 777 هـ / 1375 م، كما يرجعون ما تبقى من آثار قصر البرزالية إلى سنة 809 هـ / 1406 م (7).

- التّفطت الصور أثناء البحث الميداني، صحبة أحد شيوخ قطوفة (إمام القرية) ويظهر بإحدى الصّور مسجد العزامة (الذي يرجع أ. لويس أنّ تاريخ بناء صومعته «المقرضة» يعود إلى نحو 900 سنة) (8) وبأخرى تظهر بعض النقاش الجدارية. يبعد قصر قطوفة حوالي سبعة كم جنوب شرق مدينة تطاوين ويوجد على تلة مرتفعة (أكثر من مائتي متر). يحتوي على قرابة الألف غرفة ومعصرة وهو بحالة مُتداعية، ويجواره عند منحدر التلة توجد «زاوية سيدي السّايح» والد «سيدي يوجليدة» وهو مزارٌ ليوما هذا.

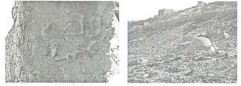
إنّ تتابع هذه القصور فوق تلال وجبال بني خدّاش وغمراسن وتطاوين ليستهي على سهول «الجفارة» و«الوعدة»، ليُوجي للزّائر للجنوب الشرقي، بأنّه وسط عقد تضيئه هذه المعالم التاريخية التي تعتبر أوّل معمارٍ ذي طبيعة مشتركة يشهده سكّان محليون مُتميّزاً بذلك على باقي الآثار المعمارية التي يكون وراء بنائها سلطة مركزية، وكانوا ينزعون إليه لحزن محاصيلهم الزراعية ولطلب الأمان زمن الاضطرابات على مدى قرون الألفية الثانية.

سوف أركّز في هذه المقالة، بالاعتماد على مُعطيات الدراسة السابقة (2003) وبعض المراجع، على إبراز مُختلف الأدوار والأطوار التي عرفها القصر على مرّ العصور من خلال التصنيفات التي وظّفت هذه المعالم لهذا الدّور أو ذاك.

2 - حديثٌ في النّشأة :

وإن اختلف بعض الباحثين على وضع تاريخ مُحدّد لنشأة القصور، إلا أنّه اتفقت جُلّ الدراسات في إرجاع ظهور القصور إلى حقبة ما بعد الحملات الأولى للفتح الإسلامي لبلاد إفريقية التي برز فيها سهول الجنوب الشرقي التونسي، وخاصة إثر الغزو الهلالي (1051). وإن ضُمنت بعض الدّراسات المُوظّفة من المستعمر الفرنسي هذه النّشأة في إطار الترويج للثنائية القائمة على نظرية الأقلية البربرية التي تصدّ العنصر العربي الغازي من خلال تحصنها بأعالي الجبال وبناء القلاع والقصور، فإنّ الشواهد الأثرية وتمازج العنصر العربي والبربري وتكامل الأنماط الإنتاجية والمعيشية جعلت من هذه الثنائية المزعومة دعابة سياسية وإيديولوجية لتخريب التسيج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في تلك المناطق المقاومة للإحتلال. ويكفي أن نُشير هنا للدراسة التي قام بها أحد تلامذة الأب أندريه لويس، فرانسوا بويون، لدحض مزاعم الأدبيات الإستعمارية (4).

زاوية الحاج سالم وزاوية سيدي مبارك التابعة لقبيلة الربابعة العربية.



صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحلة. 2003

صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحلة. 2003

حسب نفس الدراسة الميدانية، فإن عدد القصور التي تمّ جردها بلغ 82 قصرا متشرة على سلسلة جبال ولايتي مدلين وتطاوين وهي قصور جبلية، وبعض تجمّعات من القصور توجد في السهل وهي القصور السهلية.

3- القصور بين التصنيف والتوظيف عبر القصور:

قبل الشروع في تعداد التصنيفات المختلفة التي عرفها القصر بهذه الربوع، من المهمّ أن نشير إلى الخاصية التي تتميّز بها الصيغة العقارية للجبل والتي تنضوي تحت النظام الأساسي للملكية الخاصة، بينما كانت السهول وخاصّة المراعي ذات صبغة مشتركة، وذلك على عكس الوضع المألوف بباقي تراب الوطن، حيث يخضع الجبل لنظام الملكية العمومية والسهول لنظام الملكية الخاص.

مثّلت هذه القصور، عبر التاريخ، المخزن والملاذ للقبائل المتجاورة بأثام السلم والحرب، وبعض النظر عن المزايا الاستراتيجية والأمنية لمواقع انتصابها فإنها شكّلت عنصراً معمارياً فريداً من نوعه ومركزاً عمرانياً جامعاً لعموم القبائل المتجاورة فيما يخصّ ملكيّة الأراضي المحيطة بالقصر وأراضي المراعي المشتركة. أذكر من هذه القصور:

- قصر الحراشفة (معتمدية بني خدّاش) الذي تشترك في

وفي انتظار المزيد من البحث والتحري في هذا الموضوع، يبقى «القصر القديم» أو «قصر حليفة الزناتي» بقرية المزطورية، والذي هو أقرب - تصنيفا وتوظيفا- للرباط ذي الصيغة العسكرية، أقدم القصور بالجهة، حيث يعود بناؤه إلى حوالي أربعين سنة بعد الغزو الهلالي لبلاد إفريقية (1051) أي سنة 485 هجرية الموافق لـ 1092 ميلادية، وقد بناه أبو داود بن عبد الرحمن بن إلياس الوسيطي وذلك حسب النقشة الجدارية الموجودة بسقيفته، وهو ذو شكل مستطيل، وتبلغ مساحته الجمليّة 2500 م² أمّا غرفه فتصل إلى 200 غرفة وتتميّز بكثرة النقوش والزركشة، وتكفّلت وزارة الثقافة بصيانته وشرع في ترميمه منذ سنة 1993.

ويرجع أحد أقدم القصور، وقع رصده خلال البحث الميداني الذي قمنا به سنة 2003، إلى القرن الخامس عشر للميلاد (1478م-883هـ)، حسب النقشة التي وجدناها بسقيفته، وهو قصر مُعَايَد الذي ترجع ملكيته إلى قبيلة الكراشوة بولاية تطاوين (9).

- قصر مُعَايَد، يبعد 6 كم عن مدينة تطاوين باتجاه الزهرة يليه منعرج على اليمين. يرجع تاريخ بنائه إلى سنة 883 هجرية. ذو طابقين، يحتوي على 92 غرفة و10 غيران وفسقية ماء وبحذوه

- قصر الفرش (معمدية غمراسن) الذي تشترك في ملكيته أربع قبائل محليّة (غمراسن، قرماسة، عبايسة، شهبان) ويعود تاريخ هذا القصر إلى سنة 1318 هجرية الموافق لـ 1900م وبه 480 غرفة منها 120 غرفة بحالة انهيار. توجد به معصرة زيتون ومحطة استراحة ومغارة للسّواح وبجواره معصرتان، بئر، مسجد وزاوية سيدي عبد القادر.

- قصر الفرش (معمدية غمراسن) يقع جنوب مدينة غمراسن على بعد 6كم منها باتجاه تطاوين.



صورة: كمال العروسي، معهد المناطق القاحلة. 2003

تعمل هذه القصور بين جوانبها سجلّ التقسيم العقاري للمنطقة بين القبائل المتجاورة، إذ يخضع تقسيم الغرف داخل القصر والفضاءات التابعة له (معاصر زيتون، فسافي، مساجد و«زوايا») إلى موازين القوى الخارجية من حيث حجم القبيلة ونسبة امتلاكها للأراضي المحيطة به. أمّا الغالبية من القصور فهي تحمل اسم القبيلة التي تنفرد بملكيتها للأراضي المحيطة مثل قصر أولاد بوعبيد، قصر أولاد دباب، قصر أولاد سلطان، قصر أولاد شهيدة... ويمكن تلخيص هذه المسألة في أنّ هذه القصور تعطي الإشارة الأولى للرسم العقاري القبلي بهذه الربوع. فالفقر يُحاكي التقسيم العقاري المحيط بالقصر، وقد ورد في تراث الفرق الأيماضية كتاب «القسم وأصول الأراضي» للشيخ أبي العباس التّوفسي وهو مخطوط وقع نسخه في القرن الثامن عشر (1162 هـ)، وذلك في باب إنشاء القصر وبنائه: «قلْتُ: فقوّم أرادوا أن يبنوا قصرًا فيما بينهم

ملكيتهم سنّ قبائل محليّة (خراشفة، أولاد بويكر، أولاد مهدي، أبوريد، عبايسة، حرارزة)، وأفراد أتوا من المغرب شاركوا في المعارك ضدّ قوّات الاحتلال الفرنسي بهذه المنطقة وجازتهم القبائل المحليّة بإسناد بعض الغرف إليهم كعربون وفاء وتقدير وسُمّيت غرف المغاربة. وقد ذكر عمّار السوفي أنّ «الأخوين أمحمد وعبد الكبير بن جلّون أصيلي مدينة فاس المغربية قد شاركا ثوَّار بني خدّاش في معركة «ارنيان» يوم 11 سبتمبر 1954 (...). أثناء مواجهات اليوسفيّة لجيش الاحتلال الفرنسي نجد ضمن ثوَّار بني خدّاش جزائريًا وهو الحاج بلقاسم قمع الذي جلب إلى بني خدّاش سلاح الهاون من مصر (...). كما شارك في تلك المعارك ثلاثة مجاهدين جزائريين ومغربي حضروا تجمع ثوَّار جيش التحرير التونسي في قصر الخراشفة» (10). ويعود تاريخ هذا القصر إلى سنة 1206 هجرية الموافق لـ 1792م وبه مسجد وثلاثة فسافي وغرفة تتوسّط الساحة الداخليّة للقصر يشغلها شيوخ الميعاد والقاضي. جُفرت تحت القصر أربعة معاصر زيتون ضخمة وبجواره أقيمت سبع زوايا (ثلاث منها لقبيلة الرباية: سيدي أحمد لسود، سيدي لخضر، سيدي محمد بوشوشة، وأخرى للعطاوة باسم سيدي عمر بن شلي، وإثنان للشواذلة سيدي ضو المغربي، سيدي محمد بن توالي). كما توجد زاوية أخيرة باسم أبي الخضراء).

- قصر الخراشفة (معمدية بني خدّاش) على بعد 10 كم من مدينة بني خدّاش في اتجاه واد الحيل يتكوّن من 180 غرفة وقد انهيار مُعظمها.



صور: كمال العروسي، معهد المناطق القاحلة. 2003.

قصر المرابطين



قصر أولاد دباب



قصر أولاد سلطان



صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحشة. 2003

على مدى تاريخها، حرص القائمون على القصور على صيانتها وتكليف من يقوم على حراستها، كما حرصوا على توفير الخدمات لروادها من ماء صالح للشرب (القسافي والأبار) ومبىة مؤقتة، ووظفوا بعض الفضاءات داخل القصر أو على مقربة منه للعبادة، أو لعصر الزيتون. كما قاموا بتخصيص غرف ممتدة بداخله أو بجواره للحرف والصناعات المختلفة من جدادة (بالنسبة للأدوات الفلاحية والأسلحة) وجزار الفارس وفرسه وبعض الأواني من النحاس والقصدير والحديد، ونجارة (خشب النخيل للأبواب، وخشب الزيتون لأواني الأكل والهرس)، وقتل أو تحويل الألياف النباتية (بالنسبة للمنتجات المتكزة خاصة من الحلفاء، السبط، سعف النخيل أو القصب لصناعة السلال والحاويات والمفتولات المختلفة لجمع المحاصيل الزراعية أو تخزينها مثل الكمبوت والزوتية والشوامي أو الحبال والحصير والسجاد بأنواعه) وصناعة الجلد والفخار (جرار لحزن الزيت والماء وأنية للطهي والأكل) والتسيج من صوف الأغنام ووبر الإبل وشعر الماعز (الغزارة، الحبل، الفليج، المخلاة، الوسادة، الطريقة...).

من جانب آخر، حرصت بعض القبائل الأخرى على توظيف بعض معارفها الدينية في «الزوايا» المجاورة للقصور لخدمة زوارها، للتبرك وطلب الوسيلة وإقامة الحفلات الصوفية وحفلات الختان وإحياء المناسبات الدينية. ومن هذه القبائل التي تفردت بهذا الطابع قبيلة الجليليات بتطاوين

خوَص كانوا أو عامة وقد اشتركوا في الأرض التي أرادوا أن يبنوا فيها؟ قال: يبنون حائط قصرهم على قدر ما لكل واحد منهم من الأرض، فيكون حائط السور بينهم على قدر سهامهم من الأرض، وكذلك إن بنوا فيه بيوتا على هذا الحال، وتكون على قدر سهامهم من الأرض، كذلك الغرف على هذا الحال مثل البيوت» (11).

ولا تُجَازَف كثيرا إذا ما اعتبرنا أنَّ القوانين التي صدرت منذ العقد الأول للإستقلال والمتعلّقة بتصفيّة الملف العقاري للأراضي القبلية والاشتراكية (12) قد ساهمت بصفة غير مباشرة في الخراب الحاصل بهذه القصور نتيجة الإشكالات الحاصلة حول ملكيّة الغرف الموجودة داخل القصر والتي تأثرت بالصبغة الجديدة للأراضي المحيطة بالقصر. وهذه الوضعية جعلت من الصعوبة بمكان عمليّات ترميم الغرف وصيانتها لتعقيد مسألة الملكيّة داخل القصر.

من جهة أخرى حرصت القبائل و«العروش» على بناء القصر بما يتناسب مع قوتها ومركزها بين القبائل. يتضح هذا من حيث اتساع الرقعة التي بُني عليها القصر مثل قصر أولاد دباب، وإن تعدّد ذلك للصعوبة التضاريس المحيطة فيالعلوّ، إذ يمكن للقصر أن يبلغ خمسة طوابق أو أكثر مثل ما هو الحال لقصور المرابطين وأولاد سلطان وما كانت عليه قصور مدين. فيما قامت بعض «العروش» الأخرى ببناء عدّة قصور بأماكن مختلفة ولعل أقوى شاهد على ذلك «عرش» الزرقان من قبيلة أولاد عبد الحميد (عرش الكراشوة، عرش الحميدية، عرش الزرقان، عرش العمارنة) وعرش الدغاغرة من قبيلة أولاد سليم (عرش الدغاغرة، عرش أولاد دباب، عرش أولاد شهيدة، عرش الذهبيات) اللذان اعتمدا هذا الخيار. فبالنسبة للدغاغرة مثلاً، اتخذوا لهم ستة قصور (قصر الدغاغرة بتطاوين، قصر الدغاغرة أولاد عبد الله، قصر بوزيري، قصر بّجير، قصر المزة، قصر الناموس) متواجدة على كامل المجال الممتد بين تطاوين وذهيبية، وفي ذلك دلالة على اتساع رقعة أراضيهم بالجليل والسّهل على حدّ سواء.

ولقد كادت بعض تجمّعات القصور أن تتحوّل إلى «مدن قصورية» وخاصة بمنطقة الحربة (الزهرة حالياً) بجهة تطاوين، وقرية أم التمر ومدينة مدين بجهة مدين. ومدينة مدين الحالية قامت على آثار أكبر مجمع للقصور بالجنوب التونسي. ويرجع تاريخ هذا التجمّع القصورى إلى القرن السابع عشر على إثر تشكّل «حلف ورغمة»، أواخر القرن السادس عشر، المتكوّن من مزيج سكاني اختلط فيه العنصر العربي بالعنصر البربري (زنانة) بعد تمكّنهم من إحكام السيطرة على سهل «الجفارة» واندحار قبيلة المحاميد إلى الشمال والتوايل إلى الجنوب بالتخوم الطرابلسية. ولقد ساهم مجيء الولي «سيدي علي بن عبيد» بالقرن السابع عشر من المناطق الطرابلسية (14) واستقره بجوار قصور التوازين على تشجيع باقي القبائل المكوّنة للحلف على الاستغناء على قلعة حمدون وقلعة نفق، بجبل غمراسن، والاستقرار بالسهل وبناء القصور حول الزاوية التي قام بإنشائها فوق ربوة بين وادين.

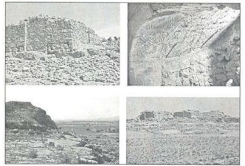
على امتداد القرن السابع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين شهدت مدين ميلاد أكبر مدينة قصورية جمعت قرابة الخمسة وعشرين قصراً صُنّمت 6000 غرفة (15)، بقيت قائمة حتى موفى الثينيات من القرن العشرين حيث وقع الإجهاد على كلّ القصور ما عدا قصرين بقيا ليشهدا على هذه الكارثة التي حلّت بهذا التراث المعماري والتاريخي بدعوى التحضر والتمدّن. ففي تلك الفترة من عنفوان بناء الدولة التونسية الحديثة اختلطت دلالات التخلّف مع المفاهيم السطحية للحدّثة لتجعل من هذه المعالم الأثرية أولى ضحاياها.

إنّما ليست المرّة الأولى التي كانت فيها هذه القصور محطّ أنظار السلطة المركزيّة ليقع تصفيها تحت هذا الباب أو ذاك حسب الظروف التاريخي المستجد. ففي حادثة سابقة وعند بداية الحملات العسكرية الفرنسية على الجنوب التونسي، أمر قائدا الحملة العسكرية الفرنسية الجنرال «جامي» والجنرال «فيليار» بتخريب قصر دثر وقصر الجوامع (16) وحرّق المحاصيل بدعوى أنّها تمثّل الاحتياط الغذائي لقبيلة ورغمة كما جاء في مراسلة المقيم العام الفرنسي لوزير الخارجية

والتي انحدر منها الولي المشهور بالجهة «سيدي عبدالله بوجليدة» وقد شيد له مقام بتطاوين ويوجد كذلك لأبيه «سيدي السايح» مقام في محيط قصر قطلوفة. ولم نجد من الشواهد الأثرية ما يدل على أسبقية الوجود: «الزاوية» أم للقصر؟ أمّا بعض القصور الأخرى فقد اقتضت على إضافة مسجدٍ مُلاصقٍ لكل منها للصلاة وتعلّم القراءة والكتابة.

أمّا بالنسبة للسلطة المركزيّة، فقد وُفّرت عنها هذه القصور عناء الاتصال بالسكان، الذين غالباً ما يكونون رُحلاً، وذلك لجمع الضرائب أو لطلب النصرة ضدّ عدوّ يهدّد أمن الدولة وحدودها. حيث كانت تمثّل القصور مراكزاً لتجميع المحاصيل الفلاحية الموسميّة وخزنها، كانت بنفس الوقت مراكزاً لتبادل الخبرات والأخبار، ممّا جعلها تستقطب اهتمام السلطة على عهد الدولة الحفصيّة (13) وخاصة إبان دولة البايات التي حرصت على الاتصال بشيوخ القبائل في مواسم خزن المحاصيل بقصورهم سيّما وأن نظام الحِلّ والترحال كان النظام المعيشي المعتمد لدى هذه القبائل بحيث تُصعّب عمليّة الميضي. ومن المحتمل أن تكون السلطة المركزيّة زمن البايات قد أمرت ببناء قصر صغير بجهة غمراسن يحمل اسم قصر الترك. ومن المرجّح أنّ مكان كتابة القصر لرجال المخزن والمحلة المكلفين بجمع الضرائب وتوجد إلى يومنا هذا بقايا من هذا القصر. ويحتل قصر الترك موقعا استراتيجيّاً عند تقاطع طرق القوافل.

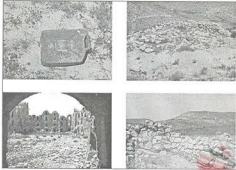
- آثار لقصر الترك على بعد 4 كم جنوبي مدينة غمراسن عبر طريق الفرش



صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحشة. 2003

- آثار للتحصينات وبعض الحاويات التي استعملتها الجيوش المتحاربة أثناء الحرب العالمية الثانية بقصر بوهريدة (قبيلة الزرقان) على بعد 17 كم من مدينة تطاوين باتجاه الزهراء الذي بُني عام 1601.

ولعلّ هذا الرأي يجد ما يدعمه في ما ذهب إليه عبد الصمد زايد بذكر تخريب قصر مُعاند خلال الحرب العالمية الثانية (19).



صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحلة 2003

والفلس الخايات التخريبية للنسيج الاجتماعي والسياسي والاقتصادي داخل منظومة الفضاء القبلي، شجعت السلطات العسكرية الفرنسية فروع بعض القبائل المهاجرة لها وذلك باقتطاع بعض الأراضي السهلية وإسنادها لها بشرط أن تتكفل ببناء قصر فيها. ووجدت بعض العائلات الضعيفة داخل قبيلتها فرصتها لتحسين وضعها المادي ومركزها بين القبائل من خلال توسعها الترابي داخل المجال الرعوي المشترك، الشيء الذي جعل القبائل ذات الشوكة والطاعة في تاريخ الفروسية تواكب هذه العملية من باب الحرص على نفوذها. ولقد أنشئت عديد القصور، جزاء هذه العملية، نذكر منها: قصر المزة لفرع من قبيلة العمارنة بُني عام 1903، وقصور الشقائق للزرقان والكراشوة (1907)، وقصر الحميدة (1907)، وقصر الذبان (1907) وقصر بوقفة وقصر هنشير الفرس لفرع من

الفرنسي بتاريخ 12 ماي 1882 الذي أوصى بالهجوم على قصر مدين والقصور المحيطة للإستحواذ على المخزون المائي والغذائي بهذه الأماكن (17). ولقد أشار أ. لويس في دراسته للمنطقة، إلى أنّ عديد

- صورثان لقصر الجوامع بيتي خدش (2003)



- صورثان لقصور مدين (1920)



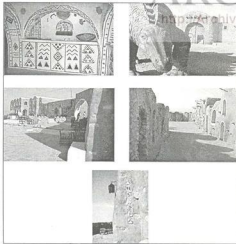
صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحلة. 2003

القلاع والقصور قد وقع تخريبها من قبل قوّات الاحتلال الفرنسي للجهة أثناء حملاتها العسكرية الأولى (1882) أو إبان قمعها لثورة الوادنة (1916-1915) حيث تمّ تدمير قلعة أولاد شهيدة وقلعة تزغندت إلى القصف المدفعي، ويذكر الكاتب أنّ هذه الأخيرة قد تمّ تحويلها، عام 1916، إلى كئنة لقوّات المخازنية التابعة لجيش الاحتلال الفرنسي، بعدما كان معقلا للمقاومة يلجأ إليه الثوّار ويعصدهم في ذلك مبعوثون من السلطات العثمانية بطرابلس (18).

ركّزت قوّات الاحتلال الفرنسي، منذ حملاتها الأولى، على حمل سكان هذه المناطق القبيلة على الإذعان لسلطانها من خلال الإغارة وتدمير بعض القصور، مثلما سوف نوظف لاحقا خلال الحرب العالمية الثانية في معاركها ضدّ قوّات المحور بالجنوب الشرقي التونسي، من نوفمبر 1942 إلى مارس 1943 (معركة «خط مارت» العسكري الممتد من مارت إلى تطاوين)، حيث استعملت كتحصينات لمواقع عسكرية من الطرفين.

وتوضيح الملف العقاري لهذه القصور من طرف السلطات المختصة يُعتبر أول خطوة على طريق الإنقاذ والترميم والصيانة المستقبلية لها. وندعو، من خلال هذا المقال، لتضافر جهود الجمعيات المدنية والمؤسسات الجامعية والبحثية والمهتمة بالتراث لإنجاز مخطط مدير يصل بالموضوع حد العمل على تكوين ملف تقني، علمي وإداري يهدف إلى إدراج مجمل هذه المعالم ضمن منظومة التراث العالمي التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، إضافة إلى رسم خارطة طريق تهدف إلى المواجهة بين القطاع العام والخاص وتعبئة الموارد البشرية حتى تُواكب هذه المعالم سائر النهضة التي تشهدها بلادنا. وتُرافق هذه العملية إعادة إنتاج مفهوماً للسياحة البيئية والثقافية داخل هذا الفضاء بمقاربات فلسفية على المدى البعيد، تجعل من هذا التراث رصيдаً مستديماً ومتجدداً لقطاع السياحة الداخلية والخارجية، وتحفظ للذاكرة الجماعية تواصلها على مدى أجيال.

- قصر أولاد دباب وقع استغلاله من طرف مستثمر تونسي في ميدان سياحة النزل منذ سنة 2005



صور: كمال العروسي، معهد المناطق الفاحلة. 2003

قبيلة الجليديات اللذين بُنِيَ عام 1910 (20)، وكان قد تمّ بناء أغلب هذه القصور بسهولة الوعرة في التخوم الحدودية. ويهدف هذا الإجراء لإحكام سيطرتها على هذه المناطق وقطع الطريق أمام المقاومة التي وجدها من السكّان الرّحل لهذه الربوع وخاصة من قبل أولاد خليفة، من قبيلة التّوازين، تمهيدا لرسم الحدود بين تونس وليبيا في 19 ماي 1910، بعد إخضاع السكّان وفتح الأسواق الحدودية لسلعها.

ومن عمليات التوظيف الحديثة لهذا المخزون التراثي الهام الذي تختزله القصور بالجنوب الشرقي التونسي إدراجها ضمن العناصر الرئيسية للتنمية السياحية والتشيط الثقافي داخل هذه الجهات التي هجرها أهلها وزارها السّائح الأجنبي، وإذا بنا نستعيد ذاكرتنا من خلال نظرة «الأخر» إلينا، إذ أنّ وعينا ما يزال مُستلبًا، يدخل الأسواق العالمية ليُخرّج منها بمفكرة للسنة الجارية مع التّعليم على ما يجب علينا فعله... إنّ هذه الفلسفة الخاطئة التي تجعل متّاعاً «للأخر» لا مُحاوراً له، هي التي يجب التصدي لها بكلّ عزم وثبات. يتمّ هذا على طريقين: يزيد من الوعي بطبيعة العلاقات الإنتاجية على كافة الأصعدة وذلك بالتركيز على الإنتاج الإبداعي داخل بعض القصور المهتأة للغرض، لأنّ من ابتكر تقنيات الري والرعي والفلاحة والحزن والعمارة الملائمة، هو نفس الإنسان. فقطاع الخدمات السياحية، وإن كان هامًا، يجب أن لا يصرفنا عمّا هو أهم وأبقى، أعني بذلك مهمة إنقاذ هذا الموروث المعماري والحضاري من التلف والإندثار. وذلك بالانهماك الجدي في ترميم بعض القصور المتداعية والمهدّدة بالانهيار بطرق علمية مدروسة من حيث استعمال مواد وطرق البناء التقليدية والمحافظة على الطابع الأصلي لهذا المعمار بدون تشويه لميزاته. ونضرب مثل قصر زنّانة القديم كمثال على ما لا يجب القيام به في موضوع الترميم حيث غطى الطلاء الزخارف والنقائش التي طالما ميّزت غرف هذا المعلم التاريخي. إنّ الشروع في دراسة تصفية

المتداولة في تلك الأحقاب والتي وفّرت الاكتفاء الذاتي لسكان تلك الربوع وتكامل المجموعات البشرية عبر التبادل السّلعي والخدماتي بين البدو والحضر وبين أهل السهل وأهل الجبل.

- نقاط تجمّع سهّلت للسلطة المركزية الإتصال بشيوخ القبائل لطلب النصرة ضدّ عدوٍّ مُتَحَفِّزٍ أُولِجِعَ الضرائب.

- أحياناً أخرى، أُعْتُبِرَت هذه القصور مَصْدَراً لِلتَوَثُّرِ مع السلطات المركزية أو الغازية ذهب بها حدّ التخريب لهذه المعالم يُنْظَرُ لِقُدْرَتِهَا على تجنيد الموارد البشريّة حولها لما تُوفِّره من حماية أمنيّة وغذائيّة للقبائل المحيطة.

- في الفترة الأولى من الإستقلال كان يُنْظَرُ للقصور على أنّها إرثٌ من الماضي المتخلف دفع السّلط الجهووية بإصدار وتنفيذ قرارٍ في هدم ما لا يَبْقَى عن 20 قصراً ببلدّة مدين.

- في الفترة الحاليّة أُدرجت القصور في خارطة السياحة الصحراوية والثقافيّة تماشياً مع روح العصر ونفحات العولمة التي تعتبر تميّز الجهة بهذه المعالم التاريخيّة وافد حلقاً للتسويقها كمُتَجِّحٍ سياحيّ عالي القيمة.

في التاريخ الحديث لم يقع الانتباه لهذا الموروث المعماري إلّا من خلال نشاط بعض الجمعيات المحليّة والمهرجانات المُستحدّثة لتنشيط السياحة الصحراوية داخل هذه المناطق. وفي غياب منظومة إستراتيجية جامعة تأخذ بعين الاعتبار الجانب البيئي بمختلف أبعاده، علاوةً على الأخذ بعين الاعتبار الغايات التنموية، تبقى هذه المعالم رهينة للتقلبات التي يُمكن أن تطرأ على العناصر الحافظة لهذا الاهتمام والتي تخضع لِسَوْقٍ عالميّة مُتقلّبة المشارب والأهواء.

ومن المفيد أن نستذكر بعض القصائد التي تغتت بالقصر وتاريخه، خاصّة عندما يكون الشاعر من جهاذة الشعر العاتي بالجهة، علاوةً على معاشته لحياة القصور في بداية القرن العشرين. ومن بين هذه القصائد قصيدة «حوار مع القصر» التي قمنا بتسجيلها في لقاء خاص مع شاعر الجبل المبروك الحمدي (21) يجدها القارئ في الصفحة 144 من هذا العدد لمجلة الحياة الثقافية). وهي قصيدة مثّلت جماع كليم تماهت فيها ذات الشاعر مع ذات عارفة هي ذات القصر موضوع القصيدة، حيث جعلنا نشعر باختلاجات القصر وحنينه لماضٍ تليد. كما جعلنا نحسّ بأناته يوم يُدْنِسُ أرضَ ساحتِه غاراً مُحْتَلَّ بغِيض. وكيف يعبّر القصر عن فرحته وسعاده بأيام النصر على المحتل.

4 - خاتمة :

تعدّ القصور بالجنوب الشرقي التونسي من المعالم الأثريّة المميّزة والمميّزة لهذه الجهة ضمن خارطة المعالم الأثريّة للبلاد التونسيّة. ولقد شكّلت طابعاً معمارياً تفرّدت به المناطق الجبلية وسهول «الجفارة» و«الوغة» بالجنوب الشرقي التونسي، ولقد عرفت، عبر العصور، عدّة تصنيفات نتج عنها توظيف تراوح بين:

- مخازن معيشية للقبائل وملاذ آمن زمن الاضطرابات.
- مراكز هاتمة للإتصالات والتشريع والقضاء بين القبائل.
- مراكز جامعة لمختلف المعارف والحرف والمهن

- المصادر الشفوية:

(ال) حمدي المبروك (شاعر) تم تسجيل اللقاء مع الشاعر يوم 15 مارس 2003 بئر الزوي بمنطقة الظاهر من معتمديه بني خدّاش

- المراجع العربية:

- (ال) نجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد، رحلة النيجاني، تونس، الدار العربية للكتاب، 2005، ص 375.

- (ال) سوفي عمّار، بني خدّاش وجيرانها عبر الحركات النضالية (من الحركة التمردية إلى المقاومة اليوسفية)، مطبعة الرشيد، صلاتو، 2001، ص 240.

- حسن محمد، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جزء 1، جامعة تونس الأولى، أورييس للطباعة، 1999، ص 279، 863.

- (ال) حسين الهاشمي، قصور جبل دمر: شواهد حضارية وروافد تنموية، برنامج الندوة العلمية، مهرجان بني خدّاش الدولي، 16 مارس 2010، ص 7.

- (ال) نفوسي الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطني، القسمة وأصول الأراضين، كتاب في فقه العمارة الإسلامية، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، 1992، ص 528.

- المراجع الأجنبية:

- Albergoni Gianni, Pouillon François. Le fait berbère et sa lecture coloniale: l'Extrême-Sud tunisien. Cahiers Jussieu, 5 Juin 1975, n°2, p. 349-396 ; p. 354.

- Laroussi Kamel. Le Gass: vestige des temps nomades. Revue des Régions Arides, n°20 (numéro spécial), juin 2008, p. 47-97. (Actes de l'atelier international sur le thème: Diversité du patrimoine culturel et naturel dans le Sud-Est tunisien: problématique de la conservation/valorisation. Organisé par l'Écomusée des régions arides: IRA-Medenine, 13-14 juillet 2004).

- Louis André. Tunisie du Sud, Ksars et villages de crêtes. Paris: Éditions CNRS, 1975, p. 85 ; 370 p.

- Martel André. Les Confins Saharo-Tripolitains de la Tunisie (1881-1911). Paris: Éditions PUF, 1965, p. 276.

- Zaid Abdesmad. Le Monde des Ksours du Sud tunisien. Tunis: Éditions Centre de Publication Universitaire, 2006, p. 23 ; 237 p.

- المصادر الأجنبية:

- Cambon Paul. Rapport au ministre des Affaires étrangères en date du 12 mai 1882, SHD, Tunisie, 2H49 (D1).

- Service des affaires indigènes. Historique du Bureau des affaires indigènes de Medenine, 1931, SHD.

- (1) التجاني، 2005، ص 135.
- (2) Zaid Abdesmad, 2006, p. 23.
- (3) Laroussi Kamel, juin 2008.
- (4) Albergoni, G, Pouillon, F, 5 Juin 1975, p. 354.
- (5) محمد حسن، 1999، ص 279.
- (6) Zaid, A, 2006, p. 57.
- (7) الهاشمي الحسني، 2010، ص 7.
- (8) Louis, A, 1975, p. 85.
- (9) Laroussi, K, 2008, p. 92.
- (10) السوفي عمار، 2001، ص 138.
- (11) الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر القرطبي التغمسي، 1992، ص 163، 528 ص.
- (12) تذكر منها قانون 28 سبتمبر 1957 المتعلق بالقانون الجديد المنظم للأراضي الإشرافية والذي ألغى بموجبه القوانين السابقة: 23 نوفمبر 1918، 30 ديسمبر 1935، 29 جانفي 1940.
- (13) محمد حسن، 1999، ص 279. حيث يذكر الكاتب: «وقد تَبَقَّت آثار العهد الحفصيّ بموقع دتر، شمال القرية بنحو 6 كم، وهي متمثلة في مسجد كاهفي، يطلق عليه مسجد علولو...»
- (14) حسب المصادر المحلية فإن سيدي علي بن عبيد هو الجد المؤسس لقبيلة مدنين، ولقد ذكر التجاني في رحلته بهذه المناطق بين عامي 1306 و1308 م، هذه القبيلة، حيث وجدها بجهة زنور قرب طرابلس والتي حسب ما جاء في وصفه شهدت فلاحه وعبادتها وقصورا كثيرة يهددها زحف الرمال. ولقد ورد ذكر قبيلة مدنين في معرض حديثه عن قبيلة مجريس البربرية التي تملك هذه الأرض شراء من أهل طرابلس «وأهل زنور قوم من البربر هواريون ثم مجريسون»، نفس المصدر، ص 191. ومجريس الذين سبوا باسم أنهم، فخذ من قبيلة هوار التي هي في نظر التجاني وهط خليط من العرب والبربر، وأن أباهم هوار بن المثنى بن المسور بن يخصم، قدم من الجبل وتزوج بأرملة زناتية (أم صنهاج ولفط) فكثر نسله منها واتسع (الهواريون). كانت قبيلة مجريس البربرية تلعب دور القبيلة المحترقة. وكان لها إذ ذاك أجناد مرسومون في ديوان العطاء كلهم من أهلها قد علوا هنالك جدا إلى على طرابلس، ورسم لهم عطاء بقضونه من خراج طرابلس فكانوا يذيقون الأعراب شراء، ويكفون منهم قسادا كثيرا وضرا، نفس المصدر، ص 192. وفي أول سنة 676هـ، تمكن مرغم من صابر من قبيلة الجوارى العربية من الدولة وتلك هذه الأرض بظهر ملكي، وسعى في الانتماء منهم إلى أن كاد يفتنهم. حينها تفرق عقد هذه القبيلة وانقسموا إلى فرق كان من بينها بنو مدنين... ويضاف إليهما باقي الفرق كالحطابين وبنو مزبلة والإبراهيميين وبنو ررق وبنو مدنين وغيرهم في حال الحرب والسلم والخلف والمعاقدة، وجميعهم منقسمون بين المراجعة من الجوارى على رتبهم لكل واحد منهم جماعة يجيها ويحميها وربما تبايعوهم فيشتري أحدهم ونسأله وولده للجابة بما يتراضى مع صاحبه عليه ويجعل أداء في كل عام على حسب شجره وسعة أرضه، وليس أهلها ملاكا في الحقيقة لشيء منها وإنما هم أجرا للعرب ناصحون واسم الملكية لهم هو النصح في الخدمة»، نفس المصدر، ص 193.
- (15) Service des affaires indigènes, 1931.
- (16) Martel André, 1965, p. 276.
- (17) Cambon Paul, 12 mai 1882.
- (18) Louis, A, 1975, p. 88.
- (19) Zaid, A, 2006, p. 226.
- (20) Laroussi, K, 2008, p. 79.
- (21) المبروك الحيدري: أصيل منطقة المظفار (عسادة المتزلة، معتمدية بني خداش)، عرش البلملة من قبيلة الحوايا، والشاعر من مواليد سنة 1927. وكان الشاعر قد ألّف هذه القصيدة سنة 1978، خلال ندوة شعرية نظمها وزارة الثقافة بدار الشعب بتطاوين وتم تسجيلها بالإذاعة التونسية. ويذكر لي الشاعر بأن اختيار موضوع قصير أولاد دباب في قصيدته قد أحدث فجة كبيرة من طرف قبيلة الجليليات التي رأت في ذلك تحيزاً لأولاد دباب ورفضت منهم حضور الاحتفال. تم تسجيل اللقاء مع الشاعر يوم 15 مارس 2003 بئر الزوي بمنطقة الظاهر من معتمدية بني خداش.

الحرف والصنائع بمنطقة قصور الجنوب الشرقي التونسي

الضاي موسى (*)

1 - مدخل تاريخي :

يقوم رزق المجتمعات البدوية أكثر ما يقوم على الفلاحة، ويبدل الناس لكسب قوتهم جهدا كبيرا خاصة في مثل هذه الجهات التي يغلب عليها المناخ الصحراوي الجاف والقليل الأمطار.

فمارس الناس حرفة الفلاحة من تربية الماشية التي تمثل مصدر عيشهم الأساسي إلى زرع الحبوب وظلوا بين تنقل وإقامة مقتضين أثر الأمطار على ندرتها (1) بأذلين أقصى الجهد للحفاظ على القطيع الذي فيه حياتهم ومنه طعامهم ولباسهم... وما كانوا يحتاجون للملابس الكثيرة ولا للتأتق فيها ولا لأنواع الأطعمة وأصنافها «كول ما حَصُرَ والبس ما سَتَر» وما كانوا يحتاجون للكثير من أثاث البيت، وكان على المرأة أن تصنع بيدها ما يستقيم به شأن بيتها وليتي حاجة أسرتها كما كان على الرجل أن يصنع بعض أدوات عمله مما يوفره المحيط من مواد طبيعية... فلم تكن لديهم من المصنوعات إلا القليل على قدر حاجتهم إليها ويقدر ما تقتضيه متطلبات عيشهم.

يتكوّن مجتمع أهل القصور من صنفين، فمنهم من يغلب عليهم الاستقرار بالجبال ولكنهم مع ذلك يرحلون رفقة مواشيهم بحثا عن الكلا ومنهم من يغلب عليهم الترحال ولكنهم يستقرون أيضا حول قصورهم في مواسم محددة.

وقد نشأت في تلك القصور صناعات وحرف كالحدادة والتجارة وغيرها. ولكن هذه الحرف كانت بسيطة عند أهل العمران البدوي وهي أكثر تطورا وتنوعا عند أولئك الأكثر استقرارا من أهل قصور القرى الجبلية (الدويرات وشنتي وقرماسه...) الذين امتازوا بجملة من الصناعات والحرف منها التسيج والصغيرة وصناعة الطين... «أنا العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط، خاصة المستعمل في الضرورات» (2). وبقي الأمر على حاله فترة غير قصيرة خاصة مع ضعف السلطة المركزية إبان الحكم العثماني حين غرقت منطقة ورغمة في حالة من الفوضى العارمة لا تعرف الاستقرار.

وحين وضع الاستعمار الفرنسي يده على الجهة مع

(*) باحث، تونس

البعض من أجزائه فالقصر لا يبنى دفعة واحدة بل يشتد على مراحل، ويختار الحارس من بين من يُرتضى من أبناء القبيلة المالكة للقصر أو المواليين لهم، يتخذ له في الغالب داخل القصر مقراً ومقاماً.

ولا بد أن تتوفر في الحارس (أو العساس) جملة من الشروط لعل أهمها : الأمانة والقدرة وملازمة القصر. فلا يكون ممن عرفوا بسوء السلوك ولا من بين صغار السن ممن يظن أن تغلبهم نزوات الشباب ولا من الشيوخ الذين ضعفت أبدانهم كما يشترط فيه ملازمة القصر بالسكن أو بالجوار. وهو يتقاضى مقابل ذلك أجرة تكون في الغالب من جنس ما يخزن في القصر من الحبوب قمحا أو شعيراً أو من الزيت أو التين المجفف أو الصوف أو غير ذلك. . . والغالب أن يكون أجره صاعين شعيراً في الحول للغرفة الفارغة وربما تضاعف الأجر للغرف التي تحوي بعض المخزونات. كما يُعطي الحارس عند الحزن على سبيل الإحسان والهدية شيئاً مما يوجد به أصحاب الفضل.

والنقطة عنصر هام في الحارس فلهذه تودع مفاتيح كل الغرف التي تحفظ فيها أهم الأشياء من وثائق الملكية وبعض الخيل وبعض الأسلحة خاصة، وهو الذي يراقب حركة الدخول والخروج متخذاً من سقفة القصر التي يمر منها الجميع مجلساً... فإن خان الأمانة وثبتت إدانته يعزّم بإرجاع ما أؤتمن عليه فإن تعذر ذلك فعلى القبيلة التعويض، ويغتر الحارس ويشهر به. وتشترط بعض القبائل أن يكون الحارس قادراً على القراءة والكتابة



قصر الدويرات فوق قمة منيعة

نهاية القرن التاسع عشر سعى إلى توطئ الناس وتثبيتهم في مجتمعات جديدة حول القصور حتى تيسر له مراقبتهم وتحويلهم من مجتمع رعوي متنقل إلى مجتمع استهلاكي مستوطن وأحدث بعض المدن مثل قصر (3) بنقردان (1885) ونطاوين (1887) وجمع الناس في «أسواق» ثابتة ما لبثت أن تطوّرت المبادلات التجارية فيها (4). فاستقر البعض ورفض الكثيرون كل ما له صلة بالمستعمر من استقرار وتعلم وتعاطي الصناعة والتجارة وامتنان الحرف فتهبّأ من بعض السكان المقيمين من مارس بعض الحرف.

وما لبثت حركة التوطئ والتدجين أن قويت ولم يقدر البدو الفقراء المستضعفون عن مقامتها. وأخذ المجتمع يميل نحو الإستقرار والتمدّن ووجدت الحاجة لتطوير بعض الحرف والصناعات التي تستجيب لحاجة الناس في حالتهم الجديدة بما تتطلبه من الجودة والحدق. وتدرّجت الحرف من حالتها البدائية التقليدية إلى حالة أكثر تطوراً.

ولاشك أن دراسة هذه الحرف تعكس شيئاً من حياة الناس وتكشف وجوهاً من طرق عيشهم وتنظيم مجتمعهم في فترة محدّدة من تاريخهم.

II - الحرف لدى مجتمع القصور :

2-1 : الحراسة

يعدّ موضوع الأمن أهم ما يشغل الناس في كلّ العصور ويعتبر توفير حياة آمنة للناس مطلباً أساسياً من متطلبات الحياة. ولكن هذه الغاية لا تدرك إلا بتوافر أسبابها. ويصعب إدراكها حين تقلّ ذات اليد في أرض قليلة الزرع جافة الضرع، تكون فيها الغلبة للأقوى شوكة والأكثر مهابة. ولذلك فقد احتفى أهل القصور بقلاعهم النبعة وأولوا أمر حراستها عنايتهم وشيّدوا فوق القمم قصورهم وجعلوا فيها من الحماة والحراس ما يجعلهم آمنين في الزرق والأهل والنفس. وأوكلت حراسة القصور والقيام عليها لمن هو أهل لها وأقدر عليها.

يعتّن الحارس حال الشروع في بناء القصر وحضور

و ربّما مارس البتّاؤون المهرة مهنة التّحت لصنع بعض الأدوات من الحجارة الصّلبة مثل خريزة المعصرة أو معلف المواشي، وهو عمل يتطلّب حدقا وصبرا كبيرين.

و لئن كان القصر ينسب في الغالب للقبيلة ولها تعود ملكيته (قصر الدّغاغرة، قصر بني بركة، قصور



مراحل حرق الجبس

الجليدات...) فإنّ ذلك لا ينفي الملكية الخاصّة للفرد، فكل غرفة على اسم صاحبها وهو الذي يتولّى بناءها في توافق تامّ مع جيرانه من باقي القبيلة الذين يشترك معهم في جهة من جهات الغرفة وربّما في كلّ جوانبها. فيكون القصر بذلك مثالا رائعا لتوافق الملكية الفردية مع الملكية الجماعية فلا تلغى الواحدة منها الأخرى.



فرن صناعة الجير

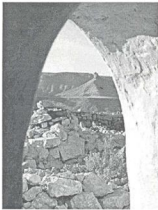
أو على قدر كبير من الذّكاء حتّى يميّز ما يؤمن عليه ويودع لديه من الأمانات. وينوب «العساس» وعند غيابه أحد أبنائه أو زوجته. فإذا توفي قبل الحول تسدّد القبيلة لأسرته خلاصا كامل الحول وتعيّن حارسا آخر. وقد بقيت أسماء آخر حراس القصور عالقة في الذاكرة، منهم: العربي للموم بقصر من قصور الجليدات الثلاثة وسعيد التّونكتي وبوبكر دحّام بقصرين من قصور قطفوفه وأحمد الصّغير بقصر الزّهراء (الخريزة سابقا) وعلي بن عمر العربي بقصر الدّغاغرة وغيرهم كثير...

2-2: البناء

لا يمكن لمن شيدوا هذه القصور الكثيرة التي تعدّ آلاف الغرف إلّا أن يكونوا بتّانين مهرة. ولا يمكن أن تكون تقنيات البناء وموادّه إلّا متوافقة مع ما يتطلّبه المحيط وما تفرضه طريقة العيش.

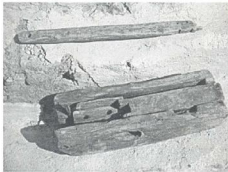
فقد سكّفت كلّ الغرف بطريقة الكمر (5) والقباب وأنخذت الأقواس والعرضات سندا لها مع جدران عريضة ممّا يسمح بدرجة حرارة مقبولة توفّر ظروف تخزين ملائمة، كما يدخل الغرفة بها يكتفي من الهواء والشمس بنوافذ صغيرة جدّا تحدّث مجرى هوائها على تجديد الهواء بالغرفة.

أمّا موادّ البناء فلا تخرج عمّا يوفّره المحيط الغني بالحجارة، التي تقام بها الأسس والجدران وتحرق في أفران (6) مخصّصة ليصنع منها الجبس أو الجير بحسب مهارات تناقلها البتّاؤون لاحقا عن سابق وخبروا تقنياتها. كما يستعمل خشب التّخل وأعواد الزّيتون في إعداد الهيكل الساند (7) و تستعمل التربة لتسوية استدارة الكمرة وترسم عليها نقوش مختلفة ترزين سقف الغرفة ورموز مختلفة، قد تكون لها مدلولات ومقاصد يعرفها راسموها... كما ترسم على التّراب قبل وضع طبقة الجبس كتابات مثل البسملة أو اسم الجلالة أو اسم الرّسول صلى الله عليه وسلّم، أو حتّى أسماء البتّانين وتواريخ البناء أو الترميم أو غيرها.



وفرة الحجارة بالجبلان مثلت مادة أساسية في تشييد القصور

التي تنشر منها ألواح مسطحة تُشدّ بأضلاع ومسامير من أعواد الزيتون الصلبة، وقبل استعمال جذوع النخل يقع تحفيفه في مكان ظليل بعد أن يغطى بالملح فيستدّ عوده ولا ينزب له السوس، وتصنع للأبواب أقفال من خشب الزيتون تسمى «البوجل» يجتهد التجارون في إعداد ما يناسبها من الفاتح الخشبية فيحفرون في خشبة المزالج نقولاً بأقصة معلومة ويحمل المفتاح من المسامير الثابتة ما يقابل تلك الثقوب فلا يفتح الباب إلا حين تقابل مسامير المفتاح ثقوب القفل ولا يمكن لأيّ مفتاح آخر أن يفتح باب الغرفة، ويمرّ المفتاح عبر كوة بجدار الغرفة.



البوجل أو القفل والمفتاح الخشبيين



خززة المعصرة يطلن بها الزيتون



معلف للمواشي تحت من الحجارة



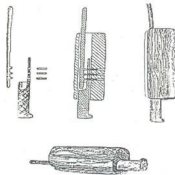
نقوش ورسوم مختلفة تزين سقفوف الغرف



هذا ما بناه محمد بن علي البراك (وهو بناء شهير من الدوريات)

2-3 : النجارة

«التجر القطع، ومنه تجر النجار ونحته، والتجر تحت الخشبة، ونجارة العود ما اتضحت منه عند التجر». ولعلّ حرفة النجارة التي كانت سائدة في الجهة تنطبق عليها تعريف ابن منظور للنجارة لمعالجتها من الأعواد والخشب ما يصلح لحياة الناس. وهي بذلك من أقدم الحرف التي عرفها الإنسان، وقد ازدهرت ونمت لدى أهل القصور مع انطلاق أشغال بناء القصر وذلك بإعداد أبواب خشبية تصنع من جذوع النخل





قصعة مرقعة

2-4 : الحدادة

مارست هذه الحرفة فئة من الناس دون غيرهم حتى غلب اسم المهنة عليهم فعرفوا بالحدادة وصار لهم لقباً. تقول الروايات المتداولة أنَّ ثلاثة من الحدادة قدموا من الشرق (من كابو بليبيا) واستقر كل واحد منهم في قصر من قصور الجهة. أما سكان ما يعرف بقصر الحدادة فهم أصليون غمراسين ممن كانوا يحترفون الحدادة وهم الذين شيدوا القصر قبل غمراسين، وقد يكونون منحدرين من جبل حدادة الواقع بين قمراسه وشنتي وهي تسمية محليَّة على الحدادة بين المناطق (8).

يتخذ الحداد غرفة له بناحية من القصر تتكدس بها قطع من المعادن هناك دون ترتيب أو تصنيف ويتوسطها المنافخ أو الكير.

و تتمثل صناعته في سكك المحارث ومقايض بعض الأدوات وأعمدة الحفر والمناجل والمجارف والسلاسل والأجلام والحماميس (9) والفؤوس والقواديم كما تصنع صفائح نعال الخيل علاوة على بعض الأسلحة والسكاكين... كما يقوم الحدادون بمعالجة بعض الأواني المعدنية بمادة «الفزدير» (10) حتى لا تصدأ.

بدأ الحدادون في مغادرة القصور منذ تجمع الناس في المدن والقرى وأحدث في تطاوين حي خاص بهذه الحرفة يسمى صفة الحدادة (حي الحدادين).

ولكن السيد أحمد بن مصباح الحداد مازال يمارس حرفته

كما يصنع التجار المهاريس ومقايض الفؤوس وأقناب الرماح والمحارث وغيرها واختص التجارون اليهود في صنع القرايش والمغازل والغرايل.

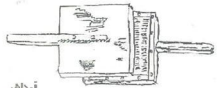
و يشهد على ذلك بيت أحد الشعراء :

تَسْتَأْهِلِي يَا وَزْرَةَ الْمِثْلَعِ

قُرْدَاشُ مِنْ عِنْدِ الْيَهُودِي مِطْلَعِ



مغزل



قرداش



مهراس خشبي

مهراس خشبي

وكثيرا ما يدعى التجارون لإصلاح الجفان الخشبية وترقيعها أو معالجة بعض القطع الخشبية الأخرى...

و يعتبر خشب الزيتون الأفضل لصلايته وبه تغطي سقفية مدخل القصر، كما تصنع من خشب السدر العصي فيعقّف عودها وهو أخضر ثم يجفّف في الظل حتى لا يتشقق. ويستعمل خشب النخل لصنع الأبواب وربما اتخذت منه أعمدة تسد على باب القصر من الداخل لإحكام غلقه كما يصنع منه معلق الماشية ومغيار الحبوب ولا توجد بالقصور غرف مسقفة بخشب النخل كما هو الحال بغدامس مثلا أو غيرها. أما خشب شجرة التين فلا يصلح لشيء من التجارة لتجوّفه من الداخل وسرعة تسوّسه.

وأوتاد الخيام وفي موسم الحصاد تتعقد المناجل والتوارج ومع اقتراب عيد الأضحى تشحذ السكان، كما تصنع السطول والقذور النحاسية وغيرها... وهو بذلك أنشط الحرفيين على طول العام.



السيد الحسين بن محمد الحداد
ورث الحرفة عن جدوده



السيد محمد الحداد يشحذ جلما
بصفة (حني) الحداة بتطاوين

إلى اليوم بقصر عون وهو بذلك آخر حدّادي القصور، وهو متعلّق بحرفته ويمتدّ أن يواصل أبناؤه تعاطيها من بعده.

وللحدّاد موسام كثيرة تنشط فيها حرفته فمع موسم أمطار الخريف تصنع سكك المحارث والمعاول والفؤوس



السيد أحمد بن مصباح الحداد
آخر حدّادي القصور. قصر عون



صانع الخيل كانت رائجة

2-5: التجارة

2-5-1: القصر السّوق :

لعلّ أوّل مركز تجاريّ بالجبهة هو قصر بني بركة الواقع جنوب شرقيّ تطاوين، وقد عرّف القصر فيما يبدو عمليات تبادل تجارية بالمقايضة ثمّ عرف النقود، وتتمثّل المبادلات التجارية خاصّة في الحبوب والأصواف وبعض المحاصيل الفلاحية الأخرى كالتيّن المجفّف (الغريوز) أو المشرح (الشّريح) وغير ذلك ممّا يقوم عليه طعام النّاس، وينسب للسّوق مكيال «الويبة البركاوي» التي تكاد بها الجبلون في الجهة والتي تختلف عن «الويبة التونسي» ومقدارها نصف الويبة التونسي. وقد ساعد وجود زاوية سيدي عبد الله بوجليده المقابلة للقصر أسفل وادي غرغار على حلّ ما يطرأ في السّوق من نزاعات تنجرّ عن عمليات البيع والشّراء فيها يقع أداء اليمين الذي بقي عرفا تلاجاً له محاكم الجهة إلى يوم النّاس هذا. كما أنّ وجود القصر على طريق القوافل الضّحراوية المارّة عبر وادي زُنْدَاق في اتجاه غدامس ومبكتو كان واحداً من أسباب ازدهار التجارة في السّوق.

وإذا كان قصر بني بركة يحمل إسم القبيلة المجاورة له فإنّ ملكيّة غرفه التي تتجاوز الأربعمئة تعود لكثير من القبائل المجاورة منها ما يصلح للخنز ومنها ما أعدّ للتجارة. ولعلّ وجود قطع نقدية قديمة بأحد شوارع بني بركة (11) يؤكّد ازدهار التجارة فيه دون غيره.

قطعة نقدية ضربت بتونس
في عهد السلطان محمود



وينسب بكلّ قصر تاجر يوفّر بعض الموادّ الضّرورية من مأكول وشاي وغير ذلك ممّا يحتاجه النّاس. وهي تجارة صغيرة يبدل عليها تسمية صاحبها بالتّوجير.

2-5-2: الباعة المتجوّلون :

1 - الشّلاق :

لم يكن أهل القصور مستقرّين طول العام فهم يتنقّلون إلى حقولهم ومراعيهم في فصول معيّنة بحثا عن الكلأ أو لممارسة أنشطة أخرى... وقد نشأت عن حركة التّقلّح حرفة الباعة المتجوّلين وهم الشّلاقه (واحد شلاق) وهو تاجر يحمل سلعته على ظهره في سلّة أو سلتين يضع فيها من التّلع ما خفّت حملة كالإبر والماسيك والأبخرة واللّوبان والخواتم والسّواك والخرز والحذاء والأمشاط والمفاتيح العاجية السوداء، يطوف حيث يتجمّع النّاس في خيامهم أو غيرهم أو غيرها... ويبيده عصا طويلة يحتمي بها من الكلاب مناديا «بذلّ

2-7: النسيج

معين منه : الوزرة والحولي (لباس الرجال) والبخنوق والتعجيرة والكثفة وحولي النساء الصوفي الذي لا يخلو منه «جهاز عروس» (لباسا للنساء). كما عرفت شنتي بالرّقمة الشناوية واشتهرت منها مثلاً تمّصمضت (رقمة) عيشه بنت عياد، وغيرها... ويقتصر النسيج في هذه الجهات على الصّوف في ألوانه الطبيعية وربما استعملت معه ملونات طبيعية من الوسط المحلي. أما «المسدي» الأفقي فيستعمل له شعر الماعز مخلوطاً بقليل من الصّوف، لتصنع منه الغرارة (لحمل الجيوب) والفليج والطريقة (لصنع بيوت الشعر) والمخلاة وغيرها...

تقتصر حرفة النسيج على النساء وهي أكثر تطوّراً عند سكان قصور القمم مثل شنتي والدويرات وقرماسه أما بدو القصور السهلية فلهم نسيجهم الذي يختلف عن السابقين. ولعلّ طبيعة المساكن هي التي تحدّد تقنيات معينة ووضعيات مخصوصة. لذلك استعمل سكان «الغيران» المنسج العمودي الذي يمكن استعماله داخل الفضاءات الضيقة والصغيرة بينما يستعمل غيرهم من أهل التسهول المنسج الأفقي الذي ينطرح أرضاً.

و قد عرفت نساء شنتي والدويرات وقرماسه بنسيج



نول عمودي



نول أفقي (صنع فليج)

(أولمن) وهي تمرّر بين خيوط «الجذّاد» وتسوّى بالمرود أو المسلة (تأذراً) ثم تدقّ به «الحلاله» (تحمّداً) ولذلك قيل «دقّ خلال» للقطعة الجيدة الصّنع مثل قولهم في أماكن أخرى «نقش حديد».

ولهذه الحرف مصطلحات ومسميات معلومة يتداولها أصحاب الحرف فتسمّى الخيوط العمودية التي تشدّ على خشبي النول العمودي «جذّاداً» (أوسّو) وهي من الخيوط الرقيقة أما الخيوط الأفقية فتسمّى «الطّعمة»

منسوجات من الصّوف الصافي :



كثفة



بخنوق



بخنوق الدويرات



تعجيرة غمراسن

عرفت الدويرات وشنتي وقرماسة صناعة المواد الطينية وكانت الدويرات أكثرها شهرة ولعل ذلك راجع لما تحويه الدويرات من كميات كبيرة من الطين، فبعض جبالها تعتبر اكاداسا عظيمة من الطين إضافة إلى توفر ألوان كثيرة منه بين أخضر وأحمر وأصفر وأبيض، تختلف جودتها باختلاف ألوانها... وتصنع من الطين بعض الأدوات المنزلية مثل القدر (تَقْدُوشْت) والطابونة (تَبْتُورْت) وبقيّة الجرار (ايفرسن) والطاجين (المعدّ لطفو الحيز) والكانون والمبخرة (تَجْمَعْمَرْت) وغيرها... وهي في الغالب حرقه نسيئة، وقد اشتهرت على مرّ التاريخ «مسعوده دبيره» التي مرّ بها قويار (16) سنة 1916 وتحدّث عن فنّها وحذقها بإطناب، وقد عرضت من إنتاجها مجموعة مصنوعات بمنحرف باردو لست أدري إن كانت مازالت معروضة أو أنها محفوظة ضمن مخزونات المتحف.

كما احتفظت ذاكرة الناس في الدويرات (البلاد) باسم المرأة «عَكْرُوت» التي كانت ماهرة هي أيضا في صناعة الطين وقد توقّيت منذ ما يقارب العشر سنوات. ومازالت السيّدة فاطمة الصابري (71 سنة) تمارس



حافظات نقود مزينة



مكحلة من الجلد المفروّز

وقد تطوّرت صناعة الجلد مع استيراد الفيالي (14) من غدامس منذ بداية القرن التاسع عشر. ووجدت الحاجة لمصنوعات أخرى.

فظهرت صناعات جلدية جديدة ملوّنة ومطرّزة بخيوط البلاستيك البيضاء أو الملوّنة وعرف بعض الحرفيّين ومهروا في صناعات كثيرة منها مكحلة الجلد (15) وحافظات النقود المثانة والمربّعة وأغمد السيوف وسروج الخيل وغيرها.

كما تتّصل بحرفة الإسكافي صناعة الجلد لثمنها، من بينها أدوات يحتاجها أهل هذه الجهة مثل :

- المروود: وهو جلد جدي أو حواء يدبغ بقشور الرّمّان أولاً لثلوته وتطريته ثم يدبغ بقشور الجداري لتعطيه المثانة واللون المائل للحمرة. ويصلح المروود لملابس الذّيق والتّشويق وحتى الثمر والشّريح.

- الشّكوة (للحليب) والسّمّاط (للماء في السّفرة) ويعالج كلاهما بالدّباغ فقط.

- القرية : تكون أكبر من الشّكوة والسّمّاط وتصلح لحفظ الماء للمقيمين. وتعالج بالصّريع (ورق الزيتون) والملح واللّوش (أزهار الرّمّان الصّغيرة).

- المَكّة : للزّيت والسّمّن. وتعالج بالرّبّ (ماء التمر المخلّى) أولاً ثمّ بحشائش الجبل العطرة.

- القرفة : وهي وعاء جلديّ كبير يصنع من جلد الجاموس وأشهرها قرفة فزان، وهي بمثابة الصّندوق الذي تحفظ فيه المرأة أمتعتها الخاصّة من عطور وحليّ ومرايا وحفّاء وغيرها... وآخر من اشتهر بصنعها وترقيعها بمنطقة الرّقة التّومي البكاي.

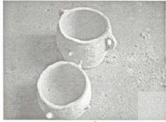


آنية من الطين مزينة من الدّاخل و من الخارج

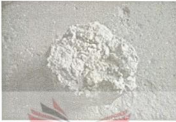


آنية من الطين مزينة من الدّاخل و من الخارج

وهي قطعة من عظم ضلعة جمل لا تتجاوز 15 صم طولاً. وترسم على القطعة بعض الرسوم أو الأشكال وتترك حتى تجف، ثم تحمي في موقد شديد الحرارة حتى يميل لونها إلى الحمرة... لتصير بعدها صالحة للإستعمال، ولمن أراد الزينة طلي القطعة بلون أحمر من الطين قبل «حرقها» ولعل بقاء هذه الحرفة قائمة زمناً طويلاً يعود إلى عادة كانت سائدة بالدويرات وهو أنّ لحم العيد لا يؤكل إلاً مطهراً في قدر جديد، ولذلك تستعد النسوة خلال الأسبوع الذي يسبق العيد للحدث وتعمّ الحركة وتحول القرية عندئذ إلى ورشة كبيرة لصنع الأواني الطينية.



أوان من الطين قبل "حرقها"



مادة الفخار



السيدة فاطمة الصّابري

تعدّ الضّفيرة مادّتها الأولى ممّا تنتجه الطّبيعة حول الفضل وهي لا تخرج عن مصادر ثلاثة تحوّلها إلى - السّديم أو الحلفاء: منه تصنع القفاف والحصر والشّوامي (لعصر الزّيت) والعدايل (تحمّل على ظهور الدّواب) والكنابيت (مفردها كنبت وتكون في الغالب كبيرة جداً لحزن بعض الحبوب) وغرابيل الزّيتون وتقتل الحبال من الحلفاء وبعض أدوات الحرارة وحتى فخاخ العصافير وبعض الدّلاء.



طبق من سعف النّخيل مزين بخيوط الصّفوف



ضفيرة

إلى الآن هذه الحرفة ولكنها تكتفي بصنع ما يحتاجه منزلها من الأواني الطّينية، وقد تعلّمت على يدي خالتها فاطمة بنت ابراهيم الصّابري.

وتمرّ صناعة الطّين بعدّة مراحل تبدأ بجلب الكميّة المحتاجة من مقاطع الطّين الكثيرة المنتشرة بمنطقة الدّويرات واختيار اللّون المراد استعماله ويوضع الطّين في الماء مدّة أربعة أو خمسة أيام ثمّ يؤتى بكميّة من التّفنّون وهي حجارة بيضاء برّاقة تدقّ وتطحن وتذرّ على الطّين عند عركه حتّى يتماسك ثمّ يشكّل المصنوع ويُسّلت «بالسلّانة»

2 - 10 : الضّفيرة

الضّفيرة واحدة من إبداعات إنسان هذا الفضاء الكبيرة تعلّمها أهل هذه الجهات وتوارثوها فكان لها اليد الطولى



حرفيّ مازال يمارس مهنة الضّفيرة غربال الزّيتون يصنع أيضاً من القديم يششّي

منهم قدر ما يستجيب لحاجاته وأخذها آخرون حرفة ومورد رزق. فعرفوا بها ومارسوها وأورثوها أبناءهم.

- الفُتُوح : وهي هدية يقدمها الطالب أول يوم له بالكتاب، وتكون ييضا أو حليبا أو خبزاً...

- الحُمسِيَّة : وهي معلوم أسبوعي يعطى للمؤدّب كل يوم خميس نقدا كان أو غيره...

- الختمة : وهي هديّة يعطيها الطالب لمؤدّبه عن ختم أجزاء معيّنة من القرآن الكريم (13 ختمة في كامل القرآن).

و للمؤدّب أدوار اجتماعيّة أخرى فهو الذي يكتب الرّسائل للغائبين ويقرأ ما يرد منها على ذويهم وهو الذي يؤمّ الناس في الصّلاة ويفتي في بعض القضايا الفقهيّة التي يعرفها... ويحظى المؤدّب باحترام الجميع تقديرا لما في صدره من كتاب الله.

III - الخاتمة :

لا شك أنّ الحرف والصّنائع تأتي على قدر حاجة الناس إليها وتنوّع على قدر تحضرهم وتخلّصهم، وقد شهد مجتمع مملكة القصور تحوّلا اجتماعيّاً كبيراً، واختلف معاش الناس وتطوّرت حاجياتهم حتّى إنّ ما كان يعدّ في السّابق ترفاً زائدا صار اليوم ضرورة ملحة، وتبعاً لذلك فقد تغيّرت خريطة المهّن كما تغيّرت ملامحها فانقرض البعض منها مثل حراسة القصر وصناعة الطّين وتجارة الأقفال الخشبيّة وتطوّر البعض الآخر بدخول الآلة المساعدة على مضاعفة الإنتاج وصارت بعض الموادّ الأصليّة مصدر إلهام لحرفيّين آخرين فصنعوا من نسيج الغرارة والفليج المحافظ والأحذية والحقائب. كما استنبط آخرون من رسوم التّسيح أشكالاً جديدة تحوّلت معها بعض الملابس إلى محترفي عرض الأزياء وتزيين الصّالونات، وصارت بعض الحرف المستحدّثة مورد كسب جديد ومصدر جذب للسّياح وعلى قدر عمران البلد تكون جودة الصّنائع للتّانّق فيها حينئذ واستعادة ما يطلب منها بحيث تنوّر دواعي التّرف والثّروة» (17).



من عمارة القصور بقصر أولاد سلطان

- سعف التخلّ : ومنه تصنع المراوح والمظلات والأطباق...

- الصّمارة أو الدّيس : ومنه تصنع الحصر وبعض الشّلال...

2- 11 : المؤدّب

مرّ على سكّان هذه المناطق حين من الذّهر غلب عليهم فيه الجهل وتفتّت الأميّة وعُلّ التعلّم عند بعضهم ترفاً زائدا لا يسمّن ولا يغني من جوع، غير أنّ ظاهرة التعلّم لم تنقرض تماماً ووجدت في بعض القصور حرفة تعليم الصّبيان بل إنّ «المؤدّب» كان يرافق بعض القبائل أثناء تنقلها في البادية.

و المؤدّب رجل له حدّ أدنى من التّحصيل المعرفيّ مع حفظ قدر من القرآن الكريم إن لم يكن كلّ. يتولى تعليم الأطفال سوراً من القرآن الكريم مع بعض المبادئ اللّغويّة الضروريّة وحتى تحفيظ بعض متون اللّغة أو الفقه، يتلقّى الطّلبة «الملة» ويكتبونها على ألواح خشبيّة يمداد يسمّى «الصّنع» يتحصّل عليه بحرق الصّوف وتحميسه ثمّ يضاف له شيء من الماء فيعطى ممداداً بيّناً مانعاً للسّواد ويستعمل للكتابة قلم من القصب.

يتقاضى المؤدّب مقابلاً شهريّاً من كل طالب إضافة إلى «علاوات» أخرى تتمثّل في :

المصادر والمراجع

- مقدمة ابن خلدون.
- سوسيلوجيا الصانع عند ابن خلدون لمحمد عبد المولى الدّقس (الجامعة الأردنية عمان).
- لسان العرب لابن منظور.
- مع البدو في حلهم وترحالهم. محمد المرزوقي.
- الجنوب التونسي (ليون برفنكيار) مخطوط، تعريب الضّاي موسى.
- طرابلس المنوعة (ليون برفنكيار) مخطوط، تعريب الضّاي موسى.
- ديوان الشّخّ المحسن : شاعر شعبي، جمع وتحقيق الضّاي موسى.
- خصائص عمارة الجنوب التونسي، رقية كيوة ورضا الرّقيق.
- الكامل الكبير، قاموس فرنسي عربي.
- F.G.GOBERT.Revue IBLA, 1939,n°2,3eme année,Tunis
- مقابلات شخصية مع السّادة المبروك الحداد والثّيباني بن علي الحدّاد وجمعه النّجار وأحمد الغديري ومصطفى الصّابري وفاطمة الصّابري وعلي التّاقب والحاج سالم بورخيص وعلي الطّغعي.

الهوامش والإحالات

- (1) يقول (Léon Perinquier) في كتابه (Le sud tunisien) إنّ معدّل نزول الأمطار بالجنوب التونسيّ هو سنة واحدة على ستّ سنوات.
- (2) ابن خلدون، المقدّمة.
- (3) يقول الشّاعر : «من قصر بقرطاج حيث أروحي *** وبعد أن كالاتي الهوى ما أكبر جوشي»
- (4) في سنة 1910 بلغ رقم المبادلات في سوق بتقردان 1127000 فرنكا. و تأتي بعدها جرجيس بـ 999000 فرنكا ثمّ مدين بـ 65000 فرنكا ثمّ جلي بـ 33500 فرنكا ثمّ مطاوي بـ 329000 فرنكا. المرجع ليون برفنكيار، طرابلس المنوعة.
- (5) الكمر كلمة بربرية معرّبة وتعني القبة نصف الأسطوانية.
- (6) انظر «خصائص عمارة الجنوب التونسي» ج 1 ص 123 تأليف رقية كيوة ورضا الرّقيق.
- (7) الهيكل السّائد (Le coffre).
- (8) من حديث مع أستاذ التاريخ محمّد الهادي الغرابي.
- (9) الخميس في القصص : الثّور.
- (10) القصدير تجلّى به أواني الطبخ.
- (11) من مخطوط للأستاذ منصور بوليفة ينسب فيه العملة المذكورة لعهد السّلطان محمود (1784/1839) الذي تولى الحكم من 1808 إلى 1839.
- (12) الشّاعر الشّليحي كلّ من ليبيا، انظر كتابنا « ديوان الشّخّ المحسن» ص 26، مطبعة تونس قرطاج 2002.
- (13) القدّ : الثّبر الذي يقد من الجلد. والقدّ سير يقد من جلد غير مدبوغ والجمع أقدّ، والقدّ أيضا : الجلد تخصف به الثّعال. (لسان العرب 11/ 52 طبع 1999).
- (14) «الفيلالي» جلد مدبوغ يكون أحمر أو أصفر أو أخضر يجلبه تجّار القوافل الصّحراوية من غدامس وهو في الأصل بضاعة سودانية.
- (15) المكحلة وعاء من الجلد تضع فيه المرأة كحلها.
- (16) مجلّة إيلا (Tunis), année III, 1939, n°2 (F. G. GOBERT. Revue IBLA).
- (17) ابن خلدون، المقدّمة.

قصور جبل نفوسة بين التهديم والصمود

مسعود أبو عبد الله (*)

قصور جبل نفوسة إلى بداية القرن 19 :

فرضت البيئة المحلية لجبل نفوسة على سكانه نمطا معيناً من الحياة، فقد اعتمد السكان على مياه الينابيع المنتشرة في أرجائه المختلفة وشيدوا بجوارها قراهم ومدنهم التي أخذت طابعاً معمارياً خاصاً حيث استخدموا المواد المحلية في البناء والمتمثلة في الحجارة والجص وجذوع النخيل والزيتون. كما اتسمت تلك المدن بوجود القلاع الصغيرة التي تسمى بالقصور حيث كان يوجد في المنطقة المعروفة بجبل نفوسة والممتدة من يفرن إلى وازن الواقعة على الحدود الليبية التونسية (1) حوالي 63 قصراً (2) يعود معظمها إلى الفترة الإسلامية المبكرة (3).

وينقسم الطراز المعماري لتلك القصور إلى نوعين الأول دائري الشكل والأخر مستطيل، ويأتي هذا التقسيم من حيث شكل الفناء الذي يتوسطها، كما تختلف أحجامها من قصر إلى آخر، ويتكون القصر في العادة من عدد كبير من الغرف موزعة على عدة طوابق، وهذه القصور تستخدم كمخازن لحفظ المحاصيل الزراعية وزيت الزيتون

والغلال، وقد صممت الغرف لتراعي متطلبات الحفاظ على المحاصيل الزراعية والمنتجات الحيوانية حيث زوّدت بفشحات لتجديد الهواء داخلها، كما أن الشكل العام للقصر يسمح بدخول ودوران الهواء داخل الغرف (4).

إن تلك القصور كانت تمثل المركز الذي تدار من خلاله أمور المدينة أو القرية حيث يخصص مكان داخل القصر يلتقي فيه الأهالي لتدبير أمور حياتهم، كما تقام داخل القصر سوق للبيع والشراء، ويشرف على القصر شخص يلقب بالأمين يقوم بالإشراف على تخزين المؤن داخل الغرف الخاصة بالتخزين، كما يتم إعلامه من قبل الأهالي بكمية ونوعية البضائع المراد بيعها (5).

لقد استعملت تلك القصور كحصون دفاعية لصدد الغارات، حيث يتم اختيار مواقعها بدقة فهي غالباً ما تقام على جروف جبلية شاهقة. ويكون لكل قصر مدخل وحيد من جهة الجرف الجبلي ويترك ممر ضيق للوصول إلى مدخل القصر.

إن اختيار هذه المواضع يساعد في عملية الدفاع، وتتم

(*) باحث، تونس

تالوت بناء على مشورة قائد الجيش بطرابلس أمير اللواء أحمد باشا حتى يتمكن سكانها من الدفاع عن أنفسهم وأموالهم ضد غارات قبائل ورغمة والهمامة من داخل الحدود التونسية (8).

وفيما يلي إحصائية تبين أسماء القصور التي وقع هدمها وعدد الغرف التي كانت تحتويها:

أولاً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة الزنتان

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر سمراو	160
2	قصر أولاد خليفة	200
3	قصر أولاد أحمد	240
4	قصر أولاد بالهول	234
5	قصر أولاد بالقاسم	240
6	قصر أولاد ذويب	160
7	قصر أولاد تنزغن	460
	مجموع الغرف	1694

المصدر: محمد أحمد الطوير، مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ط1، 1988م، ص435.

ثانياً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة الرحيبات

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر فيره	140
2	قصر تريف	110
3	قصر ندق	66
4	قصر فقي سعيد	226
5	قصر عمران	192
6	قصر نفقات	130
7	قصر وادي حسين	256
8	قصر سلامات	246
9	قصر ملح	362
	مجموع الغرف	1723

عملية الحراسة بالتناوب بين الأهالي، ومهمة الحارس هي الإنذار في حالات الخطر والإعلان عن الاجتماعات الطارئة وذلك بالقرع على الطبل.

إن تلك القصور كانت تمثل القلب النابض لقري ومدن جبل نفوسة، فهي المركز الاقتصادي والاجتماعي والدفاعي بالإضافة إلى كونها مهدا للثورات والانتفاضات التي شهدتها المنطقة، ومن أهمها تلك الثورة التي قادها المجاهد غومة المحمودي ضد الأتراك العثمانيين الذين بسطوا نفوذهم على المنطقة على مدى خمسة قرون. لقد اتخذ المجاهد غومة المحمودي من قصر بن ثيران الواقع بالقرب من مدينة يفرن مقراً قاد منه معظم أنشطة المقاومة ضد العثمانيين (6).

تهديم القصور في العهد العثماني والإيطالي:

وعندما أدرك الأتراك العثمانيون أن تلك القصور تشكل حصناً وملاذاً للثوار عمدوا إلى هدمها وكان ذلك ما بين عامي 1843 - 1844م. وقد أشارت إلى ذلك بعض الوثائق والمراسلات التي تعود إلى العهد العثماني، حيث ورد في نص التقرير الذي بعثه محمد أمين باشا والي طرابلس إلى الباب العالي حول ما تم هدمه من قصور بالجبل الغربي بتاريخ 1260هـ (1844م): "إنه

في كثير من قرى الجبل الغربي من إيالة طرابلس الغرب توجد قصور قوية البنيان وهي منذ القديم مكاناً وملجأً للفساد والمفسدين والعصاة من العربان وأهالي البلاد. ففي السنة الماضية (1259هـ) حينما فتحنا الجبل المذكور شرعنا في هدم القصور المذكورة وأخذ الأسلحة الموجودة فيها ولكنه بسبب من الأسباب لم تكمل القضية المذكورة، وادى بقاء قسم من القصور المذكورة بعد ذلك إلى عصيان العربان المذكورين. لهذا وجب إنفاذ العملية المذكورة كما ينبغي وتخريب القصور الباقية من أساسها وأخذ الأسلحة الموجودة في أيدي العربان كلياً (7). وتبعاً لذلك قام الأتراك في العام 1844م بهدم باقي القصور بمناطق الزنتان والرجبان والرحيبات والحراية وفساطو والريانية والخلائفة. وتركت القصور الموجودة بقضاء

سادساً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة الريانة

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر عوايده	78
2	قصر حلالية	46
3	قصر أولاد سيد حسين	196
4	قصر أهل العين	224
5	قصر أولاد عبد العزيز	226
6	قصر فاضل	96
7	قصر عكبة	182
8	قصر أولاد ريان	142
	مجموع الغرف	1190

المصدر: محمد أحمد الطوير، نفس المرجع، ص 440.

سابعاً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة الخلانة

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر أولاد منصور	122
2	قصر أولاد حسين	76
3	قصر أولاد دياب	136
4	قصر أولاد الصغير	116
	مجموع الحجرات	450 غرفة

المصدر: محمد أحمد الطوير، نفس المرجع، ص 440.

القصور التي تعرضت لعمليات التخريب التي قام بها الأتراك عن طمس معالم معظم قصور جبل نفوسة. وشمل التهديم 54 قصراً كانت تحتوي على أكثر من 10 آلاف غرفة. ولم تصمد أمام عمليات التخريب والتهديم إلا خمسة قصور وهي قصر نالوت وقصر الحوامد وقصر أولاد محمود وقصر المجاورة وقصر كاباو، وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقاً.

وقد قمنا بزيارة قصور نالوت وكاباو والحاج. ورغم أنها تعرضت لعمليات تخريب أثناء الغزو الإيطالي للبييا فهي اليوم بحالة مرضية وذلك بفضل عمليات الإصلاح والترميم التي قام بها الأهالي بالتعاون مع مصلحة الآثار وبعض الجهات الأخرى. وفيما يلي نبذة مختصرة عن هذه القصور الثلاثة التي قمنا بزيارتها.

المصدر: محمد أحمد الطوير، نفس المرجع، ص 436.

ثالثاً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة الرجبان

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر إبراهيم	116
2	قصر تركن	180
3	قصر جابر	146
4	قصر زعفران	126
5	قصر غلن	162
6	قصر زتون	112
	مجموع الغرف	742

المصدر: محمد أحمد الطوير، نفس المرجع، ص 436.

رابعاً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة الحراية

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر جرجين	258
2	قصر بفاغيلة	256
3	قصر بغالة	364
4	قصر طنزغن	236
5	قصر تنكامين	264
6	قصر أم الصفار	246
7	قصر نمزين	258
8	قصر دق	258
9	قصر زگران	242
	مجموع الغرف	2284

المصدر: محمد أحمد الطوير، نفس المرجع، ص 438.

خامساً: ما تم هدمه من قصور بمنطقة فساطو

الرقم	اسم القصر	عدد الغرف
1	قصر أولاد سلطان	484
2	قصر أولاد سليمان	116
3	قصر أولاد سقا	90
4	قصر الشيخ موسى	141
5	قصر مزدو	396
6	قصر جماري	294
7	قصر نموزن	160
8	قصر ديك ديك	96
9	قصر وافيات	190
10	قصر كلندية	130
11	قصر جتا وين	94
	مجموع الغرف	2201 غرفة

المصدر: محمد أحمد الطوير، نفس المرجع، ص 438.

قصور صامدة

1 - قصر نالوت :



قصر نالوت من الداخل

تعرض قصر نالوت للقصف من قبل الجنود الأتراك بعد سقوط حكم الأسرة القرمانيّة عام 1835م وقد تسبب ذلك بأضرار كبيرة للقصر مما اضطر الأهالي لإخلائه، ثم أعيد ترميمه في أواسط القرن التاسع عشر، إلا أنه تعرض للتخريب أثناء الغزو الإيطالي في بداية القرن العشرين، وتداعت بعض أجزائه فيما بعد نتيجة العوامل الطبيعية. وفي ثمانينات القرن العشرين قام الأهالي بالتعاون مع مصلحة الآثار بترميم أغلب الأجزاء المتداعية، ثم قامت جمعية أصدقاء البيئة والاثار بنالوت بإكمال باقي عمليات الترميم (10).

2 - قصر كاباو :

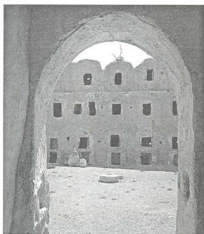
بني قصر كاباو على الحافة الشرقية لوادي الشيخ (11)، ويعود تاريخ تأسيسه إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي، وهو من الطراز الدائري الشكل تتوسطه ساحة استخدمت لعقد الاجتماعات وسوق للبيع والشراء.. ويتكون القصر من ستة طوابق اثنان منها تحت الأرض، وهو يضم 360 غرفة، ويتم الصعود للطوابق العليا بتسلق الأوتاد المثبتة بالحائط. وفي وسط الساحة توجد حجرة يبدو أنها خصصت لحارس القصر الذي يطلق عليه لقب الأمين. ويحيط بالقصر عدد كبير من المنازل وقد ذكر الشماخي أن عددها حوالي خمسمائة وأن سكانها فقهاء ومن بينهم كان يتم اختيار قاضي المديرية وذكر أنهم يملكون عددا كبيرا من الماشية وأشجار الزيتون والتين (12).

يقع هذا القصر على يمين المدخل الرئيسي لمدينة نالوت، وقد شيد على حافة جبل يرتفع عن سطح البحر بحوالي 640 متر، وهو يعد من أقدم القصور وأكبرها بجبل نفوسة، حيث يعود تاريخ تأسيسه بشكله الحالي إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (9)، بني قصر نالوت على مساحة من الأرض تقدر بـ 1700 متر مربع وهو مكوّن من أربعة طوابق في أغلب أجزائه، وسبعة طوابق في أجزائه الأخرى ويحتوي على 400 غرفة كانت عبارة عن مخازن لمحاصيل زراعية مثل الزيتون وزيت الزيتون والحبوب والفواكه المجففة وبعض المواد الغذائية الأخرى وكذلك الأواني والأسلحة، وهو يصنف من الطراز المستطيل الشكل.



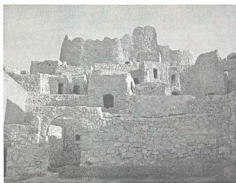
قصر نالوت من الخارج

يقع مدخل القصر في الجهة الشمالية الشرقية ويبلغ ارتفاعه حوالي 2.10 متر وعرضه 1.10 متر ويتميز بعدم وجود ساحة تتوسطه، إذ استغلّت في بناء مجموعة من الحجرات، ويتراوح ارتفاع الغرف مابين متر ومتر ونصف، وعرضها يختلف من غرفة إلى أخرى ولا يتجاوز عرض أكبرها مترين، ويتميز بعدم وجود سلم متكامل للصعود إلى الحجرات العليا، ويستخدم عوضا عن ذلك أوتاد خشبية مثبتة في الجدران يتسلقها من أراد الصعود.



مدخل قصر الحاج

1188متر مربع له مدخل وحيد من الجهة الشمالية الشرقية، وهو مكون من ثلاثة طوابق مقسمة إلى 114 غرفة معدة خصيصاً لتخزين المحاصيل الزراعية والمواد الأخرى، حيث تم تزويدها بفتحات لتجديد الهواء، وللكل حجرة باب مصنوع من جذوع أشجار الزيتون. كما يوجد بالقصر طابق تحت الأرض مقسم إلى ثلاثين حجرة. ويتميز القصر بوجود سلم ثابت يستخدم للصعود إلى الطابق الثالث وهو موصل بممر دائري لتسهيل الوصول لكل الحجرات.



قصر كاباو من الخارج



قصر كاباو من الداخل

3 - قصر الحاج:

يقع قصر الحاج على الطريق الرابط بين طرابلس ونالوت ويبعد عنها بمسافة 150 كيلومتر، وهو يترفع على هضبة قليلة الارتفاع عند قدم الجبل وتشرف مباشرة على سهل الجفارة. قام ببنائه الشيخ عبد الله بن محمد بن هلال غانم المعروف بأبي جطلة في منتصف القرن الثاني عشر، واستخدم في بنائه المواد المحلية المتمثلة في الحجارة والجبس وجذوع النخيل والزيتون. وسمي بقصر الحاج لأنه كان مقصداً لعباري السبيل واستراحة للحجاج.

وهو مبنى دائري الشكل تبلغ مساحته الإجمالية



قصر الحاج من الداخل

خاتمة :

والمقاصد السياحية لما تحمله من عجائب البناء وفنون
المعمار خصوصاً بعد أن سجل ماتبقى من تلك المعالم
إعجاب السياح بشكل منقطع النظير، لذا وجب
العمل على إحياء ماتبقى منها في إطار التنمية
المكانية المستدامة.

إن هذه القصور المنيقة تشكل تراثاً معمارياً وفنياً
يجسد نمط الحياة لسكان جبل نفوسة خلال فترة
تاريخية امتدت عبر مئات السنين، وهي اليوم تحتاج
منا إلى وقفة جادة لأجل أن تكون ضمن الواجبات

المصادر والمراجع

- إبراهيم سليمان أشامخي، قصور ومسالك جبل نفوسة، نشر وتعريب محمد حمام منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004م.
- محمد أمحمد الطوير، مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب 1835-1858م، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ط1، 1988م.
- سعيد علي حامد، من تاريخ نالوت، الميراث مدونة تعنى بمستقبل العمارة والحرف الفنية في ليبيا، www.mirathlibya.blospot.com
- طارق السنوسي، قصور جبل نفوسة، www.libyan.tourism.org
- هنريكو دي اغسطيني، سكان ليبيا، الجزء الأول، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، 1974.

ARCHIVE
الهوامش والإحالات
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- (1) هنريكو دي اغسطيني، سكان ليبيا، الجزء الأول، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، 1974، ص27.
- (2) عدد قصور جبل نفوسة هو 63 قصراً كما ورد في كتاب قصور ومسالك جبال نفوسة، لمؤلفه إبراهيم سليمان أشامخي، نشر وتعريب محمد حمام، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004م.
- (3) سعيد علي حامد، من تاريخ نالوت، الميراث مدونة تعنى بمستقبل العمارة والحرف الفنية في ليبيا، www.mirathlibya.blogspot.com
- (4) طارق السنوسي، قصور جبل نفوسة، www.libyan.tourism.org
- (5) إبراهيم سليمان الشماخي، مرجع سبق ذكره، ص169، 168، 171.
- (6) محمد امحمد الطوير، مقاومة الشيخ غومة المحمودي للحكم العثماني في إيالة طرابلس الغرب 1835-1858م، منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ط1، 1988م.
- (7) نفس المرجع السابق، ص431.
- (8) نفس المرجع السابق، ص441.
- (9) سعيد علي حامد، مرجع سبق ذكره.
- (10) نفس المرجع السابق.
- (11) إبراهيم سليمان الشماخي، مرجع سبق ذكره، ص169.
- (12) نفس المرجع السابق، ص169.

الحلقة المفقودة في تاريخ العمران بجبل دمر من خلال قصور معتمدية بني خدّاش

الهاشمي الحسين (*)

1- مدخل :

وعلى ضوء ذلك فإنّ نسبة القصور إلى الصّحراء تبدو مجازيّة، أمّا نزوله القسريّ إلى السّهول فقد قدّد فيه ما به يكون قصرا متيفا مشرفا على فضائه الشّاسع من حوله، بل قد صار أقرب ما يكون إلى الرّتبة، أو ما يصطلح عليه محليّا بـ «رحبة النّعمة».

ولم تكن لتقف على مثل هذه الملاحظات لولا عملنا الميدانيّ ضمن الأنشطة العلميّة لجمعية صيانة القصور والمحافظات على التّراث ببني خدّاش طيلة عشرة كاملة اتّهينا فيها إلى مسح أكثر من سبعين موقعا (70) أثريا تجاوزت فيها القصور الخمسين (50) قصرا بين مندمج في العمارة العامّة، ومنفصل عنها، وتجاوزت فيها القلاع خمس عشر (15) قلعة. لقد عاينا بذلك وجهها آخر لم توفّه كلّ الدراسات المنشورة عن القصور بالجنوب الشرقيّ بعد حقّه من التعريف والوصف والتحليل.

وإذا كنّا لا ننكر قيمة ما كتبه الأب أندري لويس (1) وعبد الصّمد زايد (2) وغيرهما من الباحثين، طيلة أربعة عقود من البحث، عن بعض القصور في منطقة بني

درج الباحثون في تاريخ القصر بالجنوب التونسيّ على اعتبار القصور ظاهرة عمرانيّة متّصلة بإطارها الجغرافيّ شبه الجافّ في مجمل خصائصها ووظائفها، ومربّطة قسريّا بمراحلها الحضاريّة المتقلّبة بسبب غلبة ظاهرة القحط على بلاد ورغمة، مركّزين في ذلك على ما صار يصطلح عليه بالقصور الصّحراوية والقصور السّهليّة.

وإذا ما جاز هذا التّقسيم الجغرافيّ للقصور حسب مواقعها التضاريسيّة، فإنّه ليس من المنطقيّ أن نهمل الحديث عن القصور الجبليّة المشيّدة على القمم الشّاهقة بمنطقة جبل مطماطة، وجبل دمر، وجبل نفوسة، ولا أن ننسى ما بينها من اتّصال حضاريّ متين، بل قد يكون من المدهش أن يكتشف الباحث الميدانيّ، أنّ القصر جبليّ النّشأة والإشعاع، وأنّ القصر إذا ما فارق صخور الجبل فقد كلّ سماته الخصوصيّة التي تجعله منه قصرا، حتّى لكانّ القصر والتّسر أخوان في المنعة والصّعوبة والتحرّز.

(*) باحث، تونس

2 - تقديم معتمدية بني خدش :

تقع معتمدية بني خدش إداريًا ضمن ولاية مدين وتبعد عنها 32 كم غربًا تحدها من الشمال معتمدية مطماطة ومن ولاية قايس ومن الجنوب معتمدية غمراسن من ولاية تطاوين ومن الغرب معتمدية دوز من ولاية قبلي ومن الشرق معتمدية مدين. وهي من المعتمديات القلائل التي تضم في فضاءها أشكال التضاريس الثلاثة الجنوب الشرقي من صحراء الظاهر إلى سهل الجفارة مرورًا بسلسلة جبل دمر حيث تنتصب أعلى قمة بالجنوب الشرقي «قمة كاف مززن» بعلو 738 م وتجاورها قمة تيجت بارتفاع 642 م وقمة الشقيماء الطويلة بشموخ 682 م.



صورة رقم 01:قمة تيجت بوادي مقر على ارتفاع 642م وقد انتصبت فوقها قلعة قبيلة تيجت منذ عهود قديمة

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

وجبل دمر كما ذكره كل من ابن خلدون في كتاب العبر، ومحمد حسن بقوله «القصور الجبلية: تموضعت أغلب هذه القصور على سفح جبل دمر الممتد من بني خدش إلى حد جبل نفوسة» (3).

وإنما ينشأ جبل دمر من وادي النقي آخر شمال معتمدية بني خدش ويمتد حتى جبل نفوسة مرورًا بالشريط الجبلي الخلفي لولاية تطاوين. وتقطع الجزء الممتد منه داخل معتمدية بني خدش على طول يقارب 40 كم وفي عرض يقارب 30 كم، ثمانية (08) أودية فحلة يصب اثنان منها غربًا في قرعات بوفلجة، وهما وادي الخلف الظاهري ووادي بن خشب، ويصب ست منها في البحر المتوسط وهي من شمال المعتمدية

خدش-موضع الدراسة- فإننا نرى أنّ هذه الدراسات قد اقتصرت على تلك القصور المشرفة على الطرقات الحديثة، والتي يتيسر وصولها بالسيارات، وغالبيتها من القصور العائدة إلى فترة ما بعد القرن السادس عشر -آخر فترات تطوّر القصر بالمنطقة وأضعفها عمارة-، وهي قصور لا تساوي في القيمة والعمق التاريخي، ولا تعادل في الازدهار العمراني قصورا أخرى عويصة المسالك تختفي في أودية البرزلية ومقر والنقي وأريان ووادي بن خشب ووادي مانيظ. وتحمي بكن تلك الشّعاب أو هي متوجة لقمم جبالها الشاهقة من مززن إلى تيجت إلى السّومنية والشقيماء والكاف المعزول.

فبين هذه الشّعاب وعلى سفوح تلك القمم تختفي كنوز حضارة مدنية وسيطة لجبل دمر، وهي لا تزال غائبة عن أذهان الباحثين في تاريخ القصر بالجنوب الشرقي بشكل كبير.

ومن أجل أن تعرف عمارة هذه المرحلة واستقرار أهلها بها قرونا من الزمن، اهتماما لدى الباحثين في التاريخ المحلي والوطني، ولدى المهتمين بالآثار والحضارة عامة، فقد أوليناها في هذا البحث أهمية وسعينا إلى نشره ضمن هذا العدد المخصص من الحياة الثقافية أملين أن نحقق به ثلاثة أهداف رئيسية:

1 - التعريف بمخزون أثري بكر يستحق الدراسة الأكاديمية العميقة لكشف أسراه أكثر.

2 - التنبيه إلى ما يتعرض له هذا المخزون الأثري من تدمير سريع قد لا يحتفظ بأحر شواهد له ربع قرن آخر

3 - المساعدة في إعادة التأريخ للقصور بالجنوب الشرقي، انطلاقا من معطيات ميدانية دقيقة تلتفت إلى المخفي من حضارة القصر في أصعب المناطق الجبلية وأعوصها.

ولعلنا بذلك نعيد القصر إلى مهده بدراسته ضمن مراحل الاستقرار بجبل دمر، وقد تشكلت واكتملت من معايشة الإنسان للأوعار قبل مغامرته في اختراق السهول وخوض غمار البحار.

والتجارة، فالبلد بذلك مركّب عمرانيّ نام عبر الأجيال والعصور، بل هو شهادة التطوّر الحضاريّ الطبيعيّ في رقيّ طرائق التّعمير ودرجاته عبر مراحل التطوّر التّمدينيّ لقرون من الاستقرار الطويل في الجبل.

وقد لاحظنا أنّ كلّ هذه البلدات-القرى الجبلية- قد اشتملت على قصر يترتّب فوق القمّة مطلاً على حواف المنازل الحفرية تحته، وهي عبارة عن صفوف من المغاور لا تبعد عن القمّة كثيراً وإن تنحدر عنها لتنتشر في جنبات الجبل.

ولم يشذّ عن هذه القاعدة غير بلد مقرّ (عدد 16) ضمن القائمة) لأنّه البلد الوحيد المشيّد على جنبات الوادي ولم يشيّد عند مستوى مرتفع من الجبل. ومع ذلك فقد أبى أهل وادي مقرّ إلا أن ينصبوا في القمم المطلّة على الوادي قصرين مهتمّين هما قصر المقرّين شمال الوادي وقصر بولصوار جنوبه. وزادوا قصرين سفليين هما قصر الوادي وقصر الواحة.



صورة رقم 02: واجهة داخلية لثلاث غرف بقصر بولصوار في وادي مقرّ وقد بدت سليمة

إنّ مثل هذا التلازم بين البلد والقصر ليثبت تّينجيتن مهتمّين في تطوّر العمارة بجبل مقرّ أولاهما أنّ القرية سابقة للقصر في التّعمير والاستغلال المتعدّد الوظائف، وثانيتهما أنّ القصر جزء من معمار أوسع هو هذه القرية الجبلية ومهمّته تنحصر بالأساس في إكمال دورة العمارة

إلى جنوبها، وادي التّقي وادي مقرّ ووادي الحلوّف الجفاري ووادي الغابة ووادي ورجيجن ووادي الخيل. وترتبط بهذه الأودية أودية وشعاب فرعية كواي عين العنة ووادي البرزليّة ووادي مانيط. . .

وعلى ضفاف هذه الأودية، وبين مصابّ شعابها وقمم جبالها، تشكّلت عمارة جبل مقرّ قروناً طويلة، مستغلة ما جادت به عيون الماء الجبلية، وما وقّرت من مساق محدودة. وتطوّرت هذه الحضارة في تكيفها مع فضائها الضّعب، وفي حسن تصرّفها في مواردها التّشويّة الشّحيحة حتّى شكّلت بذلك مخزوناً أثرياً زاخراً سنعرض إليه بشكل إحصائيّ في العنوان الموالي.

3 - المخزون الأثريّ لجبل مقرّ بمنطقة بني خدّاش :

أمدّتنا الدّراسة الميدانيّة للمجال الأثريّ بجبل مقرّ من منطقة بني خدّاش بالكثير من المعطيات العمرانيّة المتشابهة حيناً والمختلفة حيناً آخر، وليس المجال مجال تفصيل القول فيها إذ يكفي الجرد الإحصائيّ الوقيّ شاخداً على ثراء هذا المخزون وتنوّعه. لذلك سنورد هذه الجولة-انظروا ضمن الملحق رقم 01- بذيّل الدّراسة- وقد جعلناها مرتبة حسب الأودية اعتقاداً منّا أنّ حضارة الجبل، مهما طلبت القمم الشّامخة منعة بقصورها، تظّل حضارة أودية في منشئها واستمرارها وإشعاعها، ثمّ إنّ أفولها وليد جذب الأودية كما سنبين ذلك في العنوان الثّامن. وقد ربّنا هذه الأودية من شمال الجبل إلى جنوبه حتّى نيسّر للباحثين تمثّل التّوزيع الجغرافيّ للمواقع الأثريّة.

4 - القصر تاج العمارة الوسيطة في جبل مقرّ :

أحصينا في الجدول المّثب ضمن الملحق رقم 01 ما عدده 29 بلداً، والتّبلّد مصطلح محليّ يطلق على القرية الجبلية العامرة والجامعة بين السّكن المنقور في الصّخر والبناء المخصّص لأغراض التّخزين والدّفاع والتّصنيع

فالأولى ذات شكل هندسيّ مثير وقد رسمت بالقصر الكبير لبني برزل وهذا نصّها:

بسم الله الرحمان الرحيم

رفع هذا القوس زيد رحم هه

يوم التلات عام 9 قرن 9 [= 809 هجري]

أما النقشة الثّانية فهي نقشة نصيّة بلسان القلم وقد عثرنا عليها بجدار غرفة داخل مغارة ببلد طيباء في وادي التّقيّ وهذا نصّها

<p>الحمد لله ربّ العالمين هذا . . . في عام أربعة وتسعة مئة</p>	<p>بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على محمّد</p>
--	--



صورة رقم 04: نقشة تاريخيّة لغرفة ببلد طيباء
بوادي التّقيّ تعود إلى سنة 904هـ/ 1499م

جلّي إذن أنّ القصر قد مثّل خلال مرحلة العصور الوسطى تاجا به دُعمت العمارة التّوطينيّة استقراها بجبل دتر ومنه ستستمدّ نفوذها على المجال الحيويّ لها، بل ومنه سينطلق إشعاع البلد على بقية المناطق القريبة في الصحراء غربا وفي السّهل شرقا، حتّى يدرك البحر في توفير المدد العسكريّ والحاجيات الأساسيّة لجزيرة جربة. فليس غريبا عندها أن يصبح القصر مركز الإشعاع الحضاريّ بهيمته على طرق التّجارة الصحراويّة من جهة، وباستفادته من مرفأ التّجارة

من الحفر الخالص إلى الحفر الممزوج بالبناء انتهاءً بالبناء الخالص ذي الطّوابق والأرصّة والأسوار والمحارس .

وإنّ ما يبرّز هذا التنوّيج أكثر هو الكلفة الماديّة الباهضة في نقل المياه ومواد البناء من أعماق الوادي إلى قمم الجبال، وتلك الجهود المضنيّة في تطويع القمم الصّخريّة الحزينة لاستكمال هندسة البناء. فكأنّما أراد الإنسان أن يقهر متعة الجبل مرّتين، ينقر البيوت في صخوره الصّلبة، ويشيد القصور على قممه الشّاهقة. وتلك معجزة بناء لا تقلّ فخرا لدى أهلها عن فخر الفراعنة بأهراماتهم. لذلك زوّقوا جدرانها وزيّنوها بالرّسومات الفخريّة والآيات المستبشرة ورسموا عليها تواريخ التّشييد إيمانا منهم بتحدّي قسوة الزّمان بعد قهر صعوبة المكان.

ولقد تابعا في هذه القصور المندمجة ضمن بلدانها جملة من النقوشات التاريخيّة تعود إلى القرون الثّامنة والتاسعة والعاشر من التاريخ الهجري أي القرون الممتدّة من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر ميلادي ومن أهمّها: بلد بني برزل 777 هجري [1375م]، القصر الكبير لبني برزل 809 هجري [1406م]، وقصبة تاتيط 819 هجري [1416م]، وبلد الزّواي 826 هجري [1418م]، وبلد طيباء 904 هجري [1499م] .

وقد اخترنا في بيان ذلك نقishtين مشبّتين بطريقتين مختلفتين:



صورة رقم 03: نقشة تاريخيّة لغرفة بالقصر الكبير
لبني برزل تعود إلى سنة 809هـ/ 1406م

البحرّة عبر التّواصل مع جزيرة جربة بشكل خصوصي ومباشر. وذاك ما سنحاول بيانه في العنوان الموالي .

5 - القصر إشعاع الحضارة الوسيطة في جبل دمر

يبدو أنّ هذا الإشعاع الواصل بين طرق الصحراء ومرفأ البحر في نشاط تجاريّ حيث سيلعب فيه جبل دمر وجزيرة جربة الأدوار المهمّة إذ كان هذا التّواصل قد بدأ أقدم منذ بداية العصر الوسيط، فالذّكتور محمّد حسن يذكر في دراسته بعنوان «القبائل والأزفان المغربيّة في العصر الوسيط»، وفي معرض حديثه عن أبي ميسور يسجا بن يوجين البهراسني أنّ هذا الثّوري الوهبيّ قد لعب دورا مهمّا في ربط التّجارة الصحراويّة بالتّجارة البحريّة فيقول «وهو من بني يهراسن إحدى قبائل الجنوب الإفريقيّ المستقرّة بجبل دمر... فقد كلفه مشائخ نفوسة في إحدى سنين المجاعة باشتراء الطّعام من الجزيرة لرخصها، وبقيادة إحدى القوافل التجاريّة إليها» (4).

وبعد ذلك بخمسة قرون، ورغم التّغيّرات الجيو-سياسيّة بقدوم بني هلال من الشّرق وإنّانة من الغرب، فإنّ الإشعاع التجاريّ لقصور جبل دمر قد استمرّ، وبرزت من ذلك ظاهرة القصور التجاريّة الواقعة بين الطّريقين الصحراويّ القديم غربا والطّريق الغدامسيّة المنطلقة من قابس والمحاذية لجادة الجبل شرقا. ولأنّ الاستقرار كان بأعماق الجبال فقد تفرّعت عن هذين الطّريقين طرق داخليةّ توصل بقصرين تجاريّين مهتمّين طيلة القرن التاسع هما قصر بني برزل الكبير وقصر قصبه مانيط.



الصّورة رقم 05: منظر عام للشّاحة الأماميّة ينتصب قصر بني برزل بعدها ويبرز السور المحيط بالامتداد الصخريّ

لقد شدّد القصر الكبير لبني برزل على امتداد صخريّ مستطيل عند قمّة جبل منبسطة وامتدّ سوره على طول 500م بعلو يندرک المترين ويترأوح عرض هذا السور بين 40م و20م. وكلّ هذه المساحة قد سوّرت بجدار سميك تتقدّمه ثلاثة أسوار من جهة الشّرق. وقد زاد بنو برزل فتصّبوا في القمّة المتقدّمة على القصر قلعة منيعة وحفروا الطّريق المسيّج تحتها ليصل القصر من الجهة القبليّة حيث تتدرّج الطّريق الحلزونيّة حتّى تحطّ الأحمال بساحتين إحداهما أمام القصر والثّانية خلفه وقد انتصب القصر بغرفته ذات الطّاقين بينها وهي غرف عديدة تكتظّ بها ساحتها المستطيلة فقد بلغت الثّمانين (80) غرفة. وقد بدت غرفا ضيّقة فغاليّتها لا تتجاوز 6 أمتار عمقا و03 أمتار عرضا. وقد عرفت السّاحة الداخليّة للقصر المقاسات الثّالية فطولها من الغرب إلى الشّرق 36م وعرضها من الجنوب إلى الشّمال 13م.

أما المدخل الرّئيسيّ للقصر فقد شدّد من جهة الشّرق ومقاساته 2.30م أساعا من خارج ثمّ ضيّق فصار 1.30م من الدّاخل وعلوّه 3م وعمقه 2.5م وقد عمّنا بالمرقّة قبل الأخيرة من الصّف الحلفيّ بالجهة الجنوبيّة على كتابة من اليسار إلى اليمين هذا نصّها وقد بدت غير معجمة.

كتبها على بن سلامه رحمه الله

بناها نوح بن رحومه رحمه الله

في يوم لثنين من شهر الله شوّال

إنّ معمار هذا القصر وموقعه بين جملة من البلدات وعددها 05 والقلاع والمراقب وعددها 03 وإشرافه على واحة الحلوّف ووادي البرزليّة وشعبة زّمور، كلّها شواهد تثبت قيمته التجاريّة وتقييمه جوهرة التّعمر ومصدر إشعاع الجبل في عهد تعمير بني برزل له خلال القرنين الثّامن والتّاسع هجريّ/الرّابع عشر والخامس عشر ميلاديّة .

وفي نفس تلك الفترة كانت تنمو شرق شعبة بني

القابلة للغراسة وخاصة غراسة الزيتون، وثانيها توفر عيون ماء جبلية بغالبية الشّعاب المخترقة للسهل، وثالثها تراكم خبرة بشرية لعشرات الأجيال المستوطنة بالمنطقة في عمارة الأرض وحسن استغلالها. وليس ذلك بغريب



صورة رقم 07: منظر عام لجامع علوة الحفري
تعلوه صومعته - 560هـ / 1165 ميلادي

فسهل دمر يحتوي أقدم جامع - جامعة بالجهة وهو جامع علوة، وتشير نقشة بصومعته إلى سنة 560 هجري، وقد عُدّ موثقاً ويستدل من مراكز العرابة في جبل دمر.

وبعيداً عن ذلك، يهتدون ونصف شيد المانطيون جامعهم الأرضي جنوب القصبة وتشير نقشته إلى سنة 811 هجري. ثم كان تشييدهم لهذه القصبة سنة 819 هجري.

إنّ هذه القصبة، المشيّدة بعد الجامعين الحفريين بسنين، هي عبارة عن تطوّر عمراني متوازن. فقد امتد الاستقرار السكّني في المغاور حول ربوة القصبة مساحة 1 كم طولا و 0.5 كم عرضاً. وانتشرت المنازل صاعدة مع الجبل مئات الأمتار دون أن تشكّل حافاً متلاصفاً بل استغلّت تفرّعات السواقي الصغيرة ونقرت بينها بيوتا متناثرة. ثم كان اختيار الربوة لحفر حاف من المنازل في جنباتها الشماليّة والغربيّة والجنوبيّة وقد طليت جدرانها وقوّست أفواهاها واعتنى أهل القصبة بمقصورات التّوم داخلها وبالحفّابة لتخزين المون كما حسّنت مداخلها. ثمّ سبّجت بإحكام بناء الصّير.

برزل وعلى بعد 4 كم في ربوة مشرفة على سهل دمر الحصب إمارة المانطين، وقد حوّلت الرّيع التجاريّ والتّنوّع الصّناعي درة تعمير يمكن اعتبارها تاج العمارة بجبل دمر خلال العصر الوسيط كما سيّين ذلك في العنوان الموالي.

6 - من القصر إلى القصبة: الإمارة المانطيّة تاج العمارة بجبل دمر

تتصبّ ربوة القصبة في الجزء الشمالي من سهل دمر وهو عبارة عن امتداد سهليّ تحت كاف مزنون شرقاً وجنوباً تقيمه شعبة مزنون شرقاً ووادي رخالة جنوباً ويمتدّ هذا السهل من الشمال إلى الجنوب 8 كم حتّى يدرك قصر الجوامع ليمتد من الشّرق إلى الغرب مسافة 6 كم حتّى يصل ربوة بني خدّاش. ولكنّ عرضه يضيق



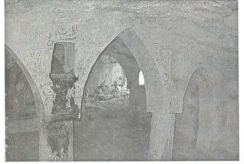
الصورة رقم (08): منظر أمامي لصورة القصبة
ويظهر فيه مدخلها وافصال استزادة بانها بعد إتمام القصر

في الجهة الشماليّة من قمة مزنون حيث شيدت قصبة مانيط ليقصر على 3 كم.

يتميّز هذا السهل بخصوصيته ويعدّ من أقدم المناطق في استقرار الأمازيغ بجبل دمر وهو الجزء الوحيد الذي مازال يحافظ على تسمية دمر. وسرّ خصوصيته توفر ثلاثة عوامل مساعدة على ذلك أولها اتّساع نسبيّ للمساحات

قوسا داخليًا مفضيا إلى ساحة القصر. لقد شيدت القبة بحجارة منجورة أكثر ضخامة من حجارة بناء القصر وبدت العناية بمتانة أسسها واضحة إذ يعلو البناء 6 أمتار ويقوس المدخل ثم ترتفع من الدّاخل مدارج صغيرة لتتصبّ الزيت الحامي من كوة نازلة على كلّ عددٍ يحاصر القبة أو يسعى إلى دخولها عنوة.

جلّي إذن أن نظام الهندسة المعماريّة لهذا المعلم مستوحاة من بناء الرّباطات والقصاب بالسّاحل التّونسي وأنّ ارتباطات أهل جبل دمر بالسّاحل قد كانت وثيقة



صورة رقم 08: منظر داخلي للجامع الأرضي جنوب قصبة مانيط-111هجري/1408م

وربطت هذه الجهات الثلاث بداموس داخليّ يمتد عشرات الأمتار فيخترق الرّبوة. وعند الجهة الجنوبيّة، وفي أطراف الحفر شرقا



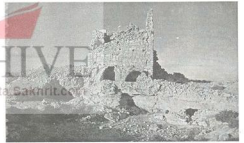
الصورة عدد 10: نصّ النقشة المؤرّخة لتشييد القبة

حتى في المراجعة كما ستبين ذلك وصيّة المانيطيين عند مجرهم لأوكارهم. وكانت لذلك القبة، عمارة فريدة تطلّح على الجهة بالجزء الشرقيّ من قوس المدخل على بين الدّاخل تاريخ التشييد التالي

بني هذا المعلم في يوم الخميس السادس عشر من شهر ذي القعدة عام 819.

وتحت راية هذه القصة استمرّ استقرار أهل دمر زمنا حتى كان الجفاف المرحّل لهم عن عمارتهم والمنهي لأخصب مرحلة وأزهرها في تاريخ الجبل.

ويضع الدكتور فتحي ليسير في أطروحته الجامعيّة نغم ورغمة سنة مفصليّة هي 1548 السّنة التي افتتح فيها الأتراك الطّريق التجاريّ السّهليّ عبر الجفارة وصار الطّريق نحو طرابلس معوّضا لطريق غدامس (5) فانزاح الجبل عن الحركة التجاريّة النشيطة بين تونس والصّحراء خاصّة وبين المغرب والمشرق عامّة. وذلك ما عجل بكساد



صورة رقم 09: حاف المنازل السّماويّة وقد انتصب فوقها القصر تقدّمه القبة

شيدت معصرة زيتون. وبعد هذه المرحلة من التّعمر الحفريّ تمّ تخطيط الرّبوة قصرا بطابقين يميل شكله إلى الاستطالة في مساحة 40 طولاً و20 عرضاً وجعل مدخله غربيّاً فاحتوى بذلك 60 غرفة للتّخزين تتوسّطها ساحة شبه مسوّاة.

وبعد الانتهاء من تشييد القصر اختيرت المساحة المربّعة أمام المدخل لتخطيط القبة وتشييدها، وصار المدخل

7 - القصر توطين مؤقت في العصر الحديث:

أحصينا من هذه القصور-المخازن ضمن الملحق رقم 01 ما عدده أربعة وعشرون (24) قصرا وهي نسبة مهمة تؤرخ لثلاثة قرون من التعمير تولتها كنفدرالية ناشئة من وادي الغابة، الوادي الأسطوري، هي كنفدرالية الخوايا وقد حاولت تجميع الفلول الباقية من المجموعات السابقة وبعض الفلول الوافدة في إطار التمازج الثقافي الذي حققه المد السني والطرق الصوفية، لتعيد بناء التوازنات الداخلية للتسيج المجتمعي على قاعدة التبادل المصلحي بين قلة مستقرة تتولى الخدمات العامة والفلاح زراعة وغراسة وأكثرية راحلة تؤمن حماية المجال الفارغ من الجيران الأعداء، وترعى القطيع المتنامي.

وأمام تسارع النمو الطبيعي لحاجيات المجتمع البدوي المتطور داخلياً بطبعه، وتأثراً بالآثار الحضاري المترسب عن محارب السابقين في معاشره الجبل، تبنت كنفدرالية الخوايا استراتيجية جديدة في تشييد القصور قوامها التول من القمم إلى الهضاب، والفصل بين الساكن



صورة عدد 11: قصر الحلوفا قصرا كونفدرالي يطلّ من الزبوة الطينية على الواحد وفي خلفية الصورة قمم بني برزل وقصورهم الشامخة

والقصور، ومقاومة استقلالية المجموعات بقصورها الخاصة، حتى يكون القصر العروة الوثقى الجامعة لمصالح الفصائل والأعراق في نظام كنفدرالي متين. وذاك ما جعل القصور الأولى كنفدرالية كقصر بني خداش وقصر الحلوفا ولم تحمل تسميات قبلية. وقد

الأسواق الداخلية للقرى والقصور وزادها الجفاف المتواصل وشح مصادر المياه الطبيعية والنمو الكثيف للتسل بعد عقود من الاستقرار صعبة. مما جعل الجبل يضيق بأمله وتقلص موارده. فكان القرن السادس عشر القرن الفصلي في إفراغ الجبل من أفضل طاقاته التنموية بعد جلاء أكثر المجموعات المستقرة وأقدرها على الاستفادة من الحضارة الناشئة بالسهول والسواحل. ومن هذه المجموعات بني سموون وبني برّاد وبني غربال، وبني برزل والمانيطين والمقرين وبني قويس والقالين، وهي في الجملة عائلات كبيرة استوطنت الجبل قروناً ثم هجرته وتركزت جميعها قصوراً أو بلدات لازالت تحمل اسمها.

والحق أنّ التحليل عن جبل دمر إلى السواحل لم يكن وليد التحولات الجيو-سياسية خلال الفترة العثمانية المؤننة للسواحل، إذ قد سبقها بقرون حراك ديمغرافي وكان يتم من جبل دمر إلى جبل نفوسة وإلى جربة، والجبل في أوج ازدهاره، فبنو سموون قد تركوا قلعهم منذ القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي وتحولوا إلى جربة ليتولوا مشيختها طيلة القرون الثلاثة الأخيرة من العهد الفصلي، وأبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرادي شيخ الاياضية في القرن الثامن الهجري ينتقل إليها بعائلته ويستقر بها نهائياً كما يقول سعيد الباروني «سكن البرادي دمر واستقر بها يعلم الناس ويحكم بينهم... لما توفي الشيخ أبو البقاء يعيش الزواغي رئيس مجلس العزابة سنة 750 هجري عام المجاعة والطاعون تحول أبو الفضل البرادي من دمر إلى جزيرة جربة واستقر بمسجد وادي الزبيب جامع ولحي حالياً» (6).

ولم يبق على اتصال نهاية يجاسة القرن السابع عشر في حراك الجبل غير مجموعات بدوية مترحلة هي أكثر ارتباطاً بالنشاط الزعوي وتستطيع لبديها أن تنتقل حيث الحصب وتعود إلى هذا الموطن في فترات متباعدة ولوقت محدود، لتستأنف الرحلة نحو المراعي البعيدة. وتلك الفترة هي الفترة المؤرخة للقصور الحديثة.

الثاني لا. علي بن منصور يوسف الزموري عام 1297
لثالث لا. اسليمة

وقد يُستغرب أن يكون اسم يوسف الزموري موجودا
بقصر سيادة واستقلال لقبيلة الجوامع على غرقتين
بتاريخ 1278 و 1297 لكن الجواب عن هذا السر سيكشف
في نفس الوقت تاريخ قصر أولاد مهدي، فقد عثرنا
في غرف علوية من هذا القصر على الكتابة التالية.

بسم الله الرحمن الرحيم
سعد بن صنعون (ووضع آثار رجله)
يوسف الزموري (ووضع آثار يده)
أولاد موسى بن محمد



صورة عدد 1: منظر داخلي لجزء من قصر الخراشفة

بلقاسم والرايس محمد بن غانم رحيم... زغاية...

جلتي إذن أن يوسف الزموري بناء ماهر في تشييد
القصور وتخطيطها وكان ينتقل في هذه الفترة بينها
موزعا خبرته بين مختلف المجموعات الزاغية في
الاستقلال بقصورها، مساهما مساهمة كبيرة في تحقيق
إعادة الإعمار لمنطقة أفرغت قرنا ونصف القرن قبلها من
خبرة العمارة الإنشائية.

ولعل الاحتراس من رد فعل أهالي قصر بني خدش
لدى مجموعة الخراشفة جنوب الجبل هو ما قد حوّل
وجهتهم نحو الاستفادة من خبرة بنائي غمراسن، فقد
عثرنا بمحصرة حفريّة تحت القصر على ما يبيّن ذلك في
التصّ التالي:

ذكر لنا شيوخ الخراشفة أن قصرهم قد بدئ بناؤه أثناء
بناء قصر بني خدش، فكان ما بينى منه بالتهار يهدم
بالليل من قبل القائمين على قصر بني خدش، حتّى لا
يبقى غير القصر الواحد الموحد.

غير أن هذه التّركة الاستقلالية المتخفية سرعان ما
غلبت على تلك المجموعات المتحالفة بعد قرن من
الزّمن، فإذا كان قصر الحلوّف مثلا قد أنشئ بتحالف
بين مختلف المجموعات العابرة للوادي نحو الظاهر
والجفارة، فإن قصر أولاد مهدي وقصر الجوامع سيبنيان
أساسا من قبل مجموعة عرفيّة يعينها، ويسبقهما
إلى ذلك قصر الخراشفة، وستخلّي المحاضّة وأولاد
بوعبيد عندها عن قصر بني خدش، ويقمون بقصورهم
الخاصّة، بل إن زّمور التي تعدّ أقرب الشّعاب إلى بني
خدش ستستقلّ بقصرها. لقد كان القرن 13 هجري
/ 19 ميلادي قرن استقلال العروش بقصورها. وقد
وقفنا على نقاش بأسقف الغرف وجدرانها بقصري
أولاد مهدي والجوامع، وهي توزّع الملكية وتحمل بعض
تواريخ التشييد ومنها

هذا ملك حسن بن علي بن بوبكر بن محمد

- هذا ملك امحمد بن عمر بن بلقاسم الحايك

- يوسف الزموري سنة 1278

ب- سم الله

صالح بن حمد بارودي سنة 1287



صورة عدد 2: منظر داخلي لقصر أولاد مهدي

8 - تراجيديا القصور الجبلية في منطقة بني خدّاش :

تشكّلت تراجيديا القصور في منطقة بني خدّاش من جبل دمر من خمسة قصور كبرى تحفظ الذاكرة الشعبية فصلها الأقدمين وتخطّ الوثائق الفرنسية فصلها الأوسط أما فصلها الأخير فقد عاصرهما جبل الخمسينيات من القرن الماضي في مشيهم ومشيهيم .

1-8 - الفصل الأوّل :

عندما غادر المانطيون جبل دمر نهائيا في نهاية القرن السادس عشر كان توطينهم بالجبل قد استمرّ لقرون ونصف، ولم تكن عمارتهم الشاهقة ولا تجارة أموالهم المربحة قد منعهم من جوائح المنطقة، جفافا وجرادا وجوعا. لقد ترك المانطيون وصية تسجل النهاية التراجيدية أولى للتوطين والتعمير بجبل دمر المدمر . ولم تستطع الذاكرة الشعبية الاحتفاظ بكل غصونها الشعرية لذلك سنورد آخر ما تحفظه ذاكرة الشيخ المبروك الجليدي من منطقة المظهار بني خدّاش . يقول الراوي :

عالم التي جبلنا
خمسة مياث طالب في الجامع لرضي صلينا
وخمسة مياث جحفه إمحجبات
حذرهم واذ أمانيط

ويا سائين لرض بعدنا
إنخبركم كانه استقام سعدنا
حزننا في مساكين الغريزا * * * وجننا نينا قبل شعيرنا

ويا سائين لرض بعدنا * * * الغريبي والجراذ فرزنا
المخزن خالي * * * وعلوق المخالي
والحرث مياي * * * وأدفع يا جبالي

خُدمت يوم الخميس في 20 سنة 1325 صنعها خليفة بن محمّد الغديري الغمراسني

وزادات الاستقلالية عندما برزت سلطة هائلة لتضمحل سلطة المجموعة الأثنية، فهذه عائلة إبراهيم من مجموعة الزمامرة تستغل بقصرها قصر أولاد إبراهيم، وهذا علي بن عمّار المهادوي يخط لنفسه قصرا قبالة قصر الخراشفة ويسمى إلى اليوم باسمه كما يطلق عليه اسم منطقته «قصر علي بن عمّار المهادوي بالغيادة» .

إن تطوّر القصر خلال هذه المرحلة الحديثة سيظلّ مرتبطا بميزان القوى الاجتماعية، ويمدّى قدرة القوى العصبية للقبيلة على توجيه التعبير لتجسيد سلطتها، لذلك لما استطاعت بعض المجموعات الاستقلال بقصورها فعلت ذلك ولما قويت شوكة العائلات سارعت ببناء قصر قريب من مواطن استقرارها المؤقت لإبراز قدرتها، وعندما ضمن بعض الأفراد سلطة أكبر استقلّوا بقصورهم الخاصة .

ومع ذلك فقد بدت هذه القصور متشعبة البناء بسيطة، وإذا ما استثنينا قصر بني خدّاش القصر المركزي الذي أدرك سبعة طوابق وقصر الخراشفة بطوابقه الأربعة فإن بقية القصور لا تتجاوز الطابقين في أقصى الحالات ولا يزيد عدد غرفها على الستين، بل لا تحمل زخرفة وتنميكا وتزييفا أو كتابة تاريخية، كما عهدنا ذلك بقصور العصر الوسيط. وربما يفسّر ذلك بأنّ دواعي تشييدها لم تتجاوز وظيفة الخزن، وبأنّ نظام تعهدها لم يكن دوريا، وبقلة أصحاب الخبرة في التشييد والبناء، لذلك لم يصمد آخرها إنشاء كقصر أولاد بوعبيد وقصر الخربة وقصر الغيادة وقصر الجراء قرنا واحدا في وجه الزمن. ثمّ زادت الفترة الاستعمارية تعقيدا بما سعت إليه من مقاومة القصر مركز الميعاد ومنطلقا للمقاومة منذ دخول المستمعر . فكانت تراجيديا القصور ببني خدّاش ذات فصول مثيرة كما سنعرض لها في الفصل الموالي .

نُوصِيكُم يَا سَاكِنِي لَرُضْ بَعْدَنَا *** عَ السَّلْ
*** رَاهُو عَيْبَ وَقَلْ

نُوصِيكُم يَا سَاكِنِي لَرُضْ بَعْدَنَا *** عَ الظَّفَرُ
*** رَاهُو يَعْبُ الظَّفَرُ

وَيَنْقُصُ الْبَصَرُ *** وَيَعْبُ الْفَقْرُ *** وَيَقْصُرُ الْعُمُرُ

نُوصِيكُم يَا سَاكِنِي لَرُضْ بَعْدَنَا

وَلَا تَقْرُطُوا فِي لَسُودِينَ

ملخص الوصية: صيغت هذه الوصية باللسان الدارج المحلي وتجمع لفظا عربيا وآخر أمازيغيا وملخصها أن عملية الجلاء عن جبل دمر لم تتم إلا بعد صلاة 500 طالب بالجامع الأرضي وتقيب 500 من حرائر نسائهم فوق جمالهم ليرتكوا الموطن الجبلي نحو برار بعيدة لم تحدد في الوصية. لكن نصها قد التفت إلى تخزين الخبرة وتبرير دواعي هذا الجلاء بالجفاف والجراد وريح الغربي الجافة من جهة وبضغط الجباية من باي الأمخال من جهة ثانية. وكتبته الوصية إلى قلة مردودية مهن جبلية في العناية بالنخيل وفي الضفيرة من الجفاف. إلا أن من متزوج صامد في وجه الجفاف غير أسود حيواني هو الماعز وأسود نباتي هو تفل الزيتون (الغيتيرة) من جهة أخرى. فأوصت بهما نهاية النص

8-2 - الفصل الثاني :

لقد تداعت أسس استقرار جبل دمر بانهايار الإمارة المانيطية، فنسارعت القرى المستقلة بظلها إلى التشتت، وصار أهلها يهجرونها خفافا وثقالا، لتزداد مأساوية المشهد حدة، عندما يتفرق إخوة الأمس شتاتا مهملا بين الطرقات. وتنشأ عندها الحكاية من رحم الجبل الجريح، لتختزل آلامه. إذ تذكر الزوايا الشعبية قصتين هما من أكثر القصص تراجيدية، تحضر فيهما المرأة والشيوخ. وهاتان القصتان تولفان معا تراجيديا «الجلوة» كما يطلق عليها محليا سيما، وقد شاعت أدبيات مغادرة المواطن كرها، وصار جبل دمر مدبرا في بناء الاقتصادية

والاجتماعية، ورفع الهاريون من قحط الجبل شعارا غرّب ثعيش وشرق تنجبي. ثم انتشرت تلك الأمثلة المفرغة لجبل دمر من مخزونه الذمغرافي بقولهم:

اللي طاز في أول المَشَوَارْ يَحْصِلُ النِّجَاءُ وَيَعِيشُ
وَاللي قَعْدَ لَأَوَهَامَ الدَّارْ لَأَوَ بِالْجَنَّةِ لَأَوَ بِالرَّيْشِ

تقول الحكاية الأولى إن أميرا من أمراء قصور جبل دمر المتنية قد اشتدت الأزمة بأهل إمارته وطال الجفاف عليهم، وقد هجر سكان القصور المجاورة لهم الأوكار تباعا، فصار أهل بلدته عازمين على الرحيل عنها، ولم يكن على ذلك الرأي لهم موافقا. فأحضر زوجته وابنه وابنته ليلة الرحيل. كان الفتى شابا قويا جلدا، وكانت الفتاة صبية فائقة الجمال، وقد قاربت العشرين من العمر.

جمع الأمير أفراد عائلته وقال: «الليلة يرحل أهل قصرنا جميعا، ولست من الرّاغين في ذلك، ولن أجبر على ترك موطني، وقد قرّرت قرارا لا أراكم إلا مطيعي فيه» قالوا: «وما هو قرارك فنحن أهلك وعيالك، وأول من يطعك» عندها كشف عن أربع كؤوس من السم ووزعها عليهم قائلا: «تناول حالا كؤوسنا وندفن في أرضنا وكؤوسنا، فالغربة ذل وعذاب ولن تنمو الشجرة في غير تربتها» وصّب كأسه في جوفه، فخرّ ميتا ولم يتوان ابنه فخرّ ميتا بالسم إلى جانبه، وفعلت ذلك زوجته بنفسها.

لكن الفتاة الشابة تردّدت، وفزعت للمشهد، أهلها يتهاون أمامها صرعى! فتركت كأسها وخرجت مولولة حيث عثرت على القافلة مستعدة للرحيل فصحبها ودعة الأسى لا تفارقها.

سارت القافلة بالتجمع الهتل بين فيافي بعيدة، وتفرق أهلها ينسل في كل موطن منهم بعض المتخلفين، حتى أدركت أحياء رعاة عرب مرتحلين في شمال إفريقيا، هناك مكثت تلك الفتاة، بنت الأمير الدمرّي المدللة، بين تلك الأحياء تخدم الحرائر فتكنس البيوت وتمدّ اليد للقمة العيش.

طالت بها المدة، فلم تجد لطعم الحياة لذة. فقد زادت ذلتها واشتد عناؤها عندها تقدّمت إلى فارس من فرسان الحيّ ومدّت نحوه أواصر التقارب وظلّت تراوده حتّى وقع في شرك حبّها، فأغرته بالمال وحدّثه عن ثروة ضخمة من الذهب الخالص تركها والدها الأمير ووعده بها كلّها إن أعادها إلى قصر والدها الحالي بجبال دمر...

دفع الطمع وحبّ الثراء السريع هذا الفارس إلى المغامرة فأردفها خلفه صهوة حصانه، وسار بها أيّما وليالي حتّى أدركا القصر الحرب الموحش، قدفعت بابه وقصدت غرفة والدها ففتحت صناديقه المملوءة ذهبا وقالت للفارس: «ذاك جزاؤك» ثمّ سارت به إلى الغرفة الواسعة وأرته هياكل أهلها المتناثرة، وأمسكت كأس السّم الباقية وقالت له بصوت عالٍ: «نُشْرِبْ كَأْسِي وَنُرْقُدْ مَعَ نَاسِي وَلَا نَقْعُدْ بَيْنَ الْعُرَبَانِ نَاسِي» ودفعت الكأس إلى حلقتها، فالتحقت بأهلها في انتحارهم الجماعي.

وإذا ما قرّرت بنت الملك المتحرّة أن تعود فنتغرس في الوطن توبة عن إثم الهرب وتأسيساً للذات، فإنّ طيباء بنت وادي التقيّ لم تشأ أن تخارق الوطن مادام جدّها، أصلها الثابت، قائما به مقيما فيه.

حدّث الراوي عمار الصديق قال: «ما سمعناه عن آبائنا وأجدادنا أنّ أزمان الجفاف وعسر الوقت كانا يلبّان بالناس في مساكنهم الجبلية، فلا يرى الجار لجاره نارا تنقد لطهي طعام، وعندها «يهيج» من الخلق الصّحيح التسليم ويمكث الضّعيف الخائر في مسكنه ينتظر موته، فكانوا يطبّون مدخل البيت عليه ويتركون له فرجة هواء وإبصار حتّى ينتهي به المطاف ميتا في بيته- قبره».

ومن جملة من وقع لهم ذلك شيخ أعشى في إحدى قصور جبل دمر ينحدر من قبيلة قويس، طيّن الفارّون من الجفاف في جلوتهم عليه داره، وتركوا له بقايا أكل وغادروا القصر لكنّ حفيدته طيباء قد رقت حاله فقرّرت المكوث معه والموت حذوه. فأبدلت الخائض الطيّبيّ بابا خشبيّا كانت تغلقه كلّ ليلة قبل المنام.

ومرّت بعض الأيّام والبلاد خالية من سكّانها، حتّى استيقظت الفتاة طيباء ذات ليلة على ديبب قربها، فانتبهت إلى بعض العلف المتروك من عصر الزّيتون «الثقل» وقد انهك حيوان برّي في تناوله. أبقيت جدّها قائلة «جديّ هو ذا وحش مخيف لا عهد لي به، على رأسه قرون حادة وكثيفة» قال «لا تخافي بنيتي إنّهُ الوداد ذكر الغزال... قربي مني السّلاح النّاري، وثبتي اتجاه التصويب حتّى نظفر به» وأطلق الشّيوخ الضّرير النّار من سلاحه فأصابه إصابة قاتلة. عندها فرحا بذلك وقطعا لحمه وشويه. وما إن تناول الشّيوخ حتّى استعاد بصره فأنشد قائلا باللسان الدّارج:

إِذَا غَلِقْتُ الْبَابَ طَيْبَةً *** رَبِّي رَحِيمٌ مَا يَنْغَلِقُ بَابَهُ
وَجَانِمِ الْكُونَيْنِ قَسَمٌ *** مَا قَرِيبَالَهُ فِي الزُّمَانِ خَسَابَةٌ.

3-8 - الفصل الثالث :

جيوش فرنسا المدجّجة بالسّلاح والمعزّزة بقاتل المخزن تزحج ضمن حملة جامي وفيلويار ما بين شهري ماي وجويلية 1882 على بلاد ورغمة من قايس ومن قصّة ونظر لانسجاي عروش ورغمة البدويّة من أراضيها إلى المشرق، فقد قرّر جامي الانتقام من قبائل الحوايا بطريقة استفزازيّة قطعت الزّياتين بسهل دمر وفي طريق العودة عرّج جامي على قصر الجوامع التابع لعروش الحوايا وكان في نظر الفرنسيين من العروش المتمرّدة الحاملة للسّلاح. فأمر بحرق المحاصيل وقطع الأشجار ونهب محتويات الغرف قبل أن يلتحق بمدنّين من جديد (7).

4-8 - الفصل الرابع :

معاول الحفر الشّهيّة لدى الحفّارة الحوايا تجتمع في شكل حضائر هدم وتنظيف، وتشجّد جميعها لسنوات متتالية خلال عقد السّتينيات من القرن الماضي. فهُدِم القصر ذو السّبعة طوابق، قصر بني خدّاش، ولم يبق منه غير غرف قليلة شاهدة، أو بعض الصّور التي

احتفظت بها وثائق المؤرخين. ونظمت ربوة الخدائش كلباً من كل مقوماتها الأثرية بتحويل المقابر وسدت المغاور. وانتهى بذلك رسم الحضارة فيها.

8-5 - الفصل الخامس :

بقايا القصور النبعة في قممها، وفي العقد الأول من الألفية الثالثة، تثن وتوَجع في صمت اليأس، فمقاطع الحجارة تُنصب تحت الطبقات الصخرية المثبتة عليها أصلاً، وغرفها وجدرانها قد انهالت عليها معاوِل التّش عن الكنوز فازداد عبث الإنسان بهذا المخزون وحشية وتدمير، حتّى تكاد المنطقة تفقد آخر مخزون أثريّ يمكن أن يستدلّ به الباحثون ويستفيد منه المستثمرون، سيما وجهود الترميم والصيانة لم تتجاوز طورها التشخيصي-التجريبي.

9 - كيف تعود الرّوح إلى القصور والجبل مدمر؟ !

لاشكّ أن تدخّلات وكالة صيانة التراث قد أعادت الرّوح لقصر الحلوف وقصر الجوامع وقصر زُمور وبعض قصر بني خدّاش وفي شتّى المواقع. الشراكة ضمن برنامج «جسور وقصور» ما زاد هذه الموارد تنمية، لحرصها المتواصل على تسريع وتيرة الترميم والصيانة. لكنّ وتيرة التدمير بفعل الزّمن أسرع من وتيرة التعمير، خاصّة إذا كان هذا الترميم لا يخضع إلى استراتيجيّة واضحة المعالم، بقدر ما تتحكّم فيه عوامل ظرفيّة هي إلى قوّة التأثير ومثانة العلاقات أقرب من الحسّ التنمويّ الاستراتيجي، ذاك الحسّ الذي يراهن على إعادة تعمير الجبل انطلاقاً من تفجير طاقاته التنمويّة، ومن استغلال موارده الطبيعيّة، ومن الاستفادة من الخبرة المحليّة في تطويع المكان للإنتاج الاقتصاديّ المتنوّع ذي الخصوصيّة المميّزة.

إنّ ما يخفي عن برامج إعادة الإعمار والتّوطين أنّ

القصر لا يعمر في ذاته، وإنّما يعمر بغيره، بمجاله الحيويّ حوله، وإذا ما دُمّرت مصادر المياه والتربة والكساء النباتيّ فانحدرت الأرض بسبب انخراط التّسحّ المجتمعيّ في مشروع الإنتاج الرّعويّ المكثّف. فما الذي يبقى بعدها قابلاً للتعمير. بل ما الفائدة من أن نرسم قصوراً مجالها الحيويّ منهار كلباً؟؟

لعلّه قد آن الأوان إلى أن نعيد النّظر في اختياراتنا التّنمويّة المحليّة، لقد شارفنا، بعد أربعة قرون من انهيار تجربة القرى الجبليّة، مرحلة كارثيّة انهارت فيها الجسور وتعرّت فيها الصّخور. فأيّ قيمة عندها لترميم القصور؟

إنّ القصر -رغم كلّ مجهوداتنا- سيظلّ هيكلًا مختنقًا ما لم يستنشق نفس الحياة من فضائه الأوسع، وما لم يمدّ ذراعيه حوله عبر مسالك المبادلات التي ألفها وتغذى من روافدها قروناً طويلة.

ثمّ إنّ هذه القصور المرمّمة قد اتّخذت لنفسها منذ البدء مواقع منزلة عن التّوطين الإسكانيّ الحاليّ، ومعلوم أنّ لا حياة لعمارة بدون إنسان فاعل داخلها، يجذبها ويستثمر منها فيستقرّ حولها. أفليس من اللاّجديّ أن نرسم المواقع القريبة من السكّان اليوم، حتّى نكتسب حياتها من نشاطهم داخلها؟ ثمّ نلتفت إلى المواقع الأبعد بعد نضج التجربة. لأنّ دمج المواقع البعيدة عن المتساكنين في الحراك الاقتصاديّ عمليّة مكلفة وقليلة المردوديّة.

وعليه فسكوّن الالتفاتة إلى البلدات، قرى العصور الوسطى، أجدي وأنفع في الصّيانة من التّركيز على القصور الحديثة المنعزلة بطبيعتها عن كلّ حراك اجتماعيّ نشيط باستثناء نشاط الحزن.

وفي هذا المجال قد يكون تركيز الجهود على قصر بني خدّاش وتفعيله أمّجّع في وضع نواة انطلاق صلبة للحراك التنمويّ الموطّف للتراث العماريّ في أنشطة السّياحة الثقافيّة والبيئيّة.

جرار وهمية ستجرّ هذه المعالم إلى التّخريب المتعمّد، فتتضي على الحاضر والماضي معا.

وجليّ أنّا قد تعمّدنا في دراستنا هذه الجمع بين الاستفادة من المراجع العلمية المختصة، والاستفادة من الحكاية الشعبيّة، والتعويل على البحث الميدانيّ إيماناً منا بأنّ ظاهرة القصور أكبر من أن يدرسها باحث أو يلمّ بها اختصاص بحثيّ محدّد، ولعلّها أنسب المجالات البحثيّة لتعدّد الاختصاصات واجتماعها. لأنّ عالم القصور بالجنوب الشرقيّ عامة يستدعي باحثين في مختلف الاختصاصات الدّقيقة اليوم، إنسانيّة وعلميّة. وذلك ما يمكن أن يتحقّق بوحدات البحث الجامعيّة.

وإنّا لتوّج هذا العمل بمقتراح بعث وحدة القصور بجامعة مختصة من جامعاتنا حتّى تقدّم مادّة علميّة دقيقة يتجاوئ فيها البحث في تاريخيّة القصر وأبعاده الحضاريّة طور الهواية إلى طور التّخصّص والتّعمّق المفيد. وذلك أبرز وجه غائب في دراسة معمار القصر بجبل دمر.

الوجه الغائب أو الحلقة المفقودة في عمارة القصور بجبل دمر، كما انكشفت من خلال دراستنا للمخزون الأثريّ بمنطقة بني خدّاش عديدة الملامح، فهي بداية الضّبط الإحصائيّ لهذه المواقع وما يحتاجه من جهود متضافرة، وهي ثانية العناية الأكاديميّة بهذا المخزون وما تستدعيه من دراسات معمّقة. لعلّها تعرف الطّريق إليه قبل أن يعرف طريقه إلى الاندثار الكلّي، وهي ثالثاً ذلك التّشكّث في جهود الترميم والصّيانة وما يحتاجه من وضع لاستراتيجية ناجعة في مقاربة المسألة بفعاليّة وحذق، وهي رابعاً أساساً تلك الوقفة النّقدية التي تحتاجها الدّراسات المستجّدة حول القصور بالتّعويل على البحث الميدانيّ وربط المجالات ببعضها البعض، فلا يعقل أن تقطع قصور جهة عن أخرى ولا أن تُختار وتصنّف أو تُحدّد بمقاييس تضاريسيّة محدودة، وهي خامساً ذلك الوعي الحقيقيّ الذي يحتاج إلى الانتشار بين متساكني تلك البلاد، بأنّ كثر القصور الحقيقيّ كامن في عمارتها وعمق حضارتها، ولم يكن مطموراً في

ردیف	نام اثر	نوع اثر	زبان	تاریخ	موضوع
1	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
2	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
3	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
4	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
5	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
6	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
7	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
8	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
9	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
10	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
11	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
12	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
13	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
14	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
15	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
16	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
17	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
18	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
19	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره
20	آب و تاب	داستان	فارسی	1305	زندگی روزمره

المصادر والمراجع

1 - المراجع باللغة العربية :

- ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر، دار الفكر بيروت، ط2، 1988
- الخيلاني (سليمان بن أحمد)، علماء جربة، تحقيق محمد فوجة دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1998
- الفرستاني (أبو المباس أحمد) -القسمه وأصول الأرضين، تحقيق د محمد صالح ناصر والشيخ بكير بن محمد بالشيخ بلحاج، مكتبة الصامري، عمان، ط1 1992
- بن وزود (الهادي) وأحمد عمو ومحمد حسن، قانون المياه والتهيئة المائية بجنوب إفريقيا في العصر الوسيط، مركز النشر الجامعي، 1999
- جمعية صيانة جربة، أعلام من جزيرة جربة، مجموعة محاضرات، الشركة التونسية لفنون الرسم، ط1، 1995
- حسن (محمد) المدينة والبادية في العهد الحفصي، مركز النشر الجامعي-2002
- حسن (محمد) القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط. دار الزّياح الأربعة للنشر 7
- لبيسر (فتحي)، نجع ورغمة، أطروحة دكتوراه-1991-كلية الآداب والعلوم الاجتماعية-قسم التاريخ : عمل مرقون
- يحيى (بن أبي بكر زكرياء)، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمان أيوب، الدار التونسية للنشر

2-المراجع باللغة الفرنسية:

- Abdesamed Zaid-Le monde des ksours du sud-est tunisien- Beit el-hikma-1992,1ère édition
- André Louis ,Le monde des ksars - éditions du centre national de la recherche scientifique-

الهوامش والإحالات

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

- (1) انظر André Louis le monde des ksars- éditions du centre national de la recherche scientifique 1975
- (2) من صفحة إلى ص115 إلىص125 وقد اقتصر على ذكر ثلاثة قصور هي قصر الجوامع وقصر الحرافشة وقصر بني خدّاش
- (3) Abdesamed Zaid-Le monde des ksours du sud-est tunisien- Beit el-hikma-1992,1ère édition
- (4) من صفحة 96 إلى صفحة 99 وقد ذكر 08 قصور هي قصر الحلوّف وقصر أولاد مهدي وقصر الخربة وخربة مززن وخربة زّور وخربة بلد البير وخربة الحتمورية وقصر بولصوار. ولم يصف غير القصور الثلاثة الأولى مكتفيا بالإشارة إلى البقية تحت عنوان خربة
- (5) حسن محمد المدينة والبادية في العهد الحفصي ج 1 ص277-278
- (6) حسن محمد-القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط. دار الزّياح الأربعة للنشر ص164
- (7) لبيسر فتحي نجع ورغمة أطروحة دكتوراه-1991-كلية الآداب والعلوم الاجتماعية-قسم التاريخ ج 1 ص65-عمل مرقون «شهدت سنة 1548 خفوتا كبيرا في نسق حركة القوافل بين غدامس وتونس بعد انتقال طريق هذه التجارة من غدامس إلى طرابلس»
- (8) أعلام من جزيرة جربة-مجموعة محاضرات-من تنظيم جمعية صيانة جربة 28 و29 جانفي 1994 ص23-24
- (9) لبيسر فتحي-نجع ورغمة أطروحة دكتوراه-1991-كلية الآداب والعلوم الاجتماعية-قسم التاريخ ج 1 ص83-عمل مرقون.

القصور الجبلية في الفترة الاستعمارية ودورها في الحركة الوطنية

عقار السوفي (*)

أنواع القصور :

يمكن تصنيف القصور إما حسب موقعها أو حسب وظيفتها.

من ناحية الموضع هنالك قصور جبلية شُيّدت على قمم الجبال، وهي أقدم القصور وتتكوّن من «البلد» والقلعة، وقصور السفوح والسهول وشُيّدت أغلبها في العهدين الحسبي والحفصي.

ومن الناحية الوظيفية فهناك صنف من القصور جمع بين ثلاث وظائف وهي السكن والحزن والحماية من غارات الأعداء وحملات النهب. وهذا النوع من القصور والتي تسمّى «البلد»، يمكن أن تصنّف ضمنها بلد ششني والدويرات وقرماسة وبلد الزوّاي وبولسوار، وبلد غمراسن الفجيج والمقرن. وهي قصور قديمة في الزمن إذ وقع تشييدها من طرف الأمازيغ حين تقهقروا نحو الجبال للاحتباء من الغزو الروماني ثم البيزنطي الذي استولى على سهول الجفارة، وأجبر البربر، السكان الأصليين للبلاد، على التقهقر نحو المرتفعات الجبلية الأكثر أمنا.

لدراسة القصور الجبلية بالجنوب الشرقي لتونس، من البديهي أن نستعمل هذا الموضوع لتحديد المجال الجغرافي الذي تنتشر فيه هذه القصور الجبلية ذات الطابع المميّز والتي يقارب عددها المائة قصر.

تمتد أغلب هذه القصور على منطقة جبلية تبدأ من جهة الأعراض شمالا إلى تخوم جبال نفوسة بالقطر الليبي جنوبا، ويحاصر هذه المنطقة شريط ساحلي الجفارة، أما غربا فتشرف المنطقة التي تنتشر عليها القصور على هضاب الظاهر ومنطقة العرق الصحراوي. وهي منطقة جبال وأوعار وهضاب ووهاد وأحراش وشعاب وأودية موسمية، كوادي الخلتوف ووادي ابن خشب ووادي الفرش. لذلك فهي منطقة صعبة المسالك وخاصة في الفترة الأولى لدخول المستعمر. أما مناخها فهو شبه جاف، معدل نزول الأمطار أقل من 150 مم / في السنة، وتتميز الأمطار بعدم انتظامها الفصلي والسنوي، إذ تسجل التهاطلات أحيانا كميات تتجاوز المعدل السنوي في أيام قليلة، مما يجعلها منطقة المخراف، نظرا لطبيعة تضاريسها الجبلية.

(*) باحث، تونس

المعدة للخزن. وفي هذا النوع من القصور توجد السرايب (وهي عبارة عن متافذ تحت الأرض تتخذ لمباغطة المهاجمين، أو للانسحاب من مواجهة غير متكافئة مع الأعداء). وتتضمن هذه القصور مواجل لخزن مياه الأمطار.

هذا النمط من القصور يوجد بقرماسة وشنتي والدويرات وبني بركة من ولاية تطاوين، وبلد غمراسن والزواي والمقرن وبولسوار مقر من منطقة بني خداش. ومن توابع هذا النوع من القصور القلعة، وهي عبارة عن حصن للمراقبة تتموقع على قمة الجبل يلجأ إليها الأهالي في حالات الحرب.

أما قصور السفوح المتواجدة أحيانا في مواقع منبسطة من الجبل، أو على ضفاف الأودية المعانقة له أو على بعض الربى المتصلة به، فهي قصور العروش شيد أغلبها في العهدين الحسيني أو الحفصي، وإن أقيم بعضها على أنقاض معالم قديمة، مثل قصر الجوامع من منطقة بني خداش والذي ينقسم إلى جزئين، جزء داخلي ضارب في القدم يعود إلى حقب سابقة للفتوحات الإسلامية، وجزء خارجي أقيم منذ خمسة قرون خلت.

ويتكوّن هذا النمط من القصور من مجموعة من الغرف تكوّن السيج العمراني للقصر، والذي يتكوّن من ثلاثة إلى ستة طوابق. وتمسح الغرفة الواحدة مساحة تقريبا عشرة أمتار مربعة. وقد تتجاوز بعض الغرف هذه المساحة إذ يتجاوز طولها الأربعة أمتار. وهي غرف مقوّسة الشقوق. وللوصول إلى الغرف العلوية يتسلق المالك مدارج بسيطة أو أعمدة خشبية مثبتة بالجدران أوحبال أو حلقا من الحديد.

وتتمتلك كلّ عائلة من العرش غرفة، وقد يمتدّ المسورون أكثر من غرفة واحدة في القصر. وأمثال هذه القصور منتشرة في مناطق بني خداش وغمراسن وتطاوين مثل قصر أولاد دباب وقصر أولاد سلطان وقصر الحداة وقصر أم التمر وقصور مدين وقصور بني خداش وزمور والخلتوف وقصر الخراشفة والمحاصة

هذه القراءة لأسباب تفهقر الأمازيغ نحو الجبل تعارضها قراءة «أندري لويس» الذي يرى أنّ هذا التفهقر قد تزامن مع الزحف الهلالي على إفريقية. هذه القراءة الثانية يدحضها تواجد قبيلة ذات أصول صنهاجية بواحة قابس، بين قبيلتين عربيتين تواجدتا مع الزحف الهلالي هما (قبيلة بني زيد وقبيلة الحمارنة).

كما نجد قراءة ثالثة ترى أنّ احتماة البربر بالمرتفعات يعزى لأسباب اقتصادية حتمتها العوامل المناخية. إذ أنّ أراضي الشّعاب الجبلية رغم ضيق مساحاتها هي أكثر خصوبة وأوفر إنتاجا من أراضي سهل الجفارة التي تغلب عليها طبقات كلسية تقلص من قدرتها الانتاجية، في حين تمكّن الجسور والخواجز الترابية (الطواهي) من استغلال كميات المياه المخزّنة لريّ الزّياتين وكروم التّين وزراعة الحبوب.

ويمكن اعتبار عاملي تأمين الحماية وتأمين الغذاء قد اجتماعا لتبرير الاختيار الأمازيغي لسكنى الجبل والجمع بين غط العيش المستقر والانتجاع.

أما قصور السفوح والسّهول فهي قصور اقتضت وظفيتها على الخزن والتّنام الميعاد، وإنّ أضيفت لبعضها وظيفة السكن في فترات وجيزة من الزّمن، مثلما حدث بقصر الخلتوف من منطقة بني خداش.

وحسب التّصنيف التاريخي لهذه القصور يمكن أن تصنّف إلى ثلاث حقب تاريخية: القصور البربرية القديمة: «البلد» والقلعة، وقصور الفترة الإسلامية، والقصور الحديثة.

عمارة القصور :

تتخذ أغلب القصور في انتشارها الأرضي شكلا مستديرا أو مستطيليا أو مربعا. وتختلف القصور في مكوّناتها حسب مواضعها، حيث يتكوّن القصر (البلد) من جزء حجري ينحت داخل الجبل، ويؤلف هذا الجزء الحجرات المعدة للسكن، أما الجزء الخارجي فيتكوّن من حزام من البنايات تؤلف سياج البلد وبعض الغرف

وظائف القصر في الفترة الاستعمارية :

يمكن اعتبار القصر خلية اجتماعية، تمكن التجمع أو العرش أو القبيلة من الاطمئنان على مكاسبها وممتلكاتها أيام الترحال والانتجاع. فتأمن على ثرواتها ومذخراتها بخزنها في هذه المؤسسة التي يكلف بعض رجالها مهمة الحراسة (العسس).

ويمكن اعتبار مؤسسة «الميعاد» من أهم المؤسسات الاجتماعية «للمجتمع القضاوي».

يقول المؤرخ الفرنسي «أندري نوشي»: لا يمكن أن نفهم شيئاً عن تاريخ المغرب العربي إذا استبعدنا القبيلة، ويمكن أن نضيف لمقولة (نوشي): لا يمكن أن نفهم شيئاً عن القبيلة في الجنوب الشرقي إذا استبعدنا القصر.

وللتعريف بمفهوم «الميعاد» في هذه المجتمعات الرعوية التي تراوح في عيشها بين الاستقرار والانتجاع، لابد من الإشارة إلى أن لكل عرش ميعاد. و«الميعاد» مجلس شبه شوري يرأسه شيخ القبيلة، الذي يتم حوله إجماعها لاعتبارات أهلية مثل الشجاعة والثروة والإشباع والخضرة ورجاحة العقل وسرعة البدهة.

وينعقد الميعاد للنظر في الأحوال الطارئة مثل تنقل النجع ورؤاله، وشؤون الفلح والحراثة، وعقد الأحلاف مع بقية العروش، وفرض النزاعات. وحسب بعض الروايات الشفوية ينعقد مجلس الميعاد فيتحدث الرجال في شكل دائرة يناقشون الموضوعات المطروحة للتفاوض وأخذ القرار. ومن الرموز الدالة على حالة الميعاد ونتائجه، أن الحاضرين في المجلس يجتمعون ما تناثر حولهم من حصى في شكل هرم، أو يكومون الرمل المتواجد قربهم، فإن أجمعوا على رأي واحد تركوا ما جمعوا على حاله، وإن اختلفوا ولم يجمعوا على رأي أقرار نهائي ثروا ما جمعوا من حصى أو رمل، فذل ذلك على حالة مجلسهم لمن يتعقبهم من رجال القبيلة الذين تغيبوا عن ميعادها. والميعاد مفتوح لجميع الرجال البالغين المتزوجين، إلا أن القرار لأصحاب الحظوة، وهم كبار فروع القبيلة.

وأولاد مهدي وقصر أولاد بوعبيد وقصر تونين وقصر توجان. وهي قصور الخزن للعرش. وقد يتسع القصر لأكثر من عرش واحد (قصر بني خداش كان يوظف لخزن عروش المكارزة والوناسة ولباريد).

وقد تتجمع عدة قصور في مكان واحد، كتجمع قصور مدين الذي كان يضم ستة قصور متلاصقة بها حوالي ستة آلاف غرفة، وهو أكبر تجمع عمراني في الجنوب الشرقي تكوّن من قصور حول زاوية الولي الصالح علي بن عبيد الطرابلسي.

ومن توابع القصر المعدّ لخزن العروش، الدور الحفرية المنتشرة حول القصر، والتي تسمّى بها مناطق مطماطة وبني خداش وغمراسن وتطاوين، وهي مساكن تنفر في باطن الأرض، يختير لها مالكوها المنحدرات لتسهيل خروج مياه الأمطار. ويتكوّن «الحوش» الحفري من «رجبة»، وهي عبارة عن بهو تطلّ عليه منافذ الحجرات، والتي ينحتها مختصّون في شكل مقوّس حتى تقوى على تحمل الثقل المحمول عليها، وهي دور تحت في أرض تغلب على تربتها المادة الكلسية أو الطينية التي يكون الانتصاص للتساقطات فيها بطيء. والحجرات في هذا النمط من العمران تتمتع بالتكييف الطبيعي (باردة في الصيف ودافئة في الشتاء). كما تتخذ هذه الدور لتخزين تكون متصلة بسراديب لخروج مياه الأمطار. ويضمّ الحوش الحفري في أحد أركانه المطبخ الذي يقتصر دوره على إعداد الطعام، ولا يتسع لتناوله.

لقد تمّ تشييد هذه القصور بمواد بناء محلية. فقد استعملت في بنائها الحجارة والجبس والجير الذي هيأه الأهالي في أفران محلية تحفر في الأرض، وتحرق فيها الحجارة المتجيرة بواسطة الحطب. ومازالت آثار هذه الأفران البدائية ومقاطع الحجارة التي يصنع منها الجير موجودة إلى اليوم قرب بعض القصور. أما الأبواب فهي تصنع من جذوع النخل، وتتميّز بسمكها وثقل وزنها، ويمكن أن تحمل جدران بعض الغرف نماذج من الزينة والتنميق مثل صور الخمسة والنجم الخماسي والهلال.

جهة الشمال الغربي (منطقة إفريقية) للحصاد مقابل جزء من المحصول (وهو ما يعرف بظاهرة «الهلطاية»).

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض القبائل قد اضطرت للجوء عن قصورها، كجلاء قبيلة (مطوس) عن موطنها، حيث لحصوا أسباب هجرتهم في وثيقة كتبت على جدران قصرهم: ربح التوالي وعلتق المخالي وهات يا جبالي.

العنصر الأول (رياح التوالي) أي قساوة الطقس جراء رياح السموم اللافتحة والمحرق.

العنصر الثاني (علوق المخالي) أي تغليف خيل المخزن.

العنصر الثالث (هات يا جبالي) إشارة إلى الضرائب الجائرة التي تفرض على سكان الجبل.

كما تمّ جلاء العائلة البرّادية عن قصور دمر، وانتقلت عائلات منها إلى جربة كعائلة بن غربال وبن يوسف، ويبدو أنّ نفس الأسباب التي جعلت أهالي مطوس يتركون موطنهم قد أجبرت بعض أهل دمر على الرحيل إلى جربة.

دخول الاستعمار منطقة القصور:

لم يجد الاستعمار مقاومة شديدة في الجنوب الشرقي، غير أنّ الأمن لم يستتب، ممّا جعل المستعمر يعتبر هذه الربوع منطقة مستعصية، لذلك أخضعها للقانون العسكري. ورغم الطوق العسكري وحرمان أهالي ورغبة من الحكم المدني فإن المستعمر لم يتمكن من السيطرة على منطقة الجنوب الشرقي إلا سنة 1889 أي بعد ثماني سنوات من انتصاب الحماية.

ومنذ بدء المواجهات مع المستعمر شعر سكان قصور مدنين وأمّ التمر والكركرية (قصور السهول) بالخوف عن المخزون من المؤونة فقلّت كميات هامة من القمح والشعير والزيت إلى قصر بني خدّاش اعتقاداً أنه أكثر أمناً من أن تطلوه أيادي المستعمر. غير أن هذا الأخير خطط بدءاً لدخول قصر بني خدّاش. فاغتنم زمن

أما قانون القبيلة ومصدر تشريعها فهو «قانون العرف» وما جرت به العادة بين الأهالي، كعرف ورغمة الذي اتفقت عليه عروشها في القرن التاسع عشر، والذي بقي سائر المفعول إلى الفترة الاستعمارية.

كما يقوم القصر بوظيفة اقتصادية. فقيه تتمّ عمليات البيع والمقايضة والاقتراض، وتحرير العقود، لذلك عُبد في القصر إلى جانب غرف المخزن غرفاً معدة للبيع والشراء وأخرى حرفية يتصب فيها أصحاب الصنائع والحرف كالحلاق (حجامه) والتّجار والحذّاد وعدل الإشهاد والإسكافي والتّساج والخياط والتّراج وكاتب التّمام والمؤدّب.

وفي غرف المخزن تحفظ الحبوب والبقول والزيت والسمّن والشريحة والتمر، وأدوات الكيل والحرق والصّوف والوبر والجلود.

مجتمعات القصور بين الاستقرار والانتجاع:

إنّ ظاهرة الجفاف التي تصيب المجال الجغرافي الذي عثرته نجوع ورغمة ومطماطة، والتي تشابه قبائلها في العادات والتقاليد وطريقة العيش، قد حثّت على هذه القبائل أن تراوح بين الاستقرار والانتجاع، والجمعة هي الترحال والتّقلّل لطلب الكلا والرحيل عن مساكن الأمطار ومواقع الغيث. وحسب المثال العاتي: «إذا أرضك صابها الجذب أرحل لأرض المتعة والطرب»

يقول الشّاعر المبروك حمدي:

رحل نجعي ساق سرايعف

تنقل بغغيف

قصد بر المتعة والكيف.

(سرايعف وغغيف = جماعات)

ولئن كان طلب المراعي من أهمّ أسباب انتجاع هذه القبائل، فإنّ الأمر يتجاوز ذلك فتحث في السنين الممطرة قد تغادر بعض القبائل مناطق استقرارها وتهاجر للحرثة والحصاد وجمع المذخرات من الأعلاف والحطب. أما في سنين الجذب والجفاف فتهاجر بعض العائلات إلى

تطاوين ثم الدويرات فقلعة ششني وانتهى به الترحال في قصر بني بركة. والملاحظ أن هذا الجغرافي قد اتخذ لتقله بغلة وكان محاطا بحراسة مخازني. ولم يمر بقصر بني خدش ربما لظروف أمنية.

- دراسات مكتب الشؤون الأهلية بمدنين: هي جملة التقارير الأمنية التي كانت تصدر عن مكتب الشؤون الأهلية والكونسول «تاردي».

- دراسة الكابتن مكارا والتي صدرت سنة 1937 وقد تناول فيها هذا الضابط بالدراسة قبيلة الخوايا وقدم معطيات تفصيلية حول توزيع السكان بين القصور ومناطق انتجاع مختلف العروش. وأرفق الدراسة بخرائط تفصيلية وصور تمثل اليوم مرجعا نادرا حول منطقة بني خدش في بداية القرن العشرين.

انتجاع الخوايا بالظاهر في فصل الربيع للرعي والحصاد، لذلك لم تجد القوات العسكرية المستعمرة عند دخولها قصر بني خدش أية مقاومة تذكر وعانت فيه فسادا وأضرمت فيه النيران فاحترق بما فيه من متاع ومؤونة.

كما قام المستعمر بدراسات ميدانية لاكتشاف القصور والتعرف على مجتمعاتها بغية التمكن من السيطرة عليها. ومن هذه الدراسات نذكر:

- دراسة إميل مكارا والتي نشرت سنة 1906. لقد قام هذا الجغرافي سنة 1903 بتكليف من المقيم العام الفرنسي بتونس «بيشون» برحلة لاكتشاف قصور الجنوب. فقام برحلة انتقل فيها من قابس إلى مطماطة ومنها إلى توجان. ثم واصل رحلته نحو مارت ومنها قصد قصر أم التمر فقصر مدنين. ثم انتقل إلى غمراسن ومنها نحو قصر

جدول توزيع السكان حسب مكارا لخلافة الخزور سنة 1936

المشيخة	الموقع السكاني والقصر	العرش	عدد السكان
اللمالة	قصر الحلو	اللمالة - البريني	2 312
الحداة	قصر الجديد	الحداة	
أولاد بوعبيد	قصر أولاد بوعبيد	أولاد بوعبيد	
المحاضة	قصر المحاضة	المحاضة - الكراة	3 069
	قصر الخراشقة	الخراشقة	
الجباه	قصر الجديد	الجباه	2 066
	قصر الكريكرية	الونايصة	
	قصر أولاد يوسف		
الجوامع	قصر الجوامع	الجوامع	1 255
الزمامرة	قصر زمرور	الزمامرة	1 617
	قصر الحلو	الونايصة	
	قصر بني خدش	الأبايد	
المكارزة	قصر بني خدش	المكارزة	906
أولاد مهدي	قصر أولاد مهدي	أولاد مهدي	2 544
	قصر البيولي		
الجماعة			13 769

المصدر: مقال كابتن مكارا 1937.

ويتضح أن المستعمر أولى عناية فائقة لدراسة هذه القبائل والعروش في توزيعها الجغرافي و تآمنها إلى القصور حتى يتمكن من السيطرة عليها.

مجتمعات القصور والسلطة الاستعمارية:

إن المضايقات الاستعمارية في كل من القطرين التونسي والليبي قد حتم هجرات وهجرات مضادة بين سكان القطرين. فإثر تعيين القايد «فطوش» على منطقة ورغمة والذي عرف ببطشه وظلمه واضطهاده لسكان المنطقة، قزرت عائلة المكي المحضاي أن تهاجر قصر المحاضة لتستوطن بقصر الحاج بليبيا مدة خمس وثلاثين سنة. وتركت هذه العائلة أثارا شاهدة عليها بالمكان إلى اليوم منها شعبة الحوايا بقصر الحاج.

ومن جهة أخرى هاجرت عائلات ليبية إلى جبل دتر إثر الاحتلال الإيطالي لليبيا. من ذلك هجرة عائلة عيسى النالوتي من قصر نالوت إلى قصر بني خدش. وكان عيسى النالوتي قزانا بقصر بني خدش، وعرف أيضا بإحيائه لحفلات الأعراس بـ«الزكرة» والمزود. وكان المجاهد محمد الدغباجي يلتجئ إلى قصور الخلوف وتزور وبني خدش وأولاد مهدي والمجاهدة، فيجد الدعم والمساندة إثر اختفائه بعد الغارات التي يشتها على المستعمر وأعوانه.

كما كان المجاهد بلقاسم بن سامي يلجأ إلى قصر الخلوف أين كوّن صداقات مع مجموعة من الرعاة والصيادين، كما ربطته علاقة بالبطل عمر القرد اللوموي فصاحبه في بعض وقائعهم ضد المستعمر وأعوانه. ولهذا المجاهد قصة نضالية رائعة انطلقت من قصر النخلة. وهي موضوع رواية للأستاذ محمد العيادي العوني.

واستغل المستعمر الفرنسي القصور كمنافي من ذلك نفى عائلات من المرازيق إلى قصر الخلوف إثر حرب الودارنة (1914 - 1915) من بينها عائلة الغول. وكان يومئذ الطفل عبدالله الغول يبلغ من العمر خمس سنوات. فترعرع بين أطفال اللمالة وكان له شأن عظيم

في ثورة المرازيق (1943 - 1945) وهو أحد شهداء إعدامات السجومي سنة 1951. وقد قال فيه الشاعر
ضو الأبيض مرثية جاء في مطلعها:

وينه زعيم الفلاقة اللي كان عالي ومسمى
عبدالله ومعه رفاقة أولاد يداروا عالذمة.

وقد استعملت السلطات الاستعمارية التفق الأرضي لقصر بني خدش سجنا لكل من شق عصا الطاعة في وجهها، ومن بين سجنائه المجاهد الطاهر المهداوي بتهمة سلك السلاح والتدرب على استعماله.

كما استعمل قصر الخلوف كمحتشد لجمع عائلات من اللمالة لممارسة ضغوط نفسية على أقاربهم من الثوار.

واستعملت القصور في مناسبات عديدة لحشد الأهالي للبحث عن المجاهدين، من ذلك: عملية حشد انطلاقا من قصر بني خدش وقصر المحاضة لاعتراض ثوار المرازيق المنتجحين إلى القطر الليبي بعد معارك (1943 - 1944). وكذلك عملية حشد انطلاقا من قصور بني خدش وزمور والجوامع والخلوف للبحث عن المجاهدين. وقد تم حشد الغول الفار من قبضة القوات الاستعمارية بعين العتبة، حيث وقع عليه القبض من طرف الاستعمار الإيطالي بمنطقة الصيعان بليبيا، ثم وقع تسليمه للقوات الاستعمارية الفرنسية التي كانت تروم إعدامه بموئنة دوز.

ومن ذلك أيضا عملية حشد قامت بها القوات الفرنسية في صافنة 1953 قصد تمشيط المنطقة بحثا عن المجاهد مصباح الجربوع الذي أصيب بجراح بليغة بمعركة ميطر حيث جند للغرض أهالي قصور بني خدش وأولاد مهدي والخراشفة في صبيحة يوم 15 من أوت 1953.

كما تمت عملية استنفار انطلاقا من قصر بني خدش ومطاطة في ربيع 1957 لاعتراض مجموعة الطالب العربي السوفي ومن معه من ثوار الحركة اليوسيفية.

القصور والمقاومة الوطنية :

صنعت قصور الجنوب الشرقي مجموعة من التجار الوطنيين الذين ساندوا الحزبين القديم والجديد، وذلك بالتعبئة ونقل المعلومة وترويج بطاقات الإنخراط. ورغم منع المستعمر لأي نشاط سياسي بالمنطقة العسكرية فإن بعض رجال من أهل المنطقة قد كوّنوا شعباً دستورية كانت تعمل في سرية.

وفي إطار الإعداد للمعركة المصيرية سنة 1952 تكونت بقصور الجنوب الشرقي هيئة سرية لدعم المقاومة المسلحة أسندت رئاستها للناضل محمد بن ضو البوبكري ضمت ممثلين لها في كافة قصور الجنوب الشرقي :

قصر بني خدّاش : الشيخ محمد بن خليفة المحضاي
ومسعود بن بلقاسم المكارزي

قصر الخلوف : رحومة البكوش ومحمد بن خليفة
قصر أولاد بوعبيد : موسى شحم وأبناؤه

قصر المحاضنة : خليفة بن خليفة المحضاي

قصر زمّسور : علي بن بلقاسم التونلي

قصر أولاد مهدي : سالم بن صالح والكيلاي
صالح المهداوي

قصر الجوامع : أحمد بن محمد الجباهي

قصر الجديد : محمد بن علي البارودي

قصر غمراسن : محمد الإمام وحسن شلفوح

قصر تظاوين : المقطوف والصادق بالكامل وبوزيد
الزواوي

قصر مدين : عبد الله الجامعي وعمر بن المبروك
البارودي

قصر بن قردان : ضو ومنصور ضيف الله.

وقد انخرطت أغلب القصور في المقاومة الوطنية وتشكلت النواة الأولى للمقاومة فضمت مجموعة من المقاومين منهم :

الميلود بن خليفة البوعبيدي (قصر الخير)

مصباح بن صالح الجربوع (قصر المحاضنة)

مبروك الكمتر (قصر بني خدّاش)

عبد الله الجليدي (قصر بياضة)

سعيد فرشينة (قصر أم التمر)

ضو المديني (قصور مدين)

منصور المديني (قصور مدين)

وتوسعت هذه المجموعة فتشكلت خلايا جديدة مثلت أهالي أغلب قصور الجهة. وتشكلت قيادات فرعية ضمت حوالي 70 مقاوما في منطقة الأحراش قبل تسليم السلاح سنة 1954.

وكرر فعل عن حركات المقاومة والتمرد التي أبدتها قصور الجنوب الشرقي قامت السلطات الاستعمارية بعمليات انتقامية وقمعية من ذلك التكنيل بقصر أولاد دباب عند اندلاع ثورة الودارنة عام 1914 - 1915 وحرق مخزونه من المؤونة وإتلاف محتوياته.

ويصف الشاعر الشعبي المبروك حمدي هذه الملمحة في رثاءه شعيرة يقول فيها :

بصوت الوفاء صارحني

يا قصر نترجاك ما تقمحن (ما تخبّ رجائي)

يا قصر خوذ بخاطري وأنصحي

إذا نصحتني بنصحك انال إ فادة

يا قصر بنحرجك سامحني

بشترشدك بما جرت به العادة

يا قصر ما تخيني

يا قصر نسالك جاوبني

يا قصر نبحت للهدف قربني

اليوم جيت عابر نطلب في شهادة

أغلب مجالات الدعم المذكورة. وفاطمة حرم المجاهد مصباح الجربوع التي عانت صعبة أبنائها ترويع المستعمر وتهديداته وتجويعه ومحاصرته. وكذلك فاطمة حرم علي بن امحمد المحضاوي التي عملت على تمريض المجاهد مصباح الجربوع إثر إصابته بمعركة جبل ميطر.

وتعزيز بنت منصور الصيد التي كانت تنقل التمويل من قصر بني خدّاش إلى مواقع قريبة من رجال المقاومة ومبروك حرم عمّار بن امحمد المحضاوي والتي لعبت دورا محمّيا في نقل الأخبار لرجال المقاومة، وتأمين المراسلات بينهم.

خاتمة :

لقد كان انخراط قصور الجنوب الشرقي شبه كلي في الاستنفار للمعارك التي خاضتها الحركة اليوسفية ضد الاستعمار الفرنسي في شهر مارس 1957 حيث شهد قصر الخرافة أول تجمع للمتطوعين في تلك الحروب التي ساهمت بقدركبير في نيل تونس لاستقلالها التام. وفي قصور الجنوب الشرقي وقع الاستنفار بنفس الحماس للانخراط في معارك الجلاء عن الصحراء.

وهكذا قدّمت أغلب قصور الجنوب التونسي شهداء في معارك التحرير، وهو شرف يناله المجاهد في سبيل تحرير وطنه، وهذه الخسائر لم تكن بشرية فحسب بل طالعت العمران أيضا، فهدمت قصور كثيرة منها قصر بني خدّاش وقصور مدين. واليوم يبدو ضروريا إعادة الاعتبار لهذه القصور باعتبارها شواهد على معركة التحرير والنضال الوطني من أجل الاستقلال. وقد يكون من الوفاء للشهداء والمناضلين تحويل بعض القصور الباقية، مثل قصر بني خدّاش، متحفا لتاريخ الحركة الوطنية بالجنوب الشرقي.

يا قصر من وقتاش صورك مبني
وأش عشت في عمرك هناء وسعادة (1).

وإثر أحداث سوق الأربعاء (جندوبة) التي قتل فيها السيد خميس الحجري كاتب الدولة للشؤون الخارجية، أصدرت الحكومة مرسوما يقضي بمنع تحركات الجيش الفرنسي (2)، فوقع استنفار لتجنيد مجاهدين يعترضون الدوريات الفرنسية بقصر بني خدّاش ومدنين وأم التمر، فوقعت مواجهات كان أعنفها بين فريق من الثوار كمنوا بطريق غمراسن وفريق من الجيش الفرنسي يقوده الكتبتان ريمي. كما وقع كمين آخر بين مجموعة من المجاهدين يقودهم المجاهد مصباح الجربوع وقوة عسكرية قادمة من قابس تجاه قصر بني خدّاش، وبعد مواجهة بمنطقة البحيرة واصلت هذه القوة زحفها وحاصرت قصر بني خدّاش يوم 12 جوان 1952 (3).

مساهمة المرأة في دعم المقاومة الوطنية:

لقد ساهمت المرأة في هذه المنطقة بجليل الأعمال لتدعيم المقاومة الوطنية، ويمكن أن نصنف مساهماتها كالآتي:

- رحي الدقيق واليسيسة وغريبتهما تجاردا لرجال المقاومة.

- إخفاء الأسلحة والذخيرة، ونقلها من مكان إلى آخر.

- علاج جرحى المقاومة وتمريضهم.

- نقل التمويل الغذائي الذي يتبرع به التجار الوطنيون من الأسواق إلى مواقع المقاومين.

- تضليل المستعمر وأعدائه أثناء عمليات التفتيش والبحث عن رجال المقاومة.

- إعداد الطعام للثوار، ورتق ملابسهم وغسلها.

وتميزت مجموعة من النسوة في هذا المجال من بينهن فاطمة حرم رحومة البكوش التي ساهمت في

المصادر والمراجع

- عمار السوفي 2001: بني خدّاش وجيرانها عبر الحركات النضالية (من الحركة التمرّدية إلى المقاومة اليوسيفية)، تونس 240 ص.
- عمار السوفي 2006: عواصف الاستقلال، مطبعة الرشيد تونس.
- فنحي ليسي 1998: قبائل أقصى الجنوب التونسي تحت الإدارة العسكرية الفرنسية، جمع ورغمة نموذجاً 1881-1939، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان 394 ص.
- محمد العيّادي العوني 2006: قصر النخلة (رواية)، دار سحر تونس.
- محمد المرزوقي 1972: صراع مع الحماية، الدار التونسية للنشر، تونس.
- محمد المرزوقي 1975: دماء على الحدود، الدار العربية للكتاب، تونس.
- محمد المرزوقي 1988: الدّغباجي، طبعة ثالثة، مكتبة المنار تونس.
- محمد وعلي المرزوقي 1979: ثورة المرازيق، دار بوسلامة، تونس.

Louis André 1975: Tunisie du Sud. Ksars et villages de crêtes. – CNRS Paris (Publications du Centre de Recherches et d'Études sur les Sociétés Méditerranéennes, Série : Études Tunisiennes) 370p.

Macquart Emile 1905: Chez les troglodytes de l'extrême-Sud tunisien; Bulletin de la Société de Géographie d'Alger, pp550-568.

Maquart Capitaine 1937: Etude sur la tribu des Haoula (Territoire de Médenine). – Revue Tunisienne, N° 30 pp. 253-297.

ARCHIVE

<http://www.alukah.net>

- (1) أنظر النص الكامل لهذه القصيدة في هذا العدد من مجلة الحياة الثقافية ص 144.
- (2) جريدة الصباح: 1 جوان 1957
- (3) جريدة الصباح: 12 جوان 1957

قلعة نفيق النواة الأولى للتعمير بغمراسن :

مقاربة تاريخية أثرية من خلال رحلة التجاني والذاكرة الشعبية والمسح الأثري السطحي (Archéologie Extensive)

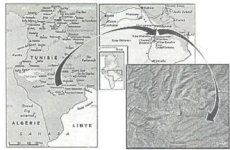
محمد الهادي غرابي(*)

أ- المصادر والمراجع :

قمنا بإعداد هذه الورقة بالاعتماد على نص تاريخي مقتطف من رحلة التجاني (بداية القرن الرابع عشر) (1) وعلى الذاكرة الشعبية من خلال الإزاحة الثقافية وما يتوفر من وثائق مخطوطة (عقود...) حول غمراسن، توصلنا إلى جمعها من السكان المحليين ونحن نتوجه إليهم بهذه المناسبة بالشكر والتقدير على تعاونهم . كما اعتمدنا على المسح الأثري السطحي للمعالم الأثرية المدفونة المتحضر البشري دون التعمق والقيام بأسبار أثرية أو حفريّة (archéologie extensive) (2).

أ- رحلة التجاني :

تونس - طرابلس 706 - 708 هـ مؤلفها أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني، قدم لها العلامة حسن حسني عبد الوهاب، نشر الدار العربية للكتاب تونس 1981 وصاحب الرحلة هو : عبد الله أبو محمد التجاني المولود بحاضرة تونس بين 670 و675 هـ الموافق لما بين 1272 و1276م في عائلة مخزنية في خدمة الدولة الحفصية، وقد كان مؤلفنا من بين كتبة ديوان الإنشاء في الإدارة الحفصية مع والده وجملة من أفراد عائلته .



الموقع الجغرافي

(*) باحث، تونس

جبل دمر من الغرب إلى الشرق في جزئه الأوسط إذ كما يقول التجاني: «... وقد يقال في غمراسن أنها من دمر» (5). والمدينة العصرية توجد في موضع متميز وهو عبارة عن حوض يتكون من مجرى الوادي الذي يتسع باقترابه من السهل إذ يفقد رسمه الخطي ليتكون من تعريجات عديدة ساهمت في خلق فضاء منبسط يتوسط الجبال المحيطة (أنظر خريطة موضع غمراسن المرافقة).



مدينة غمراسن في حوض واديهها

إن هذا الموضع شهد الحضور البشري منذ غابر العصور أي منذ ما قبل التاريخ ولقد حالفني الحظ واكتشفت خلال سنوات 1987-1988 و1995 رسوما جدارية في ثلاث محطات (ملاحي، صخرية مخفية في أعماق الشعاب) (شعبة السفري، مجلة حامد- شعبة المعرك) (6).

ولقد تواصل الحضور البشري خلال مختلف الحقبات



رسم الثور

ملاحي السفري للرسوم الجدارية

التاريخية: فنجد الحضور الروماني بارزا من خلال جملة من المعالم المحيطة بغمراسن كحصن ثلاثي تغطيته الرمال على بعد 10 كم من غمراسن وعدة معالم أخرى

وقد كان مطالعا على محتويات المكتبات الأميرية وخاصة على أرشيف الدولة الحفصية، والأهم من ذلك أن التجاني قد رافق الأمير الحفصي شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا اللجاني (3) عند رحلته إلى الجنوب التونسي سنة 706 - 708 هـ والأهم من ذلك كله أن مؤلفنا قد أقام في غمراسن واستقر بها كما ينص على ذلك في رحلته ص 204: «... فأقمنا بغمراسن بعد وصوله شهرا كاملا وارتحلنا منه ظهر يوم الأحد 18 لشهر ربيع الأول فكانت مدة الإقامة بها أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما التي هي بحساب كمال الشهر ونقصه مائة وواحد وثلاثون يوما...» وهي فترة كافية لتمكين التجاني من معرفة دقيقة للبلد ووصفه كشاهد عيان وهو ما يتجلى من خلال وصفه الدقيق للموضع وسكانه وأهله وخصوصياته المعمارية والعمرانية.

ب : الذاكرة الشعبية :

اعتمدنا في هذا المجال الروايات الشعبية المتوارثة أبا عن جد، وكذلك الوثائق الخطية العائلية (عقود المعاملات وكذلك عقود الزواج ومختلف أنواع العقود الأخرى) وهي الذاكرة المروية والمكتوبة وتوفر لنا معلومات هامة حول الطوبونيميا والأنشطة الاقتصادية والعلاقات بين وحول الطابع الدفاعي لهذا الموضع وحول العلاقات بين السكان الأصليين والعناصر الوافدة وخاصة الأعراب.

ج - المسح الأثري السطحي (Archéologie Extensive):

وهو منهج أثري دعا إلى استعماله علماء الآثار الفرنسيون والإسبان أمثال BAZZANA, Barcelo في دراسة المعمار والمعمارة الأندلسية خلال القرون الوسطى (4).

II- الموضع والموقع والطوبوغرافيا :

غمراسن هي حاليا مدينة تعد حوالي 12 ألف ساكن وهي مركز معتمدية تابع لولاية تطاوين بالجنوب الشرقي التونسي وتحتل جزئا من حوض واديهها الذي يخترق

- في أي منظومة سكنية من السكن الريفي في العصور الوسطى ؟

قلعة نفيق :

١- الموقع :

إن قلعة نفيق تحتل مصطبة من الكلس منفصلة عن الكويستا الأولى لجبل دمر وتسمية قلعة نفيق لا نجدها إلا في نص التجاني في حين أن الذاكرة الشعبية لا تحتفظ بهذه التسمية كما لا نجد أثرا لها في الوثائق الخطية التي تمكنا من جمعها، ويسمى سكان غمراسن الحاليون «جبل سيدي عرفة».



موقع قلعة نفيق

أما عن طوبوغرافيا الموقع فإن عبارة نفيق تتأني حسب اعتقادنا من جذر «نفيق» الذي أعطى فعل نفق ومنه الاتفاق أي التزود بالنفقة أو المؤونة، ومن هنا نستنتج أن قلعة نفيق كانت مخزنا لسكان الأرياف المجاورة يحفظون فيه نفقتهم من المواد الغذائية وبقية ممتلكاتهم الثمينة.

وهكذا تصبح قلعة نفيق موضعا محصنا لحزن المحاصيل الزراعية (grenier fortifié) أو أغادير كما يسمونها في جنوب المغرب الأقصى.

إن هذه المصطبة تملك حوالي 18500 م² وترتفع حوالي 330 م فوق مستوى البحر وحوالي 80 م عن مستوى حوض الوادي وهو موضع منعزل تحيط به منحدرات صخرية (falaises)، والمنفذ الوحيد لهذا الموضع هو مسرب صاعد من الجهة الغربية شديد

في المناطق القريبة : تحصينات عسكرية ، ضيعات فلاحية ، منشآت مائية يرجع تاريخها إلى العهد الروماني .

وقد تنامت أهمية هذا الموضع خاصة خلال العصور الوسطى إثر الفتوحات العربية الإسلامية حيث أصبحت غمراسن عاصمة لكامل الجنوب الشرقي التونسي كما احتضن هذا الموضع تشكل كنفديرية ورغمة .

وليحتمي البربر المستقرون بهذه الربوع من الفاتحين العرب ومن الغزو الهلالي استوطنوا القمم الجبلية وأنشؤوا وطوروا سكنا دفاعيا محصنا في كامل جبل دمر، وتحولت منطقة الجبل إلى ملجأ للسكان البربر أمام الغزاة العرب ونشأت عدة قلاع على المرتفعات وعلى حواشي الكويستا ويؤكد التجاني ذلك في رحلته بقوله : «ومسافة غمراسن تحتوي على قلاع كثيرة أشهرها قلعة نفيق بكسر النون وتشديد الفاء وقلعة حمدون، وكان منزلنا في فضاء متسع بين هاتين القلعتين . وقلعة نفيق أحصنها وإليها يلجأ جميع أهل البلد إذا حل بهم عدو أو وصل إليهم جيش».

و هكذا فإن قلعتي نفيق وحمدون تشكلان النواة الأولى للمدينة العصرية.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>



قلعة حمدون



مصطبة قلعة نفيق

- فماهي الخصوصيات الأثرية لقلعة نفيق ؟

- وفي أي صنف من السكن الريفي المحصن في الغرب الإسلامي تندرج هذه القلعة ؟

كما يقول التجاني كملجاً لأهل البلد: «وإليها يلجأ أهل البلد إذا حل بهم عدو أو وصل إليهم جيش» (7).



باب القلعة



سور القلعة

- مسجد صغير: يشرف هذا المسجد مباشرة على حوض الوادي ويحتل طرف المصطبة الجنوبي على مساحة لا تتجاوز 50 م² وهندسته المعمارية بسيطة إن لم نقل ساذجة (انظر التخطيط والصورة) والتجاني يذكر هذا المسجد: «كنت قد رأيت في أعلى قلعتهم موضعاً سموه مسجداً وليس يصلي فيه إلا رجل غريب من أهل زوارة سكن عندهم». وهذا المسجد ثم الحفاظ عليه وقام أهالي غمراسن بصيانته وهم يوافون على ذلك إلى يوم الناس هذا. وهذا المسجد اليوم هو عبارة عن زاوية أو مزار يسمى سكان غمراسن سيدي عرفة تبركا بشخصية علمية وثقافية مشهورة في العهد الحفصي أصيلة المنطقة وهو الفقيه والمفتي الشهير محمد ابن محمد ابن عرفة الورعني (716 هـ / 1316 م - 803 هـ / 1401 م) المعاصر والمنافس للعلامة ابن خلدون (8).



المسجد المشرف على حوض الوادي

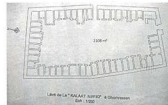
يوجد هذا المسجد قبالة الباب الرئيسي للقلعة على مسافة 31 م منه أما مقاييسه: الواجهة الشمالية 8,40 م، الواجهة الجنوبية 6,40 م، الجانبين الشرقي والغربي 5,9 م لكل منهما.

الإنحدار ومن الجوانب الأخرى منحدرات عمودية. وقد تعرضت هذه المنحدرات لعوامل التعرية المختلفة مما أدى إلى انهيار جزء كبير من حواشي المصطبة. ويصف التجاني هذا الموضع قائلاً: «... قلعة نفیق أحصنها وإليها يلجأ جميع أهل البلد إذا حل بهم عدو أو وصل إليهم جيش وهو جبل مرتفع في السماء قد سهلت فيه طرق ضيقة لا يسلكها السالك إلا على غرر وقد تدرب أهلها على سلوكها فهم يتنازون فيها تنازير العصم، وكذلك غنمهم وإبلهم يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الأدمي سلوكها إلا بالحيلة...».

ب - التخطيط والمعالم:

إن المصطبة تحمل عدة معالم:

- قصر جماعي محصن في حالة انهيار وانحطار لم يبق منه إلا أسس البناء وبعض الجدران وشكل هذا القصر شبه منحرف وهو يمسح حوالي 2108 م² وله باب رئيسي يفتح من الجهة الجنوبية. ويتكون هذا القصر من جملة من الغرف تحيط بفضاء متسع وفارغ حيث تمكنت من جمع شظايا من الفخار الإسلامي الوسيط ولكن أيضا من الفخار القديم الروماني بالإضافة إلى بعض الشظايا من الصوان مما يؤكد الحضور البشري القديم جدا في الموقع.



إن هذا القصر المخزن يحيط به سور سمكه متر. وتعتقد وجود أربعة أبراج مقامة في الأركان الأربعة من القصر (انظر المخطط والصورة). أما الغرف فمقاييسها مختلفة. إن هذا القصر بموضعه وأسواره المحصنة وجملة غرفه وساحته الوسطى بالإضافة إلى وظيفة الخزن كان يستغل



صور داخل المسجد



المسجد

كما أن الهندسة المعمارية المتقشقة والمساحة صغيرة ومواد البناء البسيطة ووجهة المحراب تؤكد أن هذا المسجد يذكرنا بمساجد جزيرة جربة ووادي ميزاب في الجزائر حيث كان المذهب الاياضي سائدا. وهكذا يتضح أن سكان غمراسن خلال القرن 14 كانوا ينتمون إلى المذهب الخارجي الاياضي المخالف لمذهب الدولة الحفصية والمخالف أيضا لمذهب التجاني نفسه، ولذلك يتهم التجاني أهالي غمراسن بأنهم ليس لهم في الحقيقة من الإسلام إلا الاسم فقط ولا نجد منهم من يعرف للصلاة إسما ولا يقيم لها رسما...“.

ويمكن أن نشير إلى سقف هذا المسجد الذي يحمل رسوما بسيطة مصنوعة من الجبس وتتكون هذه الرسوم من كتابات دينية (الله، محمد، بسم الله) وتجسيما لأرجل وأيدي وعديد الرسوم الهندسية المتنوعة تعبر قراءتها نظرا للحالة السيئة التي عليها نتيجة تراكم مادة الجير.



رسوم بالجبس على سقف وجدران المسجد

ويفتح المسجد في الاتجاه الشمالي بباب صغير علوه متر واحد وعرضه 0,55 م أما الجدار المحيط بالمسجد فسمكه 0,60 م وهو مبني بالحجارة والجبس أما وسط المسجد فهو يتكون من رواقين مغطين بقباب مبنية بالحجارة والجبس وكل رواق عرضه متر ونصف على 7 م طول على 2,5 م إرتفاع وتفصل بينها 3 فتحات على شكل مثلث قاعدته 1,60 م.

وقبالة الباب نجد محرابا مقاييسه 1,45 م على 1,45 م ويتجه هذا المحراب جنوبا. وهو مالا يتناسب مع اتجاه المحاريب العادية للمساجد أي الاتجاه الحقيقي للقبلة وهو ما يؤكد الخصوصية المعمارية لهذا المسجد وبالتالي الخصوصية المذهبية لسكان هذه المنطقة والتي يذكرها التجاني على النحو التالي : “وأهل غمراسن قوم من البربر ورغميون... وليس لأهل غمراسن ولا لأكثر ساكني هذا الجبل في الحقيقة من الإسلام إلا الاسم...“ وهم ينتحلون مذهب النكارة من الخوارج البربر...“ ويعني ذلك أن سكان غمراسن حسب شهادة التجاني هم خوارج أباضية نكارية أي يختلفون مذهبيا مع أهل السنة المالكية وهو المذهب السائد في العهد الحفصي.



المحراب

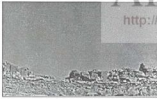
– المعالم الأخرى :

للسكن أو للمراقبة لأن التواجد في هذه الملاجئ وخاصة منها المفتحة على الشرق تمكن من مراقبة حوض الوادي وهو المنفذ الوحيد إلى موضع غمراسن المحصن طبيعياً من جهة سهل جفارة من حيث يفد الغزاة على البلدة.



الملاجئ الصخرية الموزعة للسكن والحراسة

– كما نسجل أن المصطبة التي تحمل القلعة وبقية المعالم مفصولة بصفة اصطناعية عن بقية الجبل بهوة قام الإنسان بإحداثها لمزيد تحصين المصطبة وعزلها عن المسالك المؤدية إليها من جهة الشمال : (انظر هذا في العمارة الأندلسية) (10).

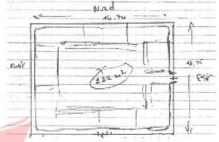


الفجوة الاصطناعية المحفورة لفصل المصطبة عن بقية الجبل

– من ناحية الشمال لهذه الهوة الاصطناعية (المرجح) الفاصلة بين القلعة وبقية الجبل نسجل وجود حائط من الحجارة يذكرنا بما يعرف بالجران الحامية Clausura الرومانية أو ما يعرف في المغرب الأقصى «حد حجر». وهي حاجز إضافي لحماية القلعة (وهذا الحاجز حسيما يتراءى لنا من خلال وفرة شظايا الصوان حوله هو حاجز قديم جدا ولعل تاريخه يرجع إلى ما قبل التاريخ أو التاريخ القديم).

– في الجهة الغربية من المسجد نسجل وجود آثار برج قد انهار ولم تبق منه إلا الأسس وهذا البرج يراقب المنفذ الوحيد للقلعة المتأتي من مسرب يرتقي من الجهة الغربية للمصطبة.

– وفي شمال القلعة نجد بناء آخر مهما يسمح 222 م2 وبابه يفتح إلى الشرق وهو عبارة عن قلعة صغيرة (انظر التخطيط).



تخطيط القلعة الثانية

– ويحيط بالمصطبة من كل جهاتها سور من الحجارة الكبيرة يغلق كل المنافذ المؤدية للقلعة. وهذا السور محصن ببرج في الحاشية الشمالية للقلعة والواجهة الشمالية لهذا البرج لازالت قائمة على مستوى 3 أمتار إرتفاع وهي تشرف من الناحية الشمالية على فجوة اصطناعية تفصل القلعة عن بقية الجبل (9).



الاسوار المحيطة بالمصطبة

– على حافتي المصطبة نلاحظ وجود ملاجئ صخرية محفورة في الجبل بقعل العوامل الطبيعية على مختلف الواجهات. وقد تم منذ أزمنة غابرة توظيف هذه الملاجئ

عائلية أمام أحواشهم الحفرية في شكل غرف بالحجارة والجبس على شكل الغرف التي كانت تكون القلعة لحزن ومؤنتهم في كل أمن وعلى عين المكان، وهكذا أهملت القلعة الملجأ وهو ما يفسر وضعها الحالي.

و مع هذا التطور تحول السكن الحفري إلى سكن أكثر تعقيدا حيث ظلت الغيران تشكل السكن بمعناه الكامل بينما الغرف المضافة أمام السكن الحفري أصبحت تشكل مكان الخزن.



حي زغدان

وهكذا انتقلت النواة الأولى للتعمير من قمة الجبل أي من المصطبة في اتجاه مواضع منخفضة نسبيا على جوانب المصطبة.

وبالإضافة إلى السكن الحفري والقصور العائلية نلاحظ إنشاء عدة معالم أخرى تطلّ عليها السكن الجماعي والحضري: مثل معاصر الزيتون والمساجد وغيرها من الخدمات الجماعية (القلالين) وغيرها من المرافق.

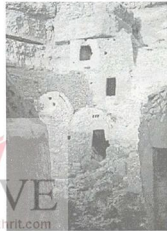


مسجد حفري

معصرة زيتون

وتحت ضغط النمو الديمغرافي مع استقرار الأمن والسلم الناجمة عن الولاءات والتحالفات التي قامت

- من حول المصطبة في مستوى منخفض يمتد سكن حفري هام يحيط من كل الجهات شرقا، جنوبا وغربا بالمصطبة. وهذا السكن الحفري يصفه التجاني في رحلته قائلا : «تؤدي تلك الطرقات إلى بيوت منحوتة في الجبل بعضها فوق بعض يسمونها الغيران. وأكثر جهاته عامرة. الجهة الشرقية وتليها في ذلك الجهة القبليّة وفي الجهة الغربية أيضا مساكن قليلة إلا أنها الآن غير مسكونة والنسور كثيرا ما تايي إليها فتصاف عليها ...»



السكن الحفري «الغيران»

و يؤكد المسح الأثري السطحي ما قاله التجاني منذ سبعة قرون. إلا أننا نسجل أن هذا السكن قد شهد تطورا هاما منذ القرن XIV يتجسد في الجوانب التالية:

- إثر التناقص والانصهار بين السكان البربر الأصليين والقبائل الأعرابية الهلالية التي أشار التجاني إلى تحالفها مع هؤلاء السكان وبعد تجاوز مرحلة الصراع والصدام بين العنصر العربي والبربري حصل إنصهار واندماج وتناقص وموالة أدى إلى وضع حد للإلتجاء إلى القلعة مما جعل سكان الموضع يتخلون عنها ويهملونها خاصة لصعوبة الوصول إليها. وفي هذه الظرفية الجديدة فضل سكان غمراسن ومن انضم إليهم إهمال القلعة الملجأ وبناء قصور

أوالسوار وتخترقها مذائب متسربة إليها منه وليس في تلك البقاع ما يرتاح إليه الخاطر سوى هذه الأبطح. وموضع منه أحساء مياه عذبة ترد عليها نعمهم وعلى هذه الاحساء نخل كثير يتغالون في أثمانه إذا تبايعوه بينهم» (11).



قلعة حمدون

وهكذا ومن خلال نص التجاني يتضح أن النواة العمرانية لمدينة غمراسن كانت منحصرة في قلعة نفق ومختلف المعالم الأخرى المذكورة والموصوفة سابقا والسكن الخفري الموجود على سفح الجبل والذي توسع وأمنه عبر القرون الموالية . والتجاني يذكر نواتا عمرانية ثانية لعلها أقدم من قلعة نفق وهي قلعة حمدون التي تحل حمة لمصطبة ثانية مقابلة للمصطبة التي تحمل قلعة نفق ويفصلهما حوض الوادي.

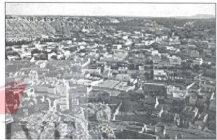
ويقول التجاني في هذا الصدد: «وكان منزلنا في قضاء متسع بين هاتين القلعتين» (12). وهذا القضاء هو المجال الذي تحتله الواحة التي تم وصفها سابقا.

– فيفيدنا الكشف الأثري والذاكرة الشعبية حول المقابر حيث يتضح أن هذه المقابر تحتل مساحات شاسعة بين القلعتين ويمكن أن نذكر: مقبرة شعبة البلد ومقبرة البشر ومقبرة سيدي سالم ومقبرة مغبي حمدون في الجنوب في سفح قلعة حمدون.

إن هذا البحث يبقى سطحيًا جدًا ويتطلب مزيدًا من التعمق والتدقيق ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بتنظيم حفريات أثرية.

بين السكان الأصليين الذين أسلموا وتعربوا تدريجياً وبين الأعراب الذين إستقروا وتصاهروا مع البربر وانصهروا فيهم نشأ مجتمع جديد وتوسع النسيج العمراني على حافة الجبل وأصبح يحتل مساحات كبيرة سواء حول الجبل الحامل لقلعة نفق: في حي زغدان وحي بوغالي والبشر. أو أيضا على حافة الجبال الغربية: وخاصة في شعبة البلد وشعبة العوينة...

وفي القرون الموالية والعصر الحديث (القرون XVI, XVII, XVIII, XIX) واصلت المدينة اتحداها في الاتجاه حول الوادي. وتحتل اليوم المدينة العصرية حوض الوادي.



مدينة غمراسن العصرية تحتل حوض واديها

– في عهد التجاني أي في القرن XIV كان السهل أو الحوض الفيضي للوادي وفي عمق الشعاب يشكل المجال الزراعي للأهالي، وكان سكان غمراسن يمارسون في هذا المجال الحصب نسيباً الزراعات السقوية لتأمين وتوفير الحاجيات الغذائية. ويقول التجاني في هذا الصدد وتحف بهذا الجبل مزارع فيها نخل كثير لا يرى أحسن من رطبه وبها آبار ليست بالكثيرة يسقون منها بالغراغيز. وأكثر مزارعهم الذرة التي يسمونها القصب وسبب قلة آبارهم مايعانونه في حفرها من شدة الأرض وصلابتها حتى أن الرجل ليملك في حفر البئر العام والعامين بحسب كبر البئر وصغرها وقوة اعتمادهم في ري الأرض إنما هو على ما يتحدر من سيول تلك الجبال في وقت الأمطار، فإنها تجتمع في أبطح حصباء متناسبة وتربة بيضاء كافورية تحرق بمزارعهم إحداق السور

ج - تاريخ الموقع

من المعالم في الأندلس (14) فإن هذا النوع من العمارة يجب أن تتوفر فيه الشروط الأساسية التالية:

• أن يكون في موضع مختلف عن المجال المستغل فلاحيا وبعبدا عن السكن.

• أن يتميز بتحصينات طبيعية هامة كأن يحتل مكانا مرتفعا تحيط به منحدرات صخرية وعرة.

• يجب أن يكون الموضع فسيحا بحيث يتحمل إيواء كل سكان المجال المحيط بالقلعة وهو ما يدعو إلى اختيار مصطبة صخرية منبسطة.

• إضافة إلى ذلك لا بد من مراعاة سهولة الوصول إلى الموضع بالنسبة للسكان وممتلكاتهم وماشيتهم.

• توفر مخزون كاف من الحبوب والماء.

• إن موضع قلعة نفيق يستجيب تماما إلى هذه الشروط:

• إن موضع القلعة يوجد على مصطبة صخرية مفصولة عن بقية الكريستا، وتشرف هذه المصطبة من جهة الشمال على حوض وادي غمراسن والذي ظل إلى عهد قريبه جالفا فلاحيا لا يختلف في شيء عن البساتين الأندلسية وعن الواحات المروية.

• الحماية الطبيعية: إن تضاريس هذه المصطبة المرتفعة عن محيطها المجاور بـ 30 مترا يشكل تحصينا طبيعيا ويجعل الوصول إلى الموضع يكاد يكون مستحيلا.

• المساحة: إن مساحة المصطبة فسيحة نسبيا تغطي حوالي هكتارين مما يمكن من إنشاء عدة معالم وبتترك فضاءات مفتوحة هامة.

• الوصول إلى الموضع: إن المنحدرات الصخرية المحيطة بالمصطبة تكاد تكون عمودية ومع ذلك استطاع الأهالي إنشاء مسلك على الجانب الغربي يؤدي إلى القلعة وفي هذا الصدد يقول التجاني: «... وهو جبل مرتفع في السماء قد سهلت فيه طرق ضيقة لا يسلكها السالك إلا على غرر وقد تدرب أهلها على سلوكها فهم يتنازون

يذكر التجاني الموقع وإقامته فيه فيقول: «كانت مدة الإقامة بها أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما التي هي بحساب كمال الشهر ونقصه مائة وواحد وثلاثون يوما». ويضيف التجاني: «ثم ارتحلنا صباح يوم الثلاثاء السادس من ذي القعدة (706 هجري) فلم نزل نسلك بين هضاب متسعة وشعاب متبعة إلى أن وصلنا إلى موضع إقامتنا منزل غمراسن. ويضيف في سياق آخر «وارتحلنا منه ظهر يوم الأحد الثامن عشر من شهر ربيع الأول (سنة 707 للهجرة)».

و يتضح أن قلعة نفيق وهي النواة الأولى لمدينة غمراسن وقد شيدت قبل القرن الثامن للهجرة.

نجد أيضا معلومات أخرى في نص التجاني تمكننا من تأريخ أقدم لإنشاء هذه القلعة. فهو يؤكد «...وفي الجهة الغربية أيضا مساكن قليلة إلا أنها الآن غير مسكونة والنسور كثيرا ما تأوي إليها وتجتمع فتصاف عليها...» (13)، مما يعني أن القلعة ومحيطها أقدم بكثير من تواجد التجاني بغمراسن أي بداية القرن الثامن الهجري.

و لتدقيق تاريخ القلعة وتعمير الموقع لا بد من القيام بأسفار وحفريات شاملة للموضع. كما أن دراسة للتفحار الملتقط في الموقع وكذلك شظايا الصلوان والمرآة المنقوشة للمعمار وطرق البناء ومواده ومقارنتها بما يوجد في جبل نفوسة بليبيا ومواطن أخرى في جنوب المغرب الأقصى والجزائر، وكذلك بشرق الأندلس تمكننا من التوصل إلى أن تعمير الموقع قد تم منذ عصور غابرة وتؤكد كذلك استمرار هذا التعمير عبر العصور المولية. وهذه الفرضية يمكن إثباتها اعتبارا إلى أنه غير بعيد عن قلعة نفيق اكتشفت محطات ما قبل تاريخية توجد فيها رسوم جدارية يرجع تاريخها إلى العصر النيوليتيكي.

III - الاشكاليات التي يطرحها هذا المعلم:

هل إن هذا المعلم هو عبارة عن ملجأ/ مخزن (grenier-refuge) ؟

حسب الأثري أندريه بازان الذي درس هذا النوع

وبالإضافة إلى ذلك نسجل استغلال الملاحي الصخرية التي حفرتها عوامل التعرية على جوانب القلعة ثم استغلالها كمراكز مراقبة وحراسة ثم غلقها ببناء يؤكد استعمالها.

ومن الناحية الشمالية وراء الفجوة الفاصلة بين المصطبة وبقية الجبل نسجل وجود جدار من الحجارة يشبه الكلاوزورا الرومانية أو «حد حجر» في المغرب الأقصى. وبشكل معلما دفاعيا متقدما.

و هكذا يتضح أن قلعة نفيق كانت محصنة بشكل كامل من الطبيعة بالارتفاع ولكن أيضا نتيجة المجهود الكبير للأهالي الذين لم يتركوا أي طريقة لحماية قلعتهم.

إن غياب مواصل الماء داخل أسوار القلعة يشير إلى أن تزويد القلعة بالماء يتم انطلاقا من الآبار السطحية الموجودة في حوض الوادي والتي يذكرها التجاني: «... و بها آبار ليست بالكثيرة يستقون منها بالغراغيز (...) وسبب قلة آبارهم ما يعانيونه في حفرها من شدة الأرض وصلابتها حتى إن الرجل ليمكث في حفر البئر العام والعامين» إشارة إلى المجهود الكبير للتوصل إلى الماء (أكثر من 50 مترا).

الخاتمة

إن قلعة نفيق كما يصفها التجاني وحسب المعلومات التي يوفرها لنا المسح الأثري السطحي انطلاقا من الذاكرة الشعبية يمكن أن تندرج ضمن منظومة التعمير والتهيئة والسكن التي ازدهرت خلال القرون الوسطى في هذه المنطقة الجبلية من جنوب إفريقية: جبل دمر.

إن هذه المنظومة المعقدة والتي تتكون من عناصر مختلفة: القلعة الملجأ، السكن الحفري والمستغلات الفلاحية المروية في حوض الوادي هي منظومة متكاملة تأقلمت كلياً مع طبيعة هذا المجال الوعر (طوبوغرافيا، مناخيا وأمنياً...).

يمكن أن نفترض أن قلعة نفيق هي المرجع العمراني لما نشأ بعدها من قلاع ملاحي في كامل الغرب الإسلامي انطلاقا من إفريقية إلى المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى إلى شرق الأندلس.

فيها تنازي العصم وكذلك غنهم وإبلهم يسلك البعير منها مسالك لا يستطيع الأدمي سلوكها إلا بالحيلة». • والمسلك الرسمي للقلعة موجود إلى اليوم وإن أصبح أكثر صعوبة نظرا لإهماله وقلة استعماله. وللوصول إلى القلعة يتطلب ذلك حوالي ربع ساعة.

التحصينات الاصطناعية :

إن الجدار الخلفي للغرف المكونة للقلعة الملجأ يشكل سورا سمكه متر واحد وهو مختلف عن بقية جدران الغرف المقطرة بـ 40 سم كما نلاحظ في الأركان الأربعة للقلعة 4 أبراج.

على حافة المصطبة نسجل وجود سور ثان بني بالحجارة الكبيرة وهذا السور الخارجي يغلق كل المنافذ المؤدية للقلعة.



غلق المنافذ إلى المصطبة

في الجانب الشمالي نجد برجاً عاليا يشرف مباشرة على فجوة اصطناعية حفرها السكان لغزل المصطبة عن بقية الجبل، وجدار هذا البرج من الناحية الشمالية لا يزال قائما على ارتفاع يبلغ 3 أمتار.



البرج

- 1) رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، طرابلس تونس، 1980، ص 184-204
- 2) Miguel BARCELO, 1988, La arqueologia extensiva y el estudio de la creacion del espacio rural, Barcelona.
- 3) أبو زكريا اللحياني شيخ الموحدين والأمير الحفصي الذي رافقه التجاني في هذه الرحلة.
- 4) André BAZZANA, Maisons d'Al-Andalus : Habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, Madrid, 1992, Casa De Velazquez.
- 5) رحلة التجاني، ص 185
- 6) Mohamed Hédi GHOURABI, 2009, Les peintures rupestres de Ghomrassen, in XXIII Valcamonica Symposium 2009, Capo di Ponte 28 ottobre-2 novembre.
- 7) رحلة التجاني، ص 185
- 8) Saâd GHRAB, 1996, Ibn Arafa et le Malikisme en Ifriqiya aux VIIIe/XIe siècles, Tome second, Publications de la Faculté des Lettres de la Manouba.
- 9) André BAZZANA, Maisons d'Al-Andalus : Habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, Madrid, 1992, Casa De Velazquez.
- 10) André BAZZANA, Maisons d'Al-Andalus : Habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, Madrid, 1992, Casa De Velazquez.
- 11) رحلة التجاني، ص 186
- 12) رحلة التجاني، ص 186
- 13) رحلة التجاني، ص 186
- 14) André BAZZANA, Maisons d'Al-Andalus : Habitat médiéval et structures du peuplement dans l'Espagne orientale, Madrid, 1992, Casa De Velazquez.

المقاربة التاريخية لقصور الجنوب الشرقي : مثال قصر زناتة

علي الشاذلي (*)

تطاوين يشرف على قرية المزطورية نسبة إلى بني مستيرين
البربرية (1).

- الموضع: يتموضع قصر زناتة على ربوة منبسطة
على ارتفاع 350 م تقريبا ويشرف على واد زنداق أحد
روافد واد فيتي.

- طريق أو (طريق) بلوغ المعلم: يتم بلوغ القصر عبر
الطريق السهلة المعبدة والرابطة بين تطاوين ورمثة وقصر
أولاد سلطان وفي مستوى وسط قرية المزطورية يقع
الانعطاف نحو الغرب لصعود المنحدر في اتجاه قصر
الدغاغة ثم الاتجاه شمالا حيث نجد القصر.

- الظرفية التاريخية: بني القصر في القرن الخامس
الهجري (2) وهي ظرفية مميزة في تاريخ إفريقية حيث
تميزت بانتهاء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بأزمة
هزّت أركان البلاد وبداية القرن الخامس الهجري الذي
افتتح بولاية طويلة للمعز بن باديس 406-454 هـ فكان
الازدهار الاقتصادي من ناحية والتطاحن القبلي (بين
زناتة وصنهاجة) والمذهبي (بين الشيعة والسنة) من ناحية
ثانية إضافة إلى مجيء القبائل العربية: بنو هلال وبنو

- اسم المعلم: قصر زناتة ويطلق عليه محليا القصر
«القديم».

- مدلول التسمية: زناتة اسم القبيلة البربرية المعروفة
بانتقالها في المغرب الإسلامي من المغرب الأقصى إلى
المغرب الأوسط ثم إلى إفريقية في إطار الصراعات
القبيلية والمذهبية، أما التسمية المحلية «القديم» فتعود إلى
وجوده بمنطقة تحوي ثلاثة قصور أخرى مؤرخة للفترة
الحديثة وهي قصر الدغاغة جنوب زناتة وقصر العوايد
شمالا وشمالا أيضا قصر أولاد عون.



واجهة قصر زناتة

- الموقع: يقع قصر زناتة على خطتي 32° و 50'، 90
شمالا و 10° و 28'، 03 شرقا على بعد 10 كلم جنوب

(*) باحث، تونس

• مكونات المعلم :

- الوحدات الأساسية : يتميز قصر زناتة بمدخل بارز يشبه
مدخل الرباطات (6) ويتضح إنشائها إضافة الجزء البارز
عن المدخل الأصلي المتناسق مع الجدار الخارجي الشرقي
كما أحدث سقفة بين القوس الأصلي والقوس المضاف وهو
ما يسمح بتجهيز المدخل ببايبن خارجي وآخر داخلي، كما
أن نقشة التاريخ يمكن تأويلها على هذا النحو إذ تقول في
سطرها الأول عملت هذه السقفة ما يعني إمكانية رفع
تأريخ القصر إلى ما قبل 486 هـ في طباقه الأرضي.

الإضافات : الجزء الأصلي للقصر هو الطابق الأرضي بدون الجزء البارز للمدخل إذ بني الجدار الخارجي قبل بناء الغرف بشكل جماعي (7) كما تضح لنا من خلال عدم توافق التقسيمات للجدار الخارجي مع فضاء بعض الغرف ثم وقع اقتسام الفضاء المنحصر داخل هذا السور الخارجي.



عدم توافق فضاء الغرفة مع التقسيمات للجدار الخارجي



المدخل البارز بالجدار الشرقي والبناء
المعترض لدعم الجدار في جزئه الجنوبي

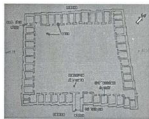
سليم في 443هـ 1051م لتأديب الزبريين الصنهاجيين الذين تنكروا للفاطميين فكانت مدن الطوائف بكبريات المدن بافرقية (3).

كما شهد جنوب إفريقيا اندلاع الصراع أيضا بين أبابية زناتة وصنهاجة فأوضحت المجموعات الزناتية محاصرة من عدة جهات، الزيريون في الشمال والهلاليون في الشرق وصنهاجة الثام في الغرب مما اضطر بعض الزناتيين إلى اللجوء للمناطق الجبلية وبعض الواحات، وفي إطار عمليات المد والجزر للقبائل بالمغربين الأوسط والأقصى وإفريقية فإن تعدد عمليات الارتداد لبعض القبائل من المغرب الأقصى باتجاه المغرب الأوسط وإفريقية مثل قبيلة رياح وزناتة جعل فرعا من زناتة يتجه نحو جبال جنوب شرق إفريقيا منطقة التماس من الناحية الشرقية كمالا وتأسيس هذا القصر على ما يبدو في منتصف القرن الخامس الهجري عندما أصبح جبل دمر عرضة لغارات البدو (4).

- تاريخ المعلم: لم يرد ذكر قصر زناتة بالمصادر الأدبية بل عثرنا على ذكر بئر زناتة لدى الإدريسي في منزله المشاف (5) عند الحديث عن الطريق المؤدية إلى طرابلس من الناحية الجبلية وتؤرخ نقيشة السفيينة لأواخر القرن الخامس الهجري (486 هـ) وهو ما يعني بناء القصر قبل هذا التاريخ كما سبق عند تناول مدخل القصر.

- الوصف :

• تخطيط المعلم: يميل شكل تخطيط قصر زناتة إلى التربع بمداخل يتجه إلى الجنوب الشرقي (القبلة) تتوسطه ساحة فسيحة.



تخطيط القصر

بعد الانقسام شرع في بناء غرف الطابق الأرضي قبل 486هـ ثم أضيف إليه الطابق الأول والجزء البارز من المدخل والسقفة.

النقائش والزخارف: تتخذ النقائش والزخارف من الآتية والأقواس موضعا مناسباً لها وقد جاءت النقائش التاريخية إلى جانب ذكر المَعْد وصاحب الدار والمزخرف... إضافة إلى الزخارف الخطية والنباتية والهندسية والنجمة والخمسة (8) ... وقد وردت كل هذه الزخارف والنقائش بشكل بارز وفق الطريقة المعروفة وقتذاك، مع العلم أنّ تكثر النجمة السداسية في عديد المواضع والمواقع لا يعني البتة أنّ المعمار على ملك يهودي كما يذهب إلى ذلك العديد من الملاحظين لهذه الزخارف إذ ندحض هذا التوجه بصفة أثرية حيث يقترن تواجد هذه النجمة السداسية إلى جانب الآيات القرآنية واسم النبي محمد (ص). وهذا يفترض أنّ هذه النجمة لم تكن ينظر إليها بمنظار ما بعد نشأة الكيان الصهيوني أو أنّ الزخرفة تمّت على يدي يهودي كما هو الشأن للحلي الموجود بالجهة، فكل هذا الحلي يحوي النجمة السداسية وهذا ما لا يصحّ إن قلنا إنّ كل السكان الذين يتسولونه هم يهودي إن تكثر النجمة المثمنة والسداسية. أكثر من الخماسية لسهولة رسمها هندسياً مربعان منحرفان يدها أو مثلثان متقابلان على عكس النجمة الخماسية التي تتطلب دقة في الاتجاهات أثناء رسمها والعودة بالخط إلى نقطة البداية.

- موضع النقشة: باطن العقد الخارجي الجنوبي للمدخل

- نوعية الخط: خط نسخي بارز خال من الأخطاء

- عدد الأسطر: ستة أسطر

وانطلاقاً من النقشة الثانية بالغرفة الرابعة يمين المدخل يتأكد بناء القصر خلال القرن الخامس الهجري.

- موضع النقشة: باطن القيو الشمالي للغرفة عدد 4 يمين المدخل.

- نوعية الخط: خط نسخي بارز خال من الأخطاء

عدا السطر الرابع على أربع مائة.



عملت هذه السقفة في
يوم الجمعة في شهر
الله ربيع الآخر سنة
خمس وسبعين وأربع
مائة بعد موت النبي
عليه السلام

نقشة تاريخ السقفة (ظلت النقشة بالغرفة على حالة جيّدة إلى سنة 1974 حسب ما تبرزه الصورة في كتاب أندري لويس).

- عدد الأسطر: خمسة أسطر.

- موضع النقشة: باطن العقد الجنوبي للمدخل الخارجي.



عملت هاذو البيت يوم
الخميس من شهر الله الامجد
عام [...] أربع
وثمانين (كذا) على أربع مائة بعد
وفاة
النبي عليه السلام من التاريخ

نقشة تاريخ الغرفة

- نوعية الخط: خط نسخي به أخطاء، السطر الرابع والسطر السابع والسطر الثامن.

- عدد الأسطر: تسعة أسطر

- موضع النقشة: باطن القوس الغربي لمدخل الغرفة بالجدار الجنوبي.



هذا
حين
كتب
هـ (كذا) ل ذا
الكتاب
معد عند
يحيى (كذا) بن داود
[معد] (كذا) بن الياس
رحمه الله

نقشة المَعْد باطن العقد
الجنوبي للمدخل الخارجي

– مواد وطرق التشييد :

– مواد البناء: (استعملت الحجارة الضخمة والمتوسطة بأسفل الجدران ثم التدرج في تصغير الحجم مع الارتفاع لضرورة إنشائية، مع استعمال مادة جبس الأفران كملاط (Mortier) وليقة (Enduit).

– طرق البناء: أما طريقة البناء فاعتمدت طريقة التنضيد وفق ما يسمى الأيوس كوادراتوم (OPUS QUADRATUM) (9) في الجدار الخارجي للقصر مع اعتماد التقيية في كل الغرف والأقواس عند المداخل واعتماد الإسناد للجدار بالركن الجنوبي الشرقي. أثناء البناء تركت حجارة ناتئة كأكتاب للصعود إلى غرف الطابق الأول الذي لم يبق من غرفه سوى بعض الأجزاء من الجدران التي تميزت بسمكها أكثر من 50 سم بأسلوب التثنية والتضليع لغايات متعددة منها إتمام بناء الجدار الخارجي، إذ بهذه الطريقة يمكن أن يقوم عدد من البنائين بالعمل بعدد أقسام الجدار في نفس الوقت ومن ناحية أخرى كلما طال الجدار وجب وضع دعامات أو إسناد خارجي وهو ما لم يقع الالتجاء إليه نتيجة هذه الطريقة. وثالثاً إذا طال الجدار وهو متماسك يمكن أن يكون عرضة للانحطاط، وهنا إذا حدث انهيار فيكون للجزء لا للكل فبنكون عملية إعادة البناء أسهل وأسرع وبأقل التكاليف.

لاحظنا بلوغ هذه الأضلع 4م ودم في الأركان مع العلم أن عدم التطابق بين أجزاء الجدار يتراوح بين 0,09م و0,10م وذلك بغاية دفاعية باستعمال الشباب قتمثل هذه الزوايا أركان إطلاقة باتجاه الأعداء والحماية منه.



آثار ما تبقى من الطابق الأول والركام بالركن الجنوبي الغربي من الساحة



الجزء الغربي من قوس المدخل الجزء الشرقي من قوس المدخل

– نوعية الخط: خط نسخي بارز به أخطاء. السطر الأول هاذا والسطر الثاني ابن والسطر الثالث وبقا.

– عدد الأسطر: ثلاثة أسطر.

– نص النقشة : هـ(كذا)إذا بيت

المعز (كذا) ابن يغسن

ويبق(كذا)ا وبه د[...]



زخارف خطية وهندسية مع تكرار كلمة الحق



زخارف هندسية بقبو غرفة بالجدار الغربي

مستويات الحفر حيث من المفروض أن يتواجد الجامع لا كما بينَ أيوب (11) بأن الغرفتين رقم 4 و5 يمكن أن تلعبا دور الجامع وهذا مستحيل لأن المساحة والارتفاع والشكل لا يسمح أي منها بأن تؤدي الغرفتان ولو جزئيا دور الجامع (12).

- المقابر: امتدت المقبرة على المنبسط الشمالي القريب من الجدار الشمالي للقصر.

- الطرق والمسالك: القصر على الطريق التجارية القديمة عبر واد زندق والتي سميت بالطريق الغدامسي في فرعها الشرقي.

- المنشآت المائية العامة: البئر بالناحية الجنوبية نقرت في طبقة كلسية صلبة إضافة إلى غنى منطقة المزطورية بالآبار السطحية التي ربما كانت مستغلة واستعملت الآن في الزراعات السقوية.

ملحقات خاصة :

- ملحقات ذات استغلال مشترك : عثرنا على المعصرة المصقورة في الربوة من الناحية الشمالية وعلى قطعة حجارة المدرس «الحوزة» شمال شرقي القصر نعتقد أنها لم يتم الاستغلال.

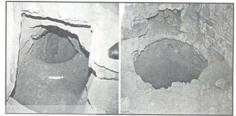
- ملحقات ذات استغلال فردي : امتدت الغيران في مستوى أخفض من مستوى أرضية القصر (13) تحت الطبقة الكلسية السمكة ارتبطت بالقصر عبر أنفاق تحت أرضية تفضي إلى الغرف أو ساحة القصر.



نفق بساحة القصر

كما لاحظنا أثاريا من خلال حزام حجارة قليلة السمك أن الجدار الخارجي لطابقي القصر لم يبين دفعة واحدة لا كما ذهب إلى ذلك عبد الرحمان أيوب الذي رأى أنه من الممكن أن تكون تقاسيم الجدار الخارجي هي حدود الملكية (10).

- طرق الحفر: العمودي في المطامير و بداية الأنفاق ثم الحفر الأفقي في الدواميس والغيران المحيطة بالقصر من الناحية الجنوبية والجنوبية الشرقية ..



مطمور بغرفة الجدار الغربي نفق (داموس) في مستوى غرفة بالجدار الغربي

- الترميمات: بداية من أواخر الثمانينات للقرن الماضي انطلقت ترميمات هذا القصر وتواصلت إلى ما بعد سنة 2000 ولكن ما تجدر ملاحظته أن هذا القصر رغم الأهمية التاريخية التي يتفرد بها بالجهة فإن الترميم لم يكن بالمستوى العلمي المطلوب إذ لما طالت عملية الترميم وقع إنهاء هذه الأشغال بشكل مفاجئ إذ أصبحت الغاية إنهاء الأشغال وليس ما يسفر عنه الترميم فكانت التضحية بغرفتين بالجدار الغربي وإدخال الآلة الحفارة وشاحنة لرفع كل تلك الأنقاض وهو ما أطلقنا عليه «المكتنة للترميم السريع».

- وضعية المعلم الحالية: وضعية حسنة لكنها مشوهة علميا.

- الاستغلال الحالي: مغلق.

- ملحقات المعلم :

- ملحقات عامة :

- الجوامع: لم نثر على آثار الجامع خارج القصر في

وكما يمكن للقصر أن يلعب دورا عسكريا حاميا ودفاعيا
إذ القصر محصن ولا يمكن دخوله سوى من المدخل
الذي أضيف إليه الجزء البارز فزاده تحصينا. ومدخل
القصور بصفة عامة تحكمها قوانين جد صارمة في عملية
الفتح والغلق وخاصة زمن الخوف (14).



ما تبقى من آثار معمار الساحة

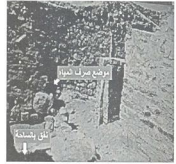


مشهد الترميم بالركن الجنوبي الغربي

إضافة إلى الدور الأمني والحماي للأفناق الرابطة
بين بعض الغرف والساحة من جهة والغيران المحيطة
بالقصر بالإضافة إلى وظيفة الربط مع بقية القلاع
الأخرى شرقا القلعة وتشتوت وبني وشين وتازغدانث
ومتاز وشمالا تونكت وقطوفة و بني بركة وبرورمت
... أما الوظيفة السياسية فنظروا لحيأة القصر وتشبهه
بالعمارة الرسمية يمكن أن يكون للقصر دور سياسي
لقبيلة زناتة على الأقل في فترتها الأولى عند التفكك
السياسي الذي عرفته إفريقية وتعدد الكيانات السياسية
والصراعات القبلية والمذهبية.

بالركن الجنوبي الغربي تركت فتحة لتصريف مياه
الأمطار.

كما تمتد الجسور في شكل مستغلات فلاحية أحكمت
استغلال كميات الأمطار .



قناة صرف المياه
خارج القصر
بالركن الجنوبي
الغربي

- وظائف المعلم :

للقصر وظائف متعددة أهمها الوظيفة الاقتصادية
المتشعبة في الحزن كما تبيننا ذلك أثريا من خلال تخطيط
وتقسيم الغرف التي لا تسمح للسكن كما ذهب إلى
ذلك عبد الرحمان أبوب، إذ السكن في الغيران بالجهتين
الجنوبية والشرقية كما يلعب القصر دورا
السكان بالمنشآت مثل الجامع ومعاصر الزيتون والسوق،



تقسيم إحدى الغرف قصد الحزن

خاتمة:

على نظير ولكن الزمان لم يرحمه فألت أجزاء منه إلى الخراب، فلا الترميم أسعفه بالدقة العلمية بوضعه في المتلة المكافئة لأهميته التاريخية والثرائية ولا الذين تناولوا القصور بالدرس قَدَرُوهُ حق قدره، بل منهم من لم يتناوله بالمرّة من أمثال عبد الصمد زايد في كتابه «عالم القصور الصحراوية». وهذا ما جعل مجمل قصورنا تشكو عجزنا و قصورنا.

لهذا القصر أهمية تاريخية لمحافظته على تأريخه نقاشيا وتاريخه معماريا في ظل صمت المصادر الأدبية عن هذا النوع من المعمار في مثل هذه الجهة، فجاء قصر زناة يروي تاريخه بما حافظ عليه من معمار وتخطيط شبه فريد بالجهة مع تأريخ لم نعثر له إلى حد الآن

المصادر والمراجع

- أيوب (عبد الرحمان)، «من قصور الجنوب التونسي: القصر القديم»، النقاش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس 1988.
- الإدريسي، المغرب العربي من كتاب زهرة المشتاق للإدريسي (في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي)، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد الحاج صالح طبعه بلجيكا.
- الثابتي (علي)، عمارة القصور بالجليل الأبيض (جرب تطاوين) في الفترة الوسيطة، ش. د. م تحت إشراف الدكتور محمد حسن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 2006.
- حسن (محمد)، المدينة والبادية في العهد الحفصيّ، تونس 1990.
- حسن (محمد)، الجغرافيا التاريخية من القرن الرابع إلى القرن التاسع (XV م)، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، الطبعة الأولى بتغازي - ليبيا 2004.
- الشماخي (أبو العباس احمد)، كتاب السير، دراسة وتحقيق الدكتور محمد حسن، 3 أجزاء، دار المدار الإسلامي، 2009.
- الزواري (محمد)، القصور والفلاخ بالجنوب الشرقي التونسي، دراسة أثرية وتاريخية (ش، د، م)، إشراف الدكتور ناجي جلّول، كلية الآداب منوبة 2004.
- Guide J.Gandini, Pistes du SUD TUNISIEN à travers l'histoire, édition 2000.
- Louis (A), Tunisie du sud Ksours et villages des crêtes, Paris 1975.
- Zaided (A), Le monde de Ksours du sud-est Tunisien, Tunis 1992.

- (1) حسن (محمد)، المدينة والبادية في العهد الحفصي، تونس 1999.
- (2) حسن (محمد)، الجغرافيا التاريخية لأفريقية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، جانفي 2004 ص 30.
- (3) الشماخي (أبو العباس أحمد)، السير، دراسة وتحقيق محمد حسن، المدار الإسلامي، مارس 2009 ج I ص 28-30.
- (4) نفسه، ص 46.
- (5) الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزعة المشتاق، حققه ونقله إلى الفرنسية محمد حاج صادق، بلجيكا، ص 162.
- (6) الزوّاري (محمد)، القصور والقلاع بالجنوب الشرقي التونسي، دراسة أثرية وتاريخية (ش، د، م)، إشراف الدكتور ناجي جلّول، كلية الآداب متونة 2004 ص 25-38.
- (7) حسن (محمد)، الجغرافيا التاريخية لأفريقية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، جانفي 2004 ص 52.
- (8) André LOUIS, TUNISIE DU SUD KSARS ET VILLAGES DE CRETES, Paris 1975 P 100.
- (9) الزوّاري (محمد)، نفسه، ص 25-38.
- (10) الثابتي (علي)، عمارة القصور بالجليل الأبيض (جنوب تطاوين) في الفترة الوسيطة، ش د م تحت إشراف الدكتور محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس 2005-2006، ص 54، ص 122.
- (11) أيّوب (عبد الرحمان)، «من قصور الجنوب التونسي» الفصل القديم، النقاش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس 1983 ص 47-90.
- (12) الثابتي (علي)، عمارة القصور بالجليل الأبيض (جنوب تطاوين) في الفترة الوسيطة، ش د م تحت إشراف الدكتور محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس 2005-2006، ص 54، ص 122.
- (13) André LOUIS, TUNISIE DU SUD KSARS ET VILLAGES DE CRETES, Paris 1975 P 100.
- (14) حسن (محمد)، الجغرافيا التاريخية من القرن الأول إلى القرن الخامس (VII-XV)، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، الطبعة الأولى بنغازي - ليبيا 2004 ص 52-59.

قصر بني بركة : سوق وصندوق

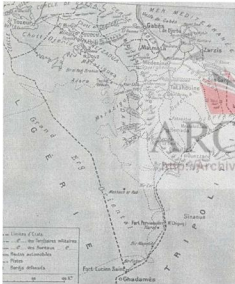
منصور بوليفة (*)

1 - الموقع : 32°، 53' 25 / شمالا

ربما يختلف هذا القصر عن القصور التي تنتشر في منطقة ورغمة عموما. إذ كان مؤسسة اقتصادية واجتماعية وسياسية في ذات الوقت. فهو من عمارة الناس. وكما قال فكثور هوغو : «إن العمارة القديمة هي عمارة الأمة».

يقع هذا القصر على بعد خمس كلم من مدينة تطاوين الحالية. (خريطة التراب العسكري) وكان في الماضي سوقا يجمع كل الفعاليات التي يتطلبها السوق بالمعنى الحديث، إذ إن موقعه الاستراتيجي أهله أن يكون كذلك، فهو يقع على الضفة اليسرى من وادي «زنداك = زنداق» العتيد طريق القوافل إلى القارة الإفريقية وطريق العبيد من القارة (القافلة الغدامسية) وربما كانت تحري به عمليات التبادل في هذا الصنف من التجارة. ومن هنا اشتق الاسم، إذ أن مصطلح «بركة» في اللغة البربرية يعني الطريق أو السوق وإزعم أن سوق ألبركة في العاصمة من نفس المصطلح، رغم الرأي القائل بأنه من برك بمعنى أناء. وقد بني هذا القصر على تل شاهد، شأنه في ذلك شأن مجموع قصور الجبل الأبيض والجبال المجاورة (جبل دمر وجبل نفوسة).

(*) باحث، تونس



موقع بني بركة في الخريطة

يصفه الجغرافي الفرنسي «ليون بارفنيكار» بقوله : «قصر بني بركة الجائم على جبل يصعب الوصول إليه» (1).

سي عبد الله، وفتح لها باباً آخر ما يلي غرفة منصور بوليغ...» (2).

وربما كان السوق أيضاً في حماية الزاوية الأكبر في ورغمة، وهي زاوية عبد الله بوجليده، التي تقع قبالة وغير بعيد من هذا القصر وقد كان لهذه الزاوية احترام خاص في الأوساط الشعبية، علماً أن غالبية الجليدات وهم أهل الزاوية المباشرين لهم ممتلكات ثابتة في هذا القصر. وقد نصت القوانين العرفية في الجهة على عدم المساس بأمالك أبناء الزاوية (الفقراء الجليدات) مهما كانت (3).

2 - السكان :

يرجح أن سكان منطقة بني بركة من البربر، بحكم الموقع والجوار. وقد خالطهم آخرون قدموا من المناطق المجاورة بهدف مجاورة السوق. فهناك من قدم من «تافزين» (جبل نفوسة) وآخرون من الجبل الأبيض، وكذلك من سهل الجفارة... وكونوا جماعة حضرية متساكنة متباينة، ولكي يقع تجاوز مفهوم المرجع، اتفق الجميع على التخلي عن الألقاب، مفضلين لقباً جامعاً كان على غاية من الواجهة حيث أصبح الكل يلقب «بالبركاوي» (إتلاف قبلي). ومن هنا اصطلاح على المكان: (بالوطن) وعززوا موقع المواطنة فقالوا: (من وطن ولا من بطن).

هكذا تنصهر ألقاب التفرقة في اللقب الموحد، كقولنا «ألسوسي أو القيرواني» حيث تموت حزازات النفوس.

هذا الإتلاف خلق إيلافاً تكون بموجبه مجتمع يؤمن بالتعايش السلمي ينظم حاله تلقائياً، (تقول عرفية بني بركة، إن من لم يستشر الكبار الذين يحفظون بالنقمة، ويتصرف تلقائياً هو ساقط من الجماعة) (4).

3 - قصر بني بركة :

لقد اهتمت الناس في هذه الجهة تلقائياً إلى استغلال التلاح من الطبيعة، قبل أن يكتب المعماري المصري

إذ أن للقصر طريقاً واحداً فقط للدخول والخروج، وهناك باب واحد يفضي إلى داخل القصر بابه يتجه إلى الجنوب الشرقي والصعود إليه فيه مشقة حتى عن طريق الطريق الرسمي، فهو في مكان حصين لا تطاله يد المعتدين وإن رغبوا، لأن كاف الجبل مشغول بالسكان الذين يتولون حمايته من النهاية المحتملين رغم أن هذا السوق لم يتعرض إلى اعتداءات ولم نثر على ما يفيد تهديده في الوثائق المتوفرة. والاعتداء الوحيد الذي تتناقله الرواية الشفوية هو، عملية سرقة قام بها مجهول من داخل القصر استهدفت أحد الأشخاص من



وادي زنداق

الجليدات... (رواية شفوية متواترة). فهذا القصر كان يحظى بالاحترام نظراً لكونه سوقاً اجتمعت فيه مصالح متساكني الجهة، الذين لهم غرف خزن فيه بالتملك، من هنا جاءت المصلحة في عدم المساس به، إذ أن أمنه هو أمن الجميع في النهاية. أما الخلافات الناشئة بين الجيران، فإن مردها إلى القضاء، ففي وثيقة مؤرخة عام 1271هـ / 1854م.

تقول: «الحمد لله، يشهد المكرم إسماعيل بن مسعود المقرئ البركاوي، بالجليل الأبيض، بأن المرحوم منصور بن علي بوليغ من القبيل كان في قائم حياته يغير وينكر على المرحوم المرباط سي عبد الله بن عبد اللطيف يعرف «أبولفاه الجليدي» في شأن الغرفة الكائنة بقصر بني بركة. كان بابها يفتح للجوف فسد

4 - وظائف هذا القصر :

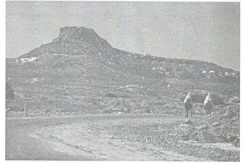
ربما كان قصر بني بركة، من القصور القليلة في جهة ورغمة، الذي تجاوز التعارف عليه، في أن القصور أغلبها مخصص للخرن . ففي هذا القصر نجد وظائف متعددة، الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . إذ اعتبر قصبة الإقليم كله دون منازع . ذلك قبل أن يتحول محور الطريق التجاري صوب الظاهر، فأصبح بذلك سوق الدويرات أكثر أهمية يشهد على ذلك حجم المعاملات المسجل مع «غدامس» (5).

إن القصر في حد ذاته مؤسسة اجتماعية، سواء من حيث اتفاق الفرقاء على فكرة إنشائه، أو باعتباره نواة توحدت عنده المصالح، فأسس للتكامل في ترابط اجتماعي لا مثيل له، تفصح عن ذلك حقوق الملكية المتكاملة عموديا . إذ نجد غرقا يعلو بعضها بعض الملكيات مختلفة، (الدورني، الجليدي، الجبالي...) والكل يتصرف في ملكيته عن اعتراض ولا نزاعات إلا ما كان خاضعا للحقوق الشرعية . كما يمثل مدخل القصر مكانا مفضلا للجلوس والتفاهم بين أصحاب العقارات في هذا القصر الذي تعود ملكيات غرف الخرن فيه إلى الجماعات المتساكنة في منطقة الجبل الأبيض سواء المستقرين أو الرّحل.

الكل مؤتمن على أرزاقه، فهناك أولا حارس القصر مهمته مراقبة الدخول والخروج ويسكن داخل القصر، كما يتكفل كل جار بحماية جاره، تكافلا اجتماعيا من باب حفظ الجار . هذا بالإضافة إلى مبدأ العمل الجماعي المعروف «بالرعاة»، فالكل يشارك بما عنده من جهد وحيوان، والكل في الجهة يعرف أن الحيوان القادر على قهر الجبل هو «الحمار» باني الحضارة.

أ - القصر الصندوق :

ربما كانت الوظيفة الأساسية للقصور في ورغمة، وأيضاً في جبل نفوسة، وامتداداً على كامل البلاد المغاربية جنوب الأطلس، هي صناديق خزن في



قصر بني بركة

حسن فتحي 1900 - 1989 كتابه: (العمارة من أجل الفرقاء).

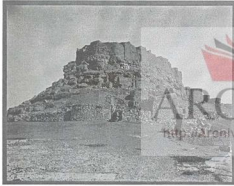
والعمارة هي إحدى الإبداعات الإنسانية لإشباع الحاجات. ومن هنا فإن القصور التي تتوزع على أراضي ورغمة، وامتدت ضمن شريط أطلسي سمّه ما شئت (خط الأصالة، خط الفقر، خط التحدي خط الهوية...) . فعند عفيف بهنسي : «إن البحث في هوية العمارة، هو بحث في هوية الأمة» هكذا كانت ثقافة الانسان قبل حدوث القطيعة، التي دفعت الناس إلى العبث بجوهر الاستمرار، فسادت ثقافة الإسمنت، ومنها امتدت الصلابة إلى القلوب، فانتهى الوفاق وتم الطلاق. ولم يفهم الناس أن القول بالحدادة لأجلها يعني نسف التاريخ. وإن امتلاك أسس التفكير الأوربي دون وعي، ربما استهدف الحقيقة القائمة لفائدة أخرى، ليست بالضرورة أفضل.

إذ أكد يوما كل من «نيتشه وهيدغر» : «إن الفكر الأوربي ليس هو الأكثر حقيقة. (لقد اضطرنى الحال لفتح هذا القوس، لأن القصر الذي نتحدث عنه، قد تعرض الآن إلى عنف الحدادة إذ استهدف إلى هجمة تخريب من طرف أهله، رغبة منهم في القطع مع الماضي، بعدما استتب الأمن، ولم تعد الحاجة تقضي بخزن المحصول في القصر كما كان الحال سابقا).

في منطقة الجفاره المعروفة بقصور الجفاره، باعتباره
قصرا للخن. ولكن أين التفرد؟

ب - القصر السوق :

عش النسر كما يصفه أحد ضباط الشؤون الأهلية
والذي يقول : «إن من أول جولاتي الضرورية في
المنطقة زيارة قصر بني بركة، وبعد الوصف. أنطلق إلى
شنتي، حيث ألتقي بشخص يدعى «غوبش» وهو رجل
اشتغل طباحا لدى أحد الدبلوماسيين في تونس، وفي
روما عند سفير لدى الكرسي الرسولي، وتؤكد الوقائع
أنه قدم «الكسكسي» بطريقته على المائدة البابوية (7).



قصر بني بركة متماسك

وقصر بني بركة الذي يقع في الجنوب الشرقي من
تطاوين الحالية، تقول عنه بعض المصادر إن الغرف
المتوفرة فيه كانت حوالي 400 غرفة بينما يذهب السكان
المحليون إلى أن عددها 750 غرفة موزعة على شوارع
داخلية تقضي جميعها إلى ساحة خلفية، تشبه الساحة
العامة (المخطط) هذه الساحة التي قال عنها «أندره لوي»
لأشك أنها كانت هي السوق (8).
ربما كانت سوق الحبوب والمواد الزراعية الأخرى،

الأساس. شيدت الجبلية منها على مواقع حصينة
صعبة المثال، مثال قصور «بني خدش» (قصر بني
برزال). والتي لا يقل حجم المعانة في تشييدها، عن
حجم عتاء بناء الأهرامات في مصر. وهي أفضل
منها من حيث الوظيفة الاجتماعية. وقد علق أحد
السياح الإيطاليين أخيرا وهو على أطلال قصر بني
بركة بقوله : «إننا في إيطاليا نفتخر بالبرج المائل،
وأين هو من هذا المعلم».

وقصر بني بركة كانت له هذه الوظيفة حيث تخزن
به كل مفردات الملكية الخاصة بصاحب الغرفة. سواء
كانت مواد غذائية أو متعلقات أخرى زائدة عن الحاجة
أو ثمينة، إذ يشترط في السكن الحقة كالخيمة، أو الكوخ
الذي يعتمد في إنشائه على جريد النخل ويسمى محليا
«نخشا». أو المسكن الغاري بالنسبة للمستقرين الجبلية.
ويحكم انقطاع الكل إلى العمل والغياب لفترات مختلفة
عن المسكن فإنه عادة مايكون مخصصا لوظيفة النوم
فقط، وكل شيء في الصندوق.

فعلى سبيل المثال: تتحدث وثيقة عن محتويات أحد
قصور الجهة، تقول : «وما وجدنا أيضا بحفرة خزنة»
الكائنة بقصر «بوزيري» في المكان : (مخلا جديدة)
ويشته خيالي، ووجد حولي أبيض، ووجد حولي أحمر،
وزوج محارث، وسروال كتان أبيض، ووزنه، مفرون
قديم، وخمس مناجل، ومحجمة، وفأس بوريشه
وخابية بها قدر قد عظمة ذراع زيت، موالية لغم الغرفة
المذكورة، وقالب صابون، وكبوس جديد، وزوج بلغة
لبيسه، وزوج حلك بها زريعة خضاره داخل صندوق،
وزوج قصاع، وزوج ركائز بيت وقرطاس بيت، وقد
قفيز شعير بخنابة الغرفة المذكورة).

بتاريخ 24 جمادي الأول عام 1312هـ. الموافق 22
نوفمبر 1893 م (6).

وهكذا نلاحظ أن كل شيء في غرفة القصر. ففي هذه
الوظيفة لا يختلف قصر بني بركة عن غيره من القصور
البنوينة على جبهة كويستا الظاهر أو تلك التي توزعت

الحجازية التي تسع سبع لتر، (J07). ربما كان اختلاف سعة الجرة يعود إلى إنتاج الزيت. والدليل على حجم الإنتاج عدد معاصر الزيت في بني بركة إذ تبلغ (08) منها ما به معصرتان في نفس المحل. وثمة دليل آخر ربما يصح أن ينهض دليلاً على أن القصر كان سوقاً حافلاً، وهو تسمية الأشخاص «بالباحي» نسبة إلى الوية الباجية، التي تفوق سعتها الوية تونسي، وبالتالي الوية بركاوي، وهذا الاسم متداول في هذا السوق، وهو نادر خارجه.

ولكن هل أن وظيفة هذا السوق اقتضت على الحزن والبيع والشراء فقط ؟ أم أن وظائف أخرى كانت تجري به إدارية وسياسية ؟

ج - القصر إدارة :

لم تقتصر وظيفة السوق على المعاملات التجارية في منطقة الجنوب الشرقي فحسب. (هناك وثائق تتحدث عن معاملات مع جهة توجان في شراء شعير، بتاريخ : 1194هـ / 1779 (10).

إذا نجد أنشطة أخرى تجري في هذا السوق إدارية وسياسية من ذلك أن الجهاز الشرعي كان يوجد في هذا السوق، والتقاضى يتم أمام القاضي الحفني، وهو دليل على أن هذا السوق كان مرتبطاً بالمخزن، وربما كان هذا السوق مركزه المتقدم في الجنوب والوحيد خلال مرحلة معينه من التاريخ.

ففي وثيقة مؤرخة عام 1237 هـ / 1822م نقرأ ما يلي :
سمع كاتبه من الحرة المسماة فاطمة بنت عبد الله، وبه عرف غيوش البركاوي، أنها تشرح على جميع من يشتري من شقيقها نصر بن عبد الله المذكور ملك أو عقار أو غير ذلك من متخلف أبيها المذكور، فهي باقية على حقها فيه. طال الزمان أو قصر. وحضر زوجها منصور بوليفه، ووافق عليها في الشرخ. (هنا نلاحظ الولاية على الأموال).

كما توجد وثائق أخرى تحمل توقيع العدل «فلان» في بني بركة (11).

ولكن يستبعد أنها كانت تستقبل الحيوانات، فهناك في أسفل القصر ساحة تسع لحولي خسين مترا، ربما كانت مخصصة للحيوانات، ذلك أن الحيوانات لاتصعد إلى القصر، إلا إذا كانت محملة بالمواد الفلاحية، ليتم التفريغ ثم الخروج على عجل. والدليل على أن الحيوانات لاتصعد إلى القصر ما ذكره ضابط الشؤون الأهلية عندما زار هذا القصر حوالي شهر أفريل عام 1891، إذ طلب منه مرافقه أن يترجل عند الساحة التحتية، لأن الطريق ضيق ولم يعد سالكا للخيل، وقد شك الضابط في هذا القول بالتأكيد. إذ أنه لا يدرك بحكم ثقافته أن القصر مكان مقدس فيه النعمة والحياة، من ذلك أن حيوان الكلب لا يدخل القصر، والحراسة تولاه «الحارس» الذي يشترط فيه الاستقرار، والأمانة، والشجاعة. كما استخف لاحقاً بالرواية القائلة بأن القصر قد تعرض إلى حريق في العام الماضي، والسبب هو الفار الذي تالعب بأعواد الثقاب (9).

ومن الدلائل التي تؤكد أن هذا القصر كان سوقاً معتمدا في منطقة الجبل الأبيض، تلك المكابيل والموازين الخاصة به.

ARCHIVE
http://Archivbeta.Sakhrit.com

وجدت في شارع بني بركة



فهناك «الوية بركاوي» التي تساوي نصف الوية «تونسي» وتدعى أيضا «ثمنه». وهي المكبال الذي مازال معتمدا في سوق تطاوين إلى الآن وتدعى «ويه لنا». والغالب على الظن أن هذا القصر كان سوقاً حافلاً خلال القرنين «السابع عشر والثامن عشر». (عرف هذا السوق الاقتصادي النقدي، إذ تم العثور على قطعة نقدية يعود تاريخها إلى أول المصكوكات التي ضربت في الإيالة التونسية (*).

أما مكبال الزيت المعروف «بالجرة» فالجرة بركاوي تساوي اثني عشر لترا (12). بينما يعتمد «الحرازة» الجرة

بركه في الحاضرة يتبعون مشيخة غمراسن (12). - من هنا نفهم تفسير توقيع «بوغنيم» في بعض الوثائق - ربما كان الانتساب إلى سلطة المخزن مبكرا، سواء في الحجة أو بالهجرة المبكرة هو الذي أعطى لهؤلاء فكرة واضحة في كيفية التعامل مع السلطة. وقد ظهر ذلك جليا في الموقف من الفتنة الباشية حيث التزم بنو بركة بالصف الحسيني انسجاما مع الشرعية، واندماجا في الموقف العام الذي اتخذته ورغبة حينئذ.

إلا أنه عند إعلان الحماية اختلف الموقف، إذ انهارت الشرعية أصلا، ولا مجال للمكابرة أو الهروب. وهكذا اختار بنو بركة المهادنة ضمن وفود الجبالية التي اتجهت إلى أم التمر في 1882 معلنة استعدادها لدفع الضريبة لقاء السلامة وكان للجبالية ذلك. ربما عرفوا مبكرا أن فرنسا هي الباي الجديد (13). وقد ظهر ذلك جليا حيث تطاولت عليهم «الجزمة» الفرنسية، شأنهم شأن غيرهم من سكان المنطقة.

ولم يقتصر الدور على الجهاز القضائي فحسب، بل نجد الشيخ الذي يباشر أمر الناس وفق الأطر التي تعمل بها السلطة السياسة، كتولي أمر قبض الجبابة «حقوق الباليك»، إذ تتحدث وثيقة مؤرخة في 1271هـ / 1783م، تقول: «أشهد على نفسه الشيخ، علي بن أحمد غبوش البركاوي، إنه خالص في ديت، محمد بن علي بوليفه البركاوي الذي عليه للسلطنة. خالص في ديت العامين الذي قبل التاريخ وهو عشرون رايلا. ولا شك أن هذا الشيخ كان يحظى بتأييد الباي.

ربما كان الاتصال بالمركز، هو الذي جعل من بني بركة يتجهون إلى الحاضرة للعمل في فترة مبكرة. ففي وثيقة مؤرخة في 1277هـ / 1860م نقرأ:

«الحمد لله وكُل المكرم الأجل القاري محمد بن المرحوم عبد الله الشويرف، وبه شهر الحماص صناعة، ابن عمه سالم بن منصور بوليفه، ليرجع له زوجته الحرة تاووزين بنت إبراهيم بن رمضان من القبيل». وكان بني

ARCHIVE

الهوامش والإحالات

<http://Archivebeta.sakhr.it.com>

1) Pervinquier / L : la Tripolitaine interdite - GHADAMES - Paris 1912 P:41 ;

(2) الأرشيف العائلي،

(3) الأرشيف العائلي.

(4) الأرشيف العائلي.

5) Martel : A : les confins saharo- tripolitains de la Tunisie : P.U.F, 1965 p : 506 .

(6) وثيقة مخطوطة، أمديني بها الأستاذ سعد الشيباني .

7) Croquis Tunisiens":souvenirs d'un officier des affaires Arabes" ;Tataouine": 1891 .

8) André :L.Tunisie du Sud :Ksars et villages de CRETES :p. 43.

9) Croquis Tunisiens :p 137.

(10) الأرشيف العائلي.

(*) عملة نحاسية وجدت في شارع بني بركة مكتوب على أحد الوجهين : «تونس في 1254-1838» وعلى الوجه الثاني «السلطان محمود» أشهر محمد باي الثاني 1855-1859 م وهو أول من ضرب السكة باسمه من الذهب والفضة والنحاس، قرأ على يد الفقيه أبي محمد حسن التطاوتي.

(11) الأرشيف العائلي.

12) Nomenclature et répartition des Tribus de Tunisie :p.272 :

13) L'occupation de la Tunisie. 1881- 1882. service des renseignements De la division d'occupation. P /233 .

ترميم القصور وتجربة توظيفها سياحيا : مثال قصر زَمُور

زايد الهمامي (*)

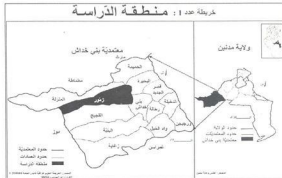
بني خدّاش مثالا للقصور الجبلية بالجنوب الشرقي التي وقع ترميمها ومحاولة توظيفها سياحيا. وسنقدم هنا عرضا لهذه التجربة رغم أنها مازالت في بداياتها الأولى.

1 - منطقة جبلية وعرة ومشاهد طبيعية جذابة :

تتبع عمادة زَمُور إداريا معتمدية بني خدّاش من ولاية مدين (أنظر الخريطة عددا1).

تمثل السياحة بالجنوب الشرقي قطاعا اقتصاديا هاما ومتناميا. ومنذ السّنين، تمّ تطوير السياحة الشاطئية. لكن هذا الإقليم يحتوي على مؤهلات تراثية كبيرة يمكن أن تساهم في تنوع العرض السياحي من جهة، وكذلك في تطوير سياحة ثقافية تعتمد أساسا على ما تزخر به المنطقة من معالم ومواقع. وتمثل القصور الحثي هذه المؤهلات التراثية وهي تعتبر عن خصوصيات معمارية وحضارية متميزة. ويمثل قصر زَمُور الواقع بجبل دشر من معتمدية

خريطة عدد 1 :
منطقة الدراسة



(*) باحث، تونس

- يتمثل العامل الأول في أن هذه المنطقة تصنّف ضمن المجالات التي يصعب فيها العيش. فلا المناخ ولا التضاريس يمكن أن يساعدا على توطن السّكان. كما أن الأزمة التي يعاني منها القطاع الفلاحي قد أدت إلى تنامي حركات التّزوج والهجرة الرجالية.

- العامل الثّاني يخصّ منطقة الدّراسة. حيث أنّ زّمور تعرف بالعدد الهامّ لمهاجريها المتواجدين في البلدان الأوروپية الذين يعودون في فصل الصّيف. ولو وقع القيام بتعداد عام للسّكان في هذا الفصل لوجدنا نسبة ذكورة أعلى بكثير ممّا يتمّ تسجيله في بقية فصول السنة. هذا العامل يمكن أن يؤثر إيجابيا على نموّ السياحة. فسكان هذه المنطقة هم الأكثر انفتاحا ويمكن أن يتقبّلوا أكثر من غيرهم من سكّان المعتمدية توطين نشاط سياحي. ويعتقد الكثيرون من السّكان المحليّين أن السياحة يمكن أن تكون حلاً لتحقيق التنمية المحليّة والحدّ ولو بصفة نسبيّة من ظاهرة التّزوج والهجرة (3).

تمثّل المشاهد بمنطقة زّمور نتاجا ثقافيا هاما ويمكن اعتبارها متوجا سياحيا ذا جودة عالية. فمن خلال الهضبة الموجودة في مدخل القرية مثلا، يمكن الاستمتاع بجماليّة المشهد الجبلي المتكوّن من التّيهات المائية للسفوح والجبال المعروفة بـ«الجسور» وكذلك التلال الشّاهدة التي أقيمت فوقها القصور والقلاع.

وتمثّل النباتات الطّبيّة والعطرية (مثل الأكليل والزّعتر) مكوّنا مهمّا للبيئة الجبلية. ويمكن استعمال هذا النوع من النباتات عن طريق استخراج مشتقات ومستحضرات يمكن ترويجها لدى السياح.

2 - قصر زّمور: الخصائص المعمارية

تعرّف القصور على أنّها «بنايات متكوّنة من عدد كبير من الغرف المتراكمة أين تخزن العائلات محاصيلها. هذه الغرف تفتح على ساحة داخلية عادة ما تكون صغيرة ويكون الباب هو المخرج الوحيد من القصر». وإذا تجاوزنا هذا التعريف الهندسي نجد أنّ القصر «مؤسّسة»

وتمسح العمادة حوالي 70 كم²، أي أنّها لا تمثّل سوى 5،16 % من المساحة الجمليّة لمعتمدية بني خدّاش (1). لكن رغم صغر المساحة، فإن لهذه المنطقة موقعا متميّزا يمكن استغلاله في مجال التّهيئة السّياحية الجبلية.

المصدر: خريطة طبوغرافية 1/200000.



خريطة عدد 2: موقع قصر زّمور

يتضح لنا من خلال خريطة التضاريس أن منطقة الدّراسة تقع في قلب سلسلة جبال مطماطة دمر. كما نجد قرب قصر زّمور أعلى نقطة في هذه السلسلة الجبلية: قلعة مزنون (682 م) (2). من حيث المناخ، تقع منطقة الدّراسة تحت تأثير المناخ شبه الجاف، فكثيّة التساقطات لا تتجاوز 200 مم/سنة. أمّا درجات الحرارة، فهي تتميّز بمدى حراري مرتفع فصليا وسنوياً.

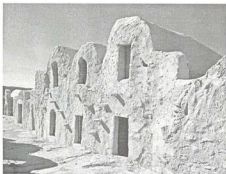
وحسب تعداد السكان لسنة 2004 فإن عدد سكان عمادة زّمور لم يتجاوز ألف نسمة أي ما يمثل أقل من 4 % من سكان معتمدية بني خدّاش رغم قدم التعمير في هذا المكان. كما أن نسبة الذكور لا تتجاوز 42 % وهو ما يعود إلى عاملين رئيسيين:

قائمة الذات. أما اليوم فالقصر يمثل تراثا يعبر عن الهوية والانتماء، فنجد أن العديد من القرى والتجمعات السكانية قد أسندت لها أسماء قصورها.

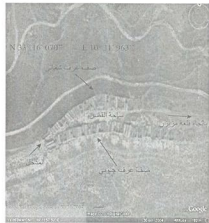
جدول 1: حالة الغرف بقصر زمور

المصدر: بحث ميداني شخصي، ماي 2009

3. ترميم القصر: من المحافظة على التراث إلى التوظيف السياحي

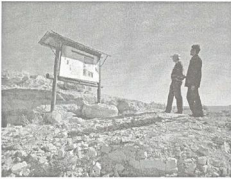


جزء مرثم من قصر زقور



يُصنّف قصر زُمُور ضمن القصور الجبلية، إذ أنه يجاور قلعة مزرنج التي تُمثّل أعلى نقطة في سلسلة جبال مطماطة دُمُر. يتميز هذا النوع من القصور بموقع دفاعي صعب البلوغ، كما أنّ توسّع البناء يتمّ وفق ما توفّره التضاريس من مجال. وقد استمدّ القصر حرمة لفترة طويلة من الولي الصالح سيدي محجوب الزُمُوري الذي يوجد ضريحه بقلب القرية.

يتكوّن القصر من صقّين: صقّ شمالي وآخر جنوبي يفصل بينهما مدخل غربي لا يتجاوز عرضه مترين ولا توجد به سقيفة. أمّا من الجهة الشرقيّة فالقصر مفتوح



لوحة إرشاد قرب قصر زُمور

كان للفاعلين المحليين دور كبير في الحرص على صيانة القصر والمحافظة عليه، فلولاهم لتحوّل هذا المعلم إلى أكّادس من الحجارة كما هو الحال للعديد من القصور بالمنطقة. مرّت عملية الترميم بمرحلتين: الأولى كانت تهدف إلى المحافظة على القصر باعتباره اراث الأجداد، أمّا الثانية فكانت بغاية تحضير القصر للاستغلال السياحي. وقد أشرف المعهد الوطني للتراث على عمليّة الترميم بمرحلتها، حيث قام بتكليف خبراء مختصين في مناسبتين (سنة 2007 وسنة 2008) لزيارة قصر زُمور وتشخيص عمليّات التهيئة الضرورية.

جدول 2 : عمليّات ترميم قصر زُمور

المرحلة	سنة التّدخل	عمليّات التّدخل	الميزانيّة	الأطراف المتدخلة
الأولى	2007	23 غرفة + تهيئة مدخل القصر	3.000 د	المجلس الجهوي لولاية مدنين- معتمدية بني خدّاش-المعهد الوطني للتراث-جمعية الشباب بزُمور.
الثانية	2008	32 غرفة + أبواب متهوكة+تخليّف الغرف من الداخل	30.000 د	تمويل كامل من وزارة الثقافة والمحافظة على التراث.
المجموع	---	55 غرفة مرمّمة	33.000 د	---

المصدر: جمعية الشباب بزُمور بحث ميداني، ماي 2009

جدول عدد 3: التجهيزات السياحية المتوفرة حالياً بعمادة زُمور

التجهيزات السياحية	الخدمة المقدّمة
إقامة عثمان	نزل سياحي (غير مصنّف)
مطعم البدوي	مطعم سياحي
إقامة جعفر	دار ضيافة
منزل صابر	دار ضيافة

المصدر: بحث ميداني شخصي، ماي 2009

يبرز البحث الميداني أن منطقة الدّراسة تحتوي على أهم التجهيزات السياحية المتواجدة بمعتمدية بني خدّاش.

تجدر الإشارة في هذا الإطار إلى الدّور الكبير الذي لعبته جمعية الشّباب بزُمور في ترميم القصر. حيث أنّها مثّلت المحرّك الرئيسي لعمليّات الصّيانة وتنسيقها، كما أنّها التزمت بالسعي إلى التوظيف السياحي للقصر.

4 - قصر زُمور: تجربة التوظيف السياحي

إن اختيار زُمور لتكون محطة سياحية مستقبلية لم يكن وليد الصدفة. بل كان خيارا مدروسا. هذه المنطقة تحتوي على مقومات تؤهلها لاستقبال السّائحين أكثر من غيرها من المناطق.

قصر زَمُور وقصبة مانيط والجامع الأرضي (هو مسجد ذو هندسة خصوصية وقع حفره في التربة الطينية)، وقلعة البرزلية وقلعة مززن التي من خلالها يمكن مشاهدة كامل سهل الجفارة وصولاً إلى الساحل.

- محطات تمثل التراث الطبيعي: الجسور (مثال شعبة بومنافس)،

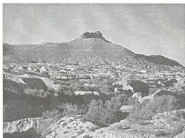
- وأخيراً واحة واد الخلف التي كانت في عهود سابقة تتبع خط الليماس الرّوماني وتزوّد منطقة جكنيس بالمياه.



قصبة مانيط



الجامع الأرضي



مشهد مجاور لقصر زَمُور

كما أن عقلية سكّان هذه المنطقة يمكن أن تتقبل النشاط السياحي أكثر من غيرها من سكّان باقي مناطق الاعتمادية باعتبار أن عددا لا بأس به من مهاجري بني خدّاش هم أصيلو عمادة زَمُور. وتخلق عودتهم الموسمية خلال فصل الصيف ديناميكية كبيرة في المجال رغم حرارة الطقس. أما المشاهد الطبيعية في جبل زَمُور، فيمكن أن تمثل متنوّجا سياحيا ذا جودة عالية.

لم يكن الهدف من الاستغلال السياحي للقصر تجاريا، فالهدف الأساسي يتمثل في خلق ديناميكية اقتصادية بالمنطقة تمكّن من إيجاد مواطن شغل للسكّان. هذا الخيار يأتي في إطار «إستراتيجية تنمية من الأسفل» أو ما يعتبر عنه «بالتنمية الأمر كزية». في هذا السياق كانت محاولة التوظيف السياحي للقصر تندرج في إطار مشروع تنمية مندمجة سمي «المحافظة وتأمين الأصناف المحلية بزَمُور» والذي وقع تمويله من قبل برنامج المنح الصغرى للصندوق العالمي للبيئة. يهدف هذا المشروع أساسا إلى المحافظة على الأصناف الحيوانية والزراعية المحلية بالمنطقة عن طريق تدعيم المتروجات المحلية وإرساء سياحة مسؤولة تساهم في تحقيق التنمية المحلية بالمنطقة.

يحتوي هذا المشروع على أربعة أهداف أساسية: تتوجه الأهداف الثلاثة الأولى إلى السعي للتوعية بأهمية المحافظة على الثروات الطبيعية وحماية المحيط وتنمية زراعات لإنتاج المواد المحلية مثل «الرب» و«الغربوز». لكن الهدف الأخير هو الذي يمثل محور اهتمامنا، حيث أنّه يتمثل في أن تكون زَمُور منطقة سياحة ثقافية وايكولوجية (6). لتحقيق هذه الغاية تمّ التركيز على إعداد مسلك سياحي يضم محطات يقع اختيارها بدقة لتبرز التراث الطبيعي والعماري لهذه المنطقة.

يمثل قصر زَمُور العمود الفقري لهذا المسلك السياحي وذلك لما للقصور من شهرة عالمية ومن قدرة على جلب السائحين. ويمكن تقسيم محطات المسلك السياحي لثلاث أنواع :

- محطات تمثل التراث المعماري: ونقصد بذلك

بالبحوث الميدانية وتحديد محطات المسلك. وفي مرحلة ثانية تم إعداد لوحات تعريف وإرشاد. كما تم القيام بعملية التهيئة اللازمة لبعض المواقع حتى تكون أكثر سلامة للزائرين.

وفي نفس الوقت قامت الجمعية بمتابعة أعمال الترميم والصيانة التي تمت بالقصر. إضافة لذلك، فقد تم توفير حمير وجمال لنقل السياح.

وعلى المستوى المحلي وقع إبراء موافقة السكان المحليين الأهمية اللازمة، وهو ما سيمكن من تجاوز المشاكل التي برزت عند القيام بمحاولات توظيف سياحي سابقة للقصور. ومنذ البداية، تم القيام بعملية جرد لجميع ممتلكات قصر القصر. كانت العملية صعبة في بعض الأحيان نظرا لغياب حجج الملكية لدى بعض المالكين. لكن في الأخير اتفق الجميع على النقاط التالية (9):

- التفاوض كتابيا لجمعية الشباب الزموري لاستغلال القصر في النشاط السياحي. كما صرح المفوض بإعفاء الجمعية من دفع معين الكراء مدة خمس سنوات بداية من 01 جانفي 2009 مقابل أن تلتزم بالترميم على القصر وإصلاحه وتجهيزه لممارسة النشاط السياحي.

- لا يسقط حق ملكية الغرف مهما كانت الطريقة بعد الإبراء على هذا التفاوض.

- بخصوص التصرف في الموارد المالية المتأتية من الاستغلال السياحي للقصر: تتولى الجمعية استثمار هذه الموارد للمساهمة في تشجيع بحث مشاريع تنمية بالمنطقة.

- كما تم الاتفاق على تكوين هيكل يمثل مالكي الغرف يتولى مهمة التصرف في عائدات الاستغلال السياحي للقصر.

هذا العمل القاعدي كان مصحوبا بجهود على المستوى الإقليمي والوطني للترميم بقصر زمور. هذه



واحة واد الخلف

أظهرت التجربة الميدانية للمسلك أهمية المتوج السياحي الذي يمكن تقديمه للزائرين. لذلك نتج الاقتناع بأهمية السياحة كحل لتحقيق التنمية الاقتصادية بالاعتماد على الموارد والطاقت المحلية.

إن اختيار هذا النوع من المسالك يعتبر عن توجه جديد في الميدان السياحي. فهذا «المسلك الجبلي في المنظومة الجبلية بزمور» (الاسم الرسمي) يعطي للمشي على الأقدام معاني جديدة ويعتبر عن مفهوم الحياة النشطة التي تحترم المحيط الطبيعي والاجتماعي (7). بذلك يمكن تصنيف هذا النوع من المسالك ضمن السياحة البيئية التي تعرف على أنها «نوع من السفر الموجه في المجالات الطبيعية الذي يساهم في المحافظة على المحيط وعلى جودة المجتمعات المحلية» (8).

أما الحرفاء المستهدفون فهم أساسا السائحون الثقافيون الذين يختلفون تماما عن السائحين الذين يأتون عن طريق وكالات الأسفار لارتداد المناطق الساحلية بأثمان زهيدة، كما أنهم يتميزون بالنشاط والسعي إلى المعرفة والاندماج وسط المجتمعات المستقبلية للتعرف على نمط عيشها.

كانت فكرة استغلال القصر في النشاط السياحي نتيجة مبادرة من جمعية الشباب بزمور. فباعتبارها جمعية تنمية، وقع التفكير في مشروع يضمن الاستغلال الأمثل للمؤهلات التراثية لتنمية الاقتصاد المحلي. وبعد الدراسة اللازمة للمشروع، تم القيام

نوعية السائحين ذوي القدرة الشرائية العالية التي لا تستهلك إلا الإنتاج المحلي.

- النقطة الثالثة تتعلق أساساً بالبنية التحتية اللازمة لممارسة النشاط السياحي بالمنطقة. فالتجهيزات السياحية غير كافية لاستقبال السياح. وحتى النزول الموجود حالياً يستوجب الرفع من مستوى الخدمات التي يقدمها. ويجب التفكير أيضاً في تكوين يد عاملة واعية بأهمية السياحة البيئية والثقافية. «وتكوين الأدلاء السياحيين يمثل تحدياً كبيراً حيث يجب اختيارهم حسب مؤهلاتهم العلمية ومعرفتهم العميقة بالمواقع التي تقع زيارتها» (10).

إن تجاوز هذه المصاعب والتحديات يمثل أهم مرحلة في توظيف القصر سياحياً. لكن ذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا كانت الإرادة قوية لتحقيق تنمية سياحية حقيقية بالمنطقة.

خاتمة:

كما تقدم نضع لنا أن تجربة التوظيف السياحي لقصر زمّور هي مبادرة جديدة قامت بها جمعية تنمية. وهذه التجربة لا تدخل من طرفة ومن إضافة إلا أنها لا يمكن أن تعرض باعثن سياحيين مختصين ومهنيين ذوي خبرة في مجال السياحة البيئية والثقافية، وهو ما يستلزم تضافر جهود عديد الأطراف والتنسيق بينها لتحقيق انطلاقة لسياحة من صنف جديد لها مؤهلات البقاء والنمو وتلاءم مع الخصوصيات المحلية البيئية والاجتماعية والثقافية.

المحاولات تترجم الرغبة لدى الفاعلين المحليين من أجل تحقيق التنمية المحلية المنشودة. كما أنها نابعة من الوعي بأهمية الامكانيات الطبيعية والتراثية التي تزخر بها هذه المنطقة الجبلية.

5 - عوائق وتحديات التوظيف السياحي لقصر زمّور :

بعد القيام بعمليات التهيئة الضرورية للانطلاق في النشاط السياحي برزت مشاكل جديدة تستوجب التدخل العاجل:

- أول هذه الصعوبات يتمثل في الموافقة على المسلك السياحي الجبلي الايكولوجي والثقافي بزمّور. فمنذ بداية سنة 2009 لازل أعضاء الجمعية ينتظرون موافقة الديوان الوطني للسياحة للانطلاق في العمل بصفة قانونية وذلك لأن الجمعية ليست وكالة أسفار متخصصة.

- المشكل الثاني يرتبط أساساً بالذي سبقه، وهو يتعلق أساساً بالتعريف بالمنتوج السياحي المتوفر بالمنطقة وبنوعية السياح المستهدفين. فالمسألة الثقافية ليس نفسه السائح الذي يتم استخدامه على طريق الزاوي الأسفار الكبيرة. فهو يبحث عن وجهة سياحية تمكنه من تلبية رغباته المعرفية والتي تتطلع لمعرفة الآخر وعاداته ومط حياته. لذلك فهو يبحث عن هذه الوجهة عن طريق الأنترنت وعن طريق الزائرين الذين قدموا قبله. فالمطلوب لا يتمثل في استقطاب أكبر عدد من الوافدين، بل الأهمية تكمن في استقطاب

المصادر والمراجع

- الرّموري عبد الحق 2008 : مغاربات أوليّة في الأصول البشرية والحراك الاجتماعي : قبيلة زّمور بالجنوب التونسي أنموذجا، مجلّة الحياة الثقافيّة عدد 190 ، ص ص 83-95 .
- Association des Jeunes de Zammour 2008 : Projet de conservation et de valorisation des espèces autochtones de Zammour, non publié, 27p.
- Du Cluzeau Claude Origet 1998 : Le tourisme culturel ; PUF, Paris, 127p.
- Gunjan Saxena et Brian Ilbery 2008: Integrated rural tourism (a border case study); In Annals of Tourism Research, vol 35, n° 1, pp 233-254.
- Hampton Marc 2005: Heritage, local communities and economic development; In Annals of tourism research n° 32, pp 735-759.
- Kassah Abdelfettah 2004 : Tourisme et patrimoine dans la chaîne des Matmatas (sud est tunisien) ; In Ait Hamza Mohamed et Popp Herbert (édition) :Pour une nouvelle perception des montagnes marocaines, Rabat, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, pp 141-151.
- Lessmeister Ralph et Scherle Nicolai 2008 : « Hors des sentiers battus » ? L'offre des voyages spécialisés dans les pays du Maghreb ; In Herbert Popp (coordination) : Les pays du Maghreb ; Contributions de la géographie humaine allemande; Publié avec le concours de l'Association Allemande de la Recherche Scientifique (DFG) et de la Société Allemande de Géographie (DGFG), Bayreuth, pp 78-85.
- Louis André 1975: Tunisie du Sud : ksars et villages de crêtes ; CNRS, 370p.
- Zayed Abdessmad 1992 : Le monde des ksour du Sud Est tunisien, Beit El Hikma Carthage, 268p.

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

الهوامش والإحالات

- (1) ديوان تنمية الجنوب ، ولاية مدين بالأرقام، نشريّة سنويّة
- (2) يبلغ هذا الارتفاع 694 م. حسب الخريطة الطبوغرافية ذات مقياس 1/100,000
- (3) بحث ميداني يتعلق بقباليّة السباحة من قبل السكّان المحليّين، همّامي 2009
- (4) جمعيّة صيانة القصور والمحافظة على التراث بيني خدّاش، 2007.
- (5) زّموري عبد الحق، 2008
- (6) جمعيّة الشّباب الرّموري، 2008
- (7) Lessmeister Ralf et Scherle Nicolai, 2008, p 80.
- (8) Société Internationale d'Ecotourisme.
- (9) جمعيّة الشّباب الرّموري، جوان 2008.
- (10) Du Cluzeau Claude Origet, 1998, p 59.

قصور مدينين :

من التهديم والتّمدين إلى الصّيانة والحنين

الظاهر ضيف الله (*)

مقدّمة :

سادت إلى وقت قريب نهجاء القصور، وتعتبر مثالا لمحاولات الإنقاذ لهذا التراث الفريد والتميّز.

فكيف نشأت هذه القصور وما هي الخصائص التي تميّزها؟

وما هي أهم التحوّلات التي شهدتها منذ الفترة الاستعمارية؟

وما هي دواعي وخلفيات هدم عدد كبير منها؟

وما هو التوظيف الحالي للقصور المتبقية ؟

وهل نجحت عمليات الترميم والصيانة في إنقاذ ما تبقى من هذا التراث المعماري والثقافي ؟

قصور مدينين : الموقع والموضع

تنوطن قصور مدينين في سهل الجفارة وهو سهل رسوبي رملي بين سلسلة جبال مطماطة دمر (الكويتا) غربا والبحر شرقا ويتواصل سهل الجفارة نحو الجنوب الشرقي داخل التراب الليبي. ويتميز بمناخ صحراوي ذي مدى حراري مرتفع وتساقطات تتراوح بين 150 و200 مم في السنة.

تمثل قصور مدينين أهم تجمع للقصور السهلية بالجنوب الشرقي التونسي وقد بلغ عدد غرفها في بداية القرن العشرين حوالي 6000 غرفة موزعة على 35 قصرا، ولا يعتبر هذا المعمار مجرد شاهد على ما أنجزه السكان شبه الرحل في سهول الجنوب وجباله فحسب بل أضطلع بعدد الوظائف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وقد عرفت قصور مدينين عدة تحوّلات عبر التاريخ خاصة على مستوى وظائفها نظرا لتداخل عدة عوامل سياسية واقتصادية. ومنذ الفترة الاستعمارية تراجعت وظائف قصور مدينين وشهدت تدهورا كبيرا. وفي السنوات الأولى من الاستقلال شمل التحطيم والهدم الجزء الأكبر من هذه القصور ولم تصمد منها إلا ثلاثة قصور شملت في السنوات الأخيرة عمليات صيانة وترميم ومحاولات لإعادة توظيفها سياحيا وثقافيا.

تمثل قصور مدينين بلا منازع عيّنة من النظرة التي

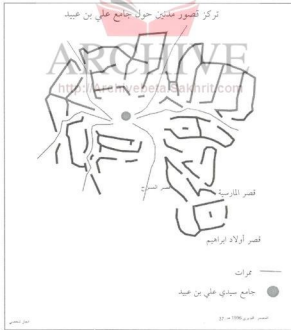
(*) باحث، تونس

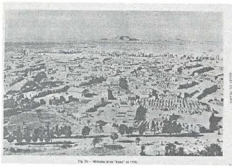
قصور مدينين : النشأة والتوسع

تتمثل قصور مدينين في تجمّع لعدد كبير من الغرف وهي إحدى أهم القصور في سهل الجفارة تعود ملكيتها إلى عدد كبير من عروش التوازين. إن البحث في تاريخ نشأتها يتطلب من الباحث التساؤل عن أصل تسمية مدينين. وحسب رواية شفوية نقلها بوسترو: «إن سكان هذه المقاطعة أنفسهم غير متفقين حول أصل كلمة مدينين. فبعضهم يردّها إلى اسم كهف شهر بأم الدين ويقوم على مقربة من المكان الذي يوجد به حالياً السوق الصغير المواجه لدخل المسجد. ويزعم البعض الآخر أن التسمية مدينين تشترك في أصلها مع المدينة أو كما يسميها العرب «مدينة النبي»، ويفسرون ذلك باعتبار أن البطن الذي ينحدر منه جدّهم كان يسكن مكة قبل نزوحه. فرغب هذا الجدّ، محبة لمسقط رأسه، في أن يطلق الاسم نفسه على القرية التي قام بإنشائها (2).

تقع القصور في سهل منبسط تخترقه بعض المجاري المائية الصغيرة وهو ما نلاحظه في موضع مدينين اليوم نتيجة توطن السكان حول القصور التي تمثل النواة الأولى لنشأة مدينين.

إن موقع مدينين في سهل جفارة بين البحر والجبل جعل منها نقطة ارتكاز هامة ومنطقة عبور بين الشمال والجنوب وبين الصحراء والشريط الساحلي. ورغم محدودية مواردها الزراعية تمثل المنطقة مجالا مناسباً للمبادلات ومكان التقاء بين عدّة محاور مواصلات، وحسب ما تشير الروايات الشفوية والمصادر التاريخية فإن تواجد الولي الصالح سيدي علي بن عبيد كان عامل وحدة وتقريب وأمن بين القبائل. فتحوّلت مدينين مكاناً آمناً لحزن المحاصيل الزراعية وتعددت بها القصور التي بلغت 35 قصراً واحتوت على أكثر من 6000 غرفة خلال ثلاثينات القرن العشرين (1).





قصور مدين سنة 1950 حسب أندري لويس

القصور وتلاصقتها وتعتبر مدين من أبرز الأمثلة المبينة لهذا الصنف من التوسع.

ب - التوسع العمودي :

تتجسد عمليات التوسع العمودي للقصور من خلال زيادة عدد الغرف بإضافة طوابق علوية تصل أحيانا إلى 5 طوابق. وتسمى القبائل من خلال هذا الصنف من التوسع إلى التحكم في التوسع بهدف المحافظة على الأراضي المخصصة للزراعة حتى تتمكن من مواصلة نشاطاتها الفلاحية والرعية وحتى تبقى قريبا من مركز الحماية الروحي للقصور.

عمارة القصور :

تشابه قصور مدين مع أغلب القصور السهلية من حيث التخطيط وتقنيات البناء ، وتتجمع بكل قصر عدة مكونات أساسية تقوم على الأجزاء التالية:

الغرفة :

تمثل الغرفة الخلية الرئيسية أو النواة الأولى للقصر، فالغرف إذن هي مخازن حيوب ومتشابهة الأشكال في قصور مدين وأم التمر. يتراوح طول الغرفة بين 4 و5 أمتار ويصل أحيانا إلى 7 أمتار ولا يتجاوز عرضها 2 متر

وفي مطلع القرن الخامس عشر كان الموضع الذي يحتله الآن قصر مدين قفرا. فالواديان اللذان يحدانه شرقا وغربا لا يشكلان سوى دغل رحب استوطنه إبن آوى والضيع والخنزير وكذلك الأسد (3).

وحسب هذه المعطيات فإن قصور مدين لم تظهر إلا بعد هذا التاريخ.

وقد سكن الكهف الذي تحدث عنه «بوسترو» رجل صالح حسب معتقدات سكان مدين ويدعى «سيدي علي بن عبيد» حيث استقر بهذا الكهف في القرن 17 ووجد سكان ورغمة منتشرين في الأراضي المجاورة فدعاهم إلى خزن محاصيلهم الفلاحية ووضعها تحت حمايته (4).

وهكذا يمكن القول بأن فكرة تأسيس القصور بمدين تعود إلى الولي الصالح علي بن عبيد، وقد بادر سكان ورغمة ببناء النواة الأولى للقصر وهي غرف لخزن المحاصيل الزراعية قرب ذلك الكهف في القرن 17. وقد وشرعت كل قبيلة في بناء قصر لها يحمل اسمها مثل غبنتن وقصر أولاد إبراهيم وقصر الشنادلة وقصر المارسية وغيرها من القبائل. وقد بلغ عدد القصور حوالي 35 قصرا ذات طوابق مختلفة وتضم حوالي 6000 غرفة (5).

وعموما وحسب الدراسات التاريخية المتوفرة فإن نشأة أولى قصور مدين تعود إلى القرن 17، وما انفكت قبيلة التوازين تكلف أهالي مدين بحراسة حبوبها إلى أن أقيم أول مركز بمدين سنة 1888.

لقد سعت قبائل ورغمة إلى بناء قصورها في أماكن متعددة في مدين استجابة لمطالبات الحياة الفلاحية فقد ركزت هذه المجموعات القبلية في البداية إلى إتمام بناء الطابق الأرضي للقصر أي غرفة بجانب غرفة على كامل محيط الساحة التي ينظم حولها القصر. وأمام تزايد عدد السكان وارتفاع المحاصيل الزراعية شهدت القصور مرحلتين من التوسع :

أ - توسع أفقي للقصور :

يمثل التوسع الأفقي للقصر في بناء قصور أخرى بجانب القصر الأول. ومن مظاهر التوسع الأفقي تعدد

السقيفة:

هي المدخل الرئيسي للصحن (ساحة القصر) وهي المجال المخصص للالتقاء بين أفراد القبيلة، وبتراوح ارتفاعها بين 3 و4 أمتار ولا يتجاوز عرضها 3 أمتار. وتختلف السقيفة من قصر إلى آخر حيث نجد سقيفة مغطاة في قصر أولاد إبراهيم وقصر المسرح بمدنين وسقيفة غير مغطاة في قصر أم التمر فهي تتميز بارتفاعها.

البئر:

يمثل البئر أحد المكونات الأساسية للقصر حيث نجد في قصر أولاد إبراهيم بئرا في وسط الساحة، ويعود ظهورها إلى فترة بناء أولى الغرف نظرا للمحدودية الموارد المائية بمدنين، وقد كان السكان يستعملون الماء للشرب ولبناء غرف القصر ولتأمين عمليات سقي الحيوانات كالأغنام والأبل التي تبقى لفترة طويلة داخل الصحن.

مواد البناء:

استعملت أغلب قبائل الجنوب نفس المواد لبناء قصورها الجبلية والسهلية. وقد لجأ السكان إلى استعمال بعض المواد المتوفرة كالجبس والجير والحجارة «يستلزم بناء القصور القليل من مواد البناء ويكتفي الحصول على الجير والجبس والحجارة لإيجاز ذلك» (6).

مراحل البناء:

تمّ عملية بناء القصر بعدة مراحل أساسية، حيث تستلزم عملية بناء القصر اتفاق أفراد القبيلة على بعض المسائل ومن أهمها تحديد المجال الجغرافي الذي سيتم فيه بناء القصر، وتحديد مساحة المجال المكونة للقصر، ويتم كذلك ضبط قائمة أسماء السكان الراغبين في بناء الغرف لتخطيط مشابه بين أغلب القصور خاصة من حيث الشكل الهندسي.

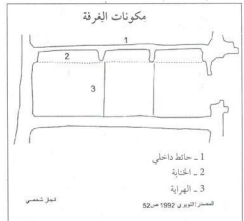
أما الارتفاع فيصل إلى حوالي 2 متر في كل القصور ولسقف الغرفة شكل نصف دائري.

وقد قام السكان شبه الرحل بتهيئة الغرفة لعدة استعمالات، وتنقسم بدورها إلى عدة مكونات تستعمل في وظائف مختلفة:

- الهراي: هي عبارة عن حوض يوجد في آخر الغرفة يتم فصله عن مركز الغرفة بجدار يبلغ ارتفاعه حوالي نصف متر. ويستعمل هذا الفضاء لحزن المحاصيل الزراعية من القمح والشعير.

- القوسية: هي فضاء في شكل قوس يتراوح ارتفاعه بين 20 و100 سم ويستعمل لحزن جرار الزيت والمواد السائلة.

- الخنابة: هي فضاء يتم تهيئته فوق القوسية، يصعب الوصول إليه ويغطي بكرم حجري، فهي غرفة داخل غرفة تستعمل لحزن وإخفاء المواد الثمينة والنادرة. ويمكن للخنابة أن تغلق من جهة الغرفة وتفتح مباشرة على الفناء (الصحن) فتجهز في هذه الحالة بباب مستقل عن الغرفة وتصبح غرفة بعد ذاتها ويعرض لا يتجاوز المتر الواحد (دليل خصوصيات عمارة الجنوب ص 86).



قصور مدنين : من مخازن الحبوب إلى المركز التجاري

إن فكرة بناء الغرف منذ نشأة القصور الجبلية الأولى في الجنوب التونسي كانت مبرمجة بطريقة تمكن من تخزين المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب والصوف والزيت، وقد قامت أغلب القصور بهذا الدور لعدة قرون وانتشرت فكرة بناء القصور من الجبال إلى السهول لتظهر في شكل تجمع كبير من القصور في مدنين وأم التمر نظرا لتعدد القبائل شبه الرحل التي تملك أراضي جماعية وتعتمد النشاط الزراعي كششاط أساسي خاصة الرعي وتربية المواشي من الأغنام والأبل. وكانت الحبوب تخزن في 'الرتب' (جمع رتبة وهي مطبوع للحبوب تحت الأرض) وأصبحت بعد بناء قصور مدنين تخزين في الغرف وفي أماكن مخصصة داخل كل غرفة.

وأمام التزايد السريع لعدد السكان وكثرة الإنتاج الفلاحي سعت كل قبيلة إلى بناء قصر يستخدمه أبناؤها. وتوسع بذلك مجال القصور في مدنين خاصة في الأراضي التابعة لقبائل التوازين حيث ارتفع عدد القصور المتلاصقة والتي تتمحور حول جامع سيدي علي بن عبيد تربط بينها مسالك تؤدي إلى كل القصور.

اضطلعت مدنين بدور عاصمة نجع وزينة حتى تقدم الفرنسيين وهو ما أقلها لتكون وجهة اقتصادية وتجارية هامة خاصة للتوازين والخزور (فتحي ليسير 1992 ص 301).

وقد شهدت قصور مدنين عديد التطورات خاصة في الفترات الأولى من انتصاب الحماية الفرنسية ومز القصر بعدة مراحل حيث تراجعت مكانته خلال المرحلة الأولى من دخول السلطة الفرنسية بعد أن هجره التوازين هروبا من المضايقات الناجمة عن دخول المستعمر وهو ماساهم في تراجع العمليات التجارية حيث انخفض رقم المعاملات التجارية بسوق القصر ولم تتجاوز 100000 فرنك سنة 1899 (نفس المصدر السابق).

إن ماميز سوق مدنين هو دخول تجار من اليهود والأوروبيين إليه، وقد قاموا ببناء حوالي 65 دكانا إثر انهيار البعض من غرف القصر (نفس المصدر السابق).

ولقد استأنفت أعداد هامة من تجار التوازين عملياتهم التجارية في سوق القصر نظرا لأهمية موقع القصر بالقرب من أراضيهم. وقد شهدت الحركة التجارية لسوق قصر مدنين نموا متواصلا بين سنتي 1900 و1938.

وتعود عوامل نمو المعاملات التجارية بسوق قصر مدنين إلى أهمية الموقع الذي ساهم في استقطاب التجار من مختلف الأماكن خاصة تجار الحبوب الوافدين من قابس وجربة وجرجيس. كما يتميز السوق بتعدد المنتجات المعروضة مثل الزيت والشعير والصوف والملابس الصوفية مثل الزوزة والبرنوس والبخنوق والمرقوم.

ولئن كانت الوظيفة الرئيسية للقصور هي تخزين الحبوب والمبادلات التجارية إلا أن قصور مدنين قد قامت بدور آخر تمثل في إيواء التلاميذ الذين درسوا بجامع سيدي علي بن عبيد حيث كان الأولياء يقومون باكتراء غرف القصور لمبيت أبنائهم. وهذه الوظيفة كانت مشابهة لما عرفت قصور أخرى مثل قصور بنقردان (7).

مرحلة الخراب والتدمير :

بعد الدور الوظيفي الكبير الذي كانت تؤديه قصور مدنين فقد شهدت تراجعا كبيرا لوظائفها الأساسية. حيث تراجعت مكانتها بسوق نشيطة، كما هجرها السكان ببناء قصور أخرى في بن كردان (قصر أعظم وقصر الشرايحة وقصر الجراء) وجرجيس (قصر الموانسة)، وأمام ظهور ظاهرة البناء الجديد بمدنين خاصة بعد الاستقلال، شهدت أغلب القصور تدهورا كبيرا في عمارتها وتراجع عدد القصور من 35 قصرا إلى 3 قصور تحتوي على عدد قليل من الغرف. والوضع الحالي هو حصيلة هزيلة لما تبقى من مدنين، مدينة القصور.

قصور مدنين سنة 2010

اسم القصر	عدد الغرف
قصر أولاد إبراهيم (القصر السياحي)	146
قصر المارسية	120
قصر المسرح	125

المصدر : دراسة ميدانية

قصور مدنين: الصيانة ومحاولات الإنقاذ

إن ما يميز عمليات صيانة القصور بمدنين هو تأخرها زمنيا وصعوبة عمليات الترميم نظرا لتدخل عدة عوامل ساهمت من ناحيةها في تأخر تدخل الدولة لصيانة هذه المواقع التراثية.

تعقد الملكية :

إن طبيعة النظام القبلي الذي كان سائدا في منطقة سهل جفارة في فترة ظهور القصور جعل من هذا المعمار ملكا جماعيا لقبائل متعددة، حيث أصبح لكل قبيلة قصر باسمها مثل قصر أولاد إبراهيم وقصر المارسية بمدنين وقصر الشرايحة وقصر الجراء ببنقردان وقصر أم الثمر الذي تعود ملكيته إلى الثمارة والحرارزة، ومع مرور السنين والنمو السكاني وتعدد الأحفاد للأب المالك الأصلي للغرفة أصبح القصر ملكا لعدد كبير من الورثة حيث يتجاوز عدد الورثة لكل غرفة المائة شخص، وهو ما عمق مشكل الملكية وشكلت بذلك صعوبة التدخل لدى الهياكل المهمة بحماية التراث لإنقاذ هذا الإرث الثقافي والحضاري المميز لعمارة الجنوب من التدهور والاندثار.

تدهور عدد كبير من الغرف :

إن التحولات التي شهدتها قصور مدنين خاصة في بداية دخول الحماية الفرنسية، وتشجيع السلطات الاستعمارية التوازين على بناء قصور في بنقردان بهدف توطين السكان ومراقبة الحدود قلّص من الدور الوظيفي لقصور مدنين، وتراجعت مكانتها وهجرها السكان وبالتالي تداعت أعداد كبيرة من الغرف.

كما تدهورت حالة القصور بعد الاستقلال نتيجة ظهور نوع جديد من المعمار وهي تلك البناءات الجديدة التي حلت محل أغلب القصور.

ورغم تعقد الوضع العقاري والحالة السيئة التي آلت

إليها عديد الغرف قامت عدّة أطراف بالتدخل لصيانة ما تبقى من قصور مدنين وإعادة توظيفها ثقافيا وسياحيا.

وتهدف عمليات الصيانة والترميم في قصور مدنين إلى عدة أهدافها أهمها أهداف ثقافية وأخرى اقتصادية. إن الهدف الرئيسي الذي تسعى إلى تحقيقه مختلف الأطراف المتدخلة من خلال عمليات الصيانة هو تمشين وحماية التراث وذلك بترميم ما تبقى من الغرف المتداعية وإعادة بنائها بهدف توظيفها في السياحة الثقافية وإبراز القيمة التراثية لهذه المعالم الأثرية، وبالتالي المحافظة على الطابع المعماري الذي تميزت به عمارة الجنوب الشرقي وخاصة في سهل الجفارة حيث ساد نمط عيش شبه بدوي.

كما تهدف أشغال الصيانة إلى تنشيط الصناعات التقليدية وتنويع المشهد السياحي للبلاد لتحقيق سياحة مستدامة مغايرة للسياحة الشاطئية الموسمية وبالتالي خلق فرص للتشغيل في هذا الإقليم.

انطلقت أولى عمليات الصيانة والترميم في قصور مدنين منذ الثمانينات من القرن الماضي بتدخل من المعهد الوطني للتراث عن طريق التفقدية الجهوية لتراث الساحل الجنوبي بصفاقس ولكن التدخل كان محدودا. وبداية من سنة 2002 قامت التفقدية بعدة تدخلات لترميم القصور السياحية بمدنين تمثلت في :

- أشغال التدعيم : تتمثل في ترميم الجدران المتداعية ودعمها بالاسنادات الخشبية والأملاط والجبس.
- تنظيف الغرف والصحن وإزالة الرمال المتراكمة بساحة القصر.
- إزالة البناءات المستحدثة التي بنيت إثر سقوط بعض الغرف.
- ترميم الشقوق والتصدعات وذلك بطمس الفجوات.
- إزالة الملائط الذي اعتمدته أصحاب الغرف فوق غرف القصر وإعادةه بطرق علمية تتماشى مع نوعية المعمار.
- إزالة الحجارة المتآكلة وتعويضها بحجارة أخرى

الرئيسي الذي يشرف على العمل الثقافي بالجهة ويتمثل تدخلها في :

- الإشراف على المهرجان الثقافي بقصر المسرح
- العمل على صيانة الموروث الثقافي والحضاري بالجهة
- العمل على صيانة الثقافة الوطنية والمحلية لدعم السياحة الثقافية

• المعهد الوطني للتراث :

يبرز تدخل المعهد الوطني للتراث في صيانة المعالم الأثرية بمدنين عن طريق التفقدية الجهوية لتراث الساحل الجنوبي بصفاقس والتي يتمثل عملها في :

- تفقد القصور من خلال بعض الزيارات الميدانية
- القيام ببعض الدراسات والتقارير لتقييم حالة القصور

- تخطيط أمثلة الصيانة والإحياء

- الإشراف على عمليات الترميم

تتطلب تنفيذ عمليات ترميم القصور وتهذيبها وإعادة هيكلتها إمكانيات مادية كبرى، وقد بلغت قيمة مصاريف الترميم في العشريتين الأخيرتين بحوالي 138 ألف دينار في قصور مدنين وإلى حدود سنة 2007 (التفقدية الجهوية للتراث بالساحل الجنوبي بصفاقس) ولذلك سعت عدة أطراف لتنفيذ هذه البرامج من تدخلها بتكفلها بمصاريف الترميم .

• المجلس الجهوي بمدنين :

يضم هذا المجلس إدارات محلية وجهوية من ولاية مدنين لدراسة المشاريع التنموية بالجهة وقد تدخل المجلس برصد اعتمادات مالية هامة لمشاريع تهيئة القصور، وقد ساهم المجلس بحوالي 24 ألف دينار خلال مشاريع الترميم التي قام بها المعهد الوطني للتراث بين سنتي 2002 و2009 .

وتواصلت عمليات ترميم قصور مدنين بعد سنة 2002 لتشمل القصور الثلاثة وتتمثل عمليات التهيئة في :

- تجهيز خشبي لأبواب الغرف وللسقيفة
 - تلبيط جزئي لأرضية الساحة في كل قصر
 - القيام ببعض أشغال التدعيم لبعض الغرف المتداعية خاصة في قصر المسرح وقصر الممارسة (8) .
- تميزت عمليات الصيانة وترميم القصور بمدنين بتعدد الأطراف المتدخلة على المستوى التشريعي والتنفيذي وعلى المستوى المالي .

أ - على المستوى التشريعي :

• وزارة التجهيز والإسكان والتهيئة الترابية :

تدخل الوزارة عبر الإدارة الجهوية للتجهيز والإسكان والتهيئة الترابية بمدنين التي تعتبر الهيكل الرئيسي الذي يشرف على إعداد مثال التهيئة الحضرية بالتعاون مع هيكل أخرى لها علاقة بالتهيئة مع مراعاة المناطق المصانة والمعالم الأثرية ذات الأهمية التاريخية .

• البلدية :

يبرز دور البلدية في الحفاظ على المواقع الأثرية من خلال إشرافها على عمليات التهيئة العمرانية داخل المجال البلدي خاصة بالنسبة لقصور مدنين نظرا لطبيعة موقعها في مركز مدينة مدنين وتتمثل تدخلات البلدية في :

- بحث شبكات البنية التحتية
- العناية بالنظافة
- المصادقة على أمثلة التهيئة

- الإشراف على التراخيص الإدارية لعمليات البناء

- توفير الاعتمادات اللازمة لتمويل مشاريع التهيئة

• وزارة الثقافة والمحافظة على التراث :

يتمثل تدخل وزارة الثقافة والمحافظة على التراث من خلال المندوبية الجهوية للثقافة بمدنين التي تعتبر الهيكل

سنة التدخل	قيمة الاعتمادات	الأطراف المتدخلة
2002	5200	وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية
2003	20000	المعهد الوطني للتراث
2005	7000	المجلس الجهوي لمدينين
2006	10000	المعهد الوطني للتراث
2007 و2008	17000	المعهد الوطني للتراث المجلس الجهوي لمدينين
2009	10000	المجلس الجهوي لمدينين
2010	50000	اعتمادات رئاسية

متلاصق مع غرف القصر، وكذلك وجود بعض الغرف تحتوي على أبواب من الحديد وأخرى خشبية مخالفة لما هو معمول به في عمليات الصيانة والترميم لدى المعهد الوطني للتراث، ولذلك وجب التدخل لإيقاف تجاوزات بعض المواطنين لحماية التراث.

تعدّدت عمليات الصيانة والترميم في قصور مدينين الثلاثة (قصر أولاد إبراهيم وقصر المارسية وقصر المسرح) وتنوعت أشكال الترميم بهذه المعالم وهو ما جعل توظيفها ممكنا في مجال السياحة الثقافية نظرا لأهمية موقع مدينين كمحطة عبور بين قطب السياحة الشاطئية جربة وجرجيس من جهة، وأقطاب السياحة الصحراوية توزر ودوز من جهة أخرى.

ومن مظاهر هذا التوظيف السياحي الجديد لقصور مدينين:

- متحف العادات والتقاليد بقصر المسرح: نشأ متحف مدينين سنة 2006 ويتميز هذا المتحف في ارتفاع عدد السياح حيث يصل إلى 4000 زائر في السنة من أغلب دول العالم لما يخر به من تنوع المعارضات الجميلة والتوظيف من أواني طبخ استعملها السكان الرحل في الجنوب التونسي. يخيم شاهدة على حياة الترحال لسكان الصحراء إضافة إلى مشاهد تبرز كيفية كتابة عقود الزواج وطريقة لباس الرجال والنساء يوم الزفاف ملية بالخلي والفضة. كما يحتوي المتحف على مجموعات نقدية ومعدات فلاحية وآلات نجارة وحداثة استعملها سكان القصور في القرون الماضية.

- المقهى السياحي بقصر أولاد إبراهيم: وهو يحتل مكان سقيفة القصر التي كانت فضاء للقاءات والاجتماعات بين شيوخ القبائل أو المعاد.

- المحلات التجارية لبيع التحف والمعارضات التذكارية: تحولت الغرف من وظيفتها الرئيسية وهي وظيفة تخزين المنتوجات الفلاحية والرعيّة إلى محلات تسوّق صناعات تقليدية تميزت بها بعض المدن التونسية مثل مدينين وتطاوين وجربة وجرجيس وقابس ونابل

المصدر: التقديرات الجهوية لثراث الساحل الجنوبي

واقع التوظيف السياحي لقصور مدينين:

لاحظنا من خلال الزيارات الميدانية التي قمنا بها خلال فترة البحث أن عمليات الترميم التي شهدتها قصور مدينين كانت واضحة، يظهر ذلك من حالة القصور الثلاثة التي تعتبر جيدة وأغلب الغرف في حالة جيدة وقابلة للتوظيف السياحي. وقد حافظت على طابعها التقليدي من حيث مواد البناء المستعملة للترميم ومن حيث طريقة إعادة بناء بعض الغرف التي تعرضت إلى السقوط والهدم، وهو ما جلب أنظار الزوار من عدة بلدان وجدناهم بالقصر إعجابا بطريقة البناء والمواد التقليدية المستعملة لبناء.

كما لاحظنا أن البناءات المجاورة للقصور قد بنيت بطرق عصرية مخالفة للهندسة المعمارية للقصور، ولا تخضع إلى قوانين حماية المعالم التاريخية الذي ينص عليه الفصل 45 من مجلة حماية التراث الأثري والتاريخي والفنون التقليدية. كما لاحظنا أيضا في آخر العمر الذي يربط بين قصر المارسية وقصر المسرح وجود بناء مستحدث

المكاسب للسكان المحليين. لقد مكن التوظيف السياحي من استغلال 70 غرفة في قصر أولاد إبراهيم ويشغل كل محل بين 2 و3 عمال وحوالي 10 محلات في قصر المارسية ويشغل حوالي 15 عاملاً من بينهم 4 فتيات متحصلات على شهادات جامعية من المعهد الأعلى للفنون ومهن التراث بتطاوين. كما يشغل متحف العادات والتقاليد 3 عمال إضافة إلى عمال المقهى السياحي وتنشيط حركة النقل وتنشيط الصناعات التقليدية في جربة وقابس وبعض المدن الأخرى.

كما ساهم التوظيف السياحي للقصور في المحافظة على ما تبقى من إرث حضاري لمدين الذي كاد أن يندثر في فترة ما.



قصر أولاد إبراهيم

الخاتمة :

ما زالت السياحة في قصور مدين محدودة وغير كافية لتحقيق تنمية شاملة. فالفترة المخصصة للزيارة قصيرة جداً ولا تتجاوز بضع ساعات. فهي تعتبر مجرد سياحة عبور مجانية ذات تأثير ضعيف على الاقتصاد المحلي، حيث يقتصر السياح والزائرون على التقاط بعض الصور ولا تنشط باقي المجالات مثل المطاعم والنزل والمقاهي لأن السياح يقيمون بالمناطق السياحية الكبرى.

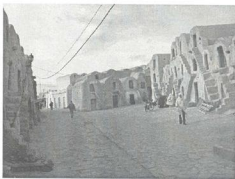


متحف العادات والتقاليد

من فخار وتحف ومظلات مصنوعة من سعف النخيل والمرقوم والفليج.

وتتميز السياحة في قصور مدين بتنوع كبير لمصدر السياح، إذ أصبحت مدين محطة سياحية يقصدها سياح من جنسيات مختلفة يأتون إليها من المناطق السياحية الشاطئية في رحلات منظمة أو مجموعات صغيرة. وبعض الزوّار تكون وجهتهم السوق الموازية بمدين. ويقومون أحياناً بزيارة المتحف وينتقلون بعض الصور التذكارية فوق سطوح القصور.

ساهم التوظيف السياحي للقصور في تحقيق بعض



قصر المارسية

وعموما فإن قصور مدينين التي تخلت عن وظيفتها الأساسية وهي خزن الحبوب والمواد الفلاحية والتي تحولت إلى مركز تجاري وحضري، تطمح اليوم إلى أن تستعيد وظائف جديدة تسمح لمدينة مدينين أن تحافظ على خصوصياتها الثقافية والتراثية وأن تسهم في التنمية المحلية والإقليمية.

ويمكن تحقيق توظيف سياحي أفضل لقصور مدينين بتهئية قصر المسرح واستغلاله كنزل سياحي تقليدي مثل قصر الحدادة بقممراسن، وكذلك بتنظيم مهرجانات داخل القصور والتعريف بالصناعات التقليدية المحلية والقيام بعمليات إشرارية لهذه المعالم الأثرية وإبتكار وسائل جديدة لتنشيطها فنيا وثقافيا.

المصادر والمراجع

- بوسوترو (أوغوست)، ملاحظات حول مدينين: قصر من قصور الجنوب التونسي، التعااضدية العمالية للطبعة والنشر، صفاقس تونس تعريب عبد الرحمان أيوب، 19 ص
- ليسير (فتحي) 1998: قبائل أقصى الجنوب التونسي تحت الإدارة العسكرية، الفرنسية: نجع ورغمة غوذجا 1881-1939، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان تونس، 394 ص.
- الثوري (محمد الفاضل) 1996: تصور لصيرورة مكان: إحياء قصور مدينين: أطروحة مرحلة ثالثة هندسة معمارية، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية والتعمير تونس، 90 ص.
- Ben Ouezdou H., (2001) : Découvrir la Tunisie du Sud, de Matmata à Tataouine, Ksour, jessour et Troglodytes. Tunis, 78p.
- Louis A., (1975) : Tunisie du sud, Ksars et villages de crêtes. Paris, CNRS 370p.
- Mrabet A. (2004) : la Tunisie du sud, sites et monuments. Tunis, Agence de mise en valeur du patrimoine et de promotion culturelle. 77 p.
- Zaid A., (2006) : le monde des Ksours du Sud tunisien; Centre de Publications Universitaires, Tunis 236p.

الهوامش والإحالات

- (1) أنظر
Historique du Bureau des Affaires Indigènes de Médénine, 1930; André Louis 1975 p.128, Boussoutrot Auguste p. 34.
- (2) نقلا عن أوغوست بوسوترو: ملاحظات حول مدينين قصر من قصور الجنوب التونسي، تعريب عبد الرحمان أيوب 1978، ص. 7.
- (3) نفس المرجع السابق ص. 7.
- (4) Louis A.1975, p.128
- (5) نفس المرجع السابق.
- (6) Zaid.A.1992, p.115.
- (7) أنظر دراسة محمد الناصر بالطيب 1998: بتقردان بين التاريخ والتراث ص. 251.
- (8) تقرير التفقدية الجهوية لتراث الساحل الجنوبي

القصور الصحراوية وإمكانية توظيفها في الإنتاج السمعي البصري

محمد عبازة (*)

على ذلك. لقد أثارت الصورة حفيظة العديد من فقهاء الإسلام وعلمائه من السلفية ولكنهم لم يستطيعوا إيقاف زحفها الطوفاني على العقليات والثقافات، وأصبحت الصورة في المكان الأول، والكلمة في المكان الثاني بالنسبة إلى الشاب الطامح إلى تثقيف نفسه وتعليمها (المكتبات في الجامعات، والناشرون والمكتبات وسوق الكتاب). ولربما كان من المناسب أن نذكر أسباب هذا التغلغل أو هذا الغزو للصورة، فهي:

- (1) أكثر قدرة على التعبير وأكثر إفصاحا (صورة محمد الدرة الطفل الفلسطيني المقتول)
- (2) أكثر قدرة على الإقناع لأن الرؤية والبصر أكثر إقناعاً من السماع (عندنا في العامية شفت أبلغ من سمعت).
- (3) تشجع المستهلك على الكسل، إذ أنّ مستهلكها لا يبذل مجهوداً كبيراً عند استهلاكها. فالإنسان عندما يقرأ يبذل مجهوداً في التركيز والمتابعة والجلوس، بينما مستهلك الصورة يستهلكها وهو مستلقٍ على أريكة أو كرسي وثير أو حتى سرير النوم...

عصر الصورة: لا يختلف اثنان في أنّ هذا العصر هو عصر الصورة، إذ أصبحت هذه الصناعة تسيطر على عقول البشر شرقاً وغرباً. ولربما كان العرب آخر الأمم التي انخرطت في هذه المنظومة المعرفية، وما زالوا لم يحسموها إذ نجد الجدل يدور حولها إلى الآن بعنف كبير بين مؤيد ومعارض.

أو لا يجب أن نعترف أنّ حضارتنا هي حضارة كلمة: في البدء كانت الكلمة والصورة عندنا مدانة بطريقة أو بأخرى، وعندما تصوّر فإننا نصوّر بالكلمة، بينما نجد الصورة متجلّة في الثقافات الأخرى سواء أكانت بدائية عند الزنج: النحت، التصوير...، أو أكثر تطوراً كما هو الحال عند المسيحيين. الإسلام وحده من بين الثقافات التي أدانت الصورة وبالتالي عندما هجمت علينا اختلف القوم حولها بين مؤيد ومعارض (وما زالنا نذكر تحطيم التماثيل البوذية العملاقة أثناء حكم طالبان في أفغانستان ومنعها التلفزيون وكل ما يسيء إلى الشريعة الإسلامية) وما زالنا نسمع ونقرأ عن قرارات الأزهر ومنعه للعديد من الأعمال الفنية والسينمائية وفيلم المصير أوضح مثال

(*) جامعي، تونس

4) أقل كلفة، الكتاب والمقروء - بشكل عام - سعره في ارتفاع مستمر بينما الصورة سعرها في انخفاض مستمر، وكأنهما سيران باتجاهين متعاكسين.

الباحثون الذي نقبوا في هذا الميدان ابتداء من أرسطو، الذي قال إن التفكير مستحيل دون صورة، وكما قال أبيل جانس إننا نعيش بالفعل عصر الصورة، ورولان بارت الناقد الفرنسي المعروف الذي قال إننا نعيش حضارة الصورة، وذلك في مؤلفه المعروف: بلاغة الصورة (La rhétorique de l'image) «والصورة لم تعد تساوي ألف كلمة، كما جاء في القول الصيني المأثور بل صارت بمليون كلمة وربما أكثر. لقد أصبحت الصورة مرتبطة الآن على نحو لم يسبق له مثيل بكل جوانب حياة الإنسان، ولعبت المولتيميديا خاصة التلفزيون والسينما والانترنت وفنون الإعلان والإعلام بشكل عام دورا أساسيا في تشكيل وعي الإنسان المعاصر بالصورة...» (1).

حاصرتنا الصورة من كل جانب، في البيت، في العمل، في الشارع، وأصبح الهروب منها مستحيلا وكل من يحاول أن يزيحها من طريقه فإنه يفعل كالثعالب التي تخفي رأسها في الرمل هروبا من الخطر أصبح من الضروري التعامل مع الصورة، ولكن ينبغي أن نتعامل معها بذكاء. الصورة، وأقصد صورة التكنولوجيا أساسا، تملك قدرة غريبة على التعبير والأداء والحفظ والتخيل، باختصار هي قادرة على صنع المعجزات.

«إن التفكير بالصورة يتجاوز حدود الواقع المدرك اللحظي المباشر، فهو يمكن المرء من استدعاء الماضي ومعاشته كما لو كان يحدث مرة أخرى من خلال استعراض الصور والأفلام التي ترتبط به كما يمكنه أن يفكر في المستقبل ويتصوره ويشطّ خياله ويطرّره. هكذا يتحرك المرء من خلال الصورة عبر إطار زمني ممتد ومتفتح، كما يمكنه كذلك أن يتحرّز من القيود المكانية...» (2).

المشكلة المطروحة أمامنا هي كيف نتعامل مع هذه الصورة؟ كيف نوظفها؟ وماذا نصنع بها. للإجابة على

السؤال الأول نقول إن الخطوة الأولى هي أنّ الصورة ضرورة حياتية، ضرورة اجتماعية، ضرورة اقتصادية، وبالتالي ينبغي أن نتعامل معها من هذا المنطلق، منطلق التنمية، خاصة إذا أقرنا بأنّ العولمة والانفتاح وانتهاء الجغرافيا وبداية التاريخ، كلام يهمّ السلع وخاصة سلع الدول الصناعية لكي تعبر وتغزو أسواق الدول الضعيفة. أما على المستوى البشري فإنّ الحصار يشتدّ يوما بعد يوم على الإنسان الذي أصبح مجبرا على البقاء في حيزه الجغرافي محاصرا داخل بلده، وهنا لم يعد يجد بديلا ليعمل فيه، والنتيجة ينبغي عليه أن يعمل ويجتهد لإيجاد حل لمورد رزق بلده وبالتالي هو مُطالب بالمساهمة في تنمية اقتصاد بلده بما يملك من إمكانيات علمية، ثقافية، فنية، اقتصادية، معرفية، تكنولوجية، باختصار بكل ما يملك من طاقات مادية وروحية وعلمية.

أما كيف نوظفها؟ أولا، يجب أن نكتسب تقنياتها عن طريق التكوين والتعليم إذ أننا سنة 2010 وصلنا بعدد الطلبة في اختصاصات الإعلامية إلى حوالي 50 ألف طالب. كذلك ينبغي لنا أن نحدّد الميادين التي يمكن أن نوظفها فيها وخاصة الميادين التي لا تتطلب استثمارات مالية كبيرة، لأننا نعرف جيّدا إمكانياتنا المادية وبالتالي ينبغي أن نطلق من ظروفنا ومحيطنا وثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا. أما بخصوص ماذا نضع فيها؟ فإننا نجيب - بدون حرج - نضع فيها ثقافتنا وتراثنا وهذا بحكم اختصاصنا. لاشك أنّ الثقافة أصبحت محورا من محاور التنمية في بلادنا، التنمية الاقتصادية والاجتماعية: لقد صارت الثقافة في عصر المعلومات صناعة قائمة بذاتها، الأمر الذي أصبح معه إشكالياتها لا تدّين إلى أحاديث الصالونات وسجال المتديبات ورؤى المقاعد الوثيرة... (3). ونحن نعتبر القصور الصحراوية جزءا هاما من تراثنا وثقافتنا خاصة أنها ما زالت شامخة تتحدى عدايات الزمن، وعدايات الطبيعة، وعدايات الإنسان الذي انخرط في الجديد والمستحدث بدون تذوّق أو حين إلى الماضي الذي مازال شاهدا على أمسه القريب والبعيد.

القصور الصحراوية بين التاريخ والاقتصاد:

التاريخ نعرفه، ووظيفة هذه القصور نعرفها جيدا، فالذين وُلدوا في أواسط القرن الماضي كانوا يرون آباءهم يتعاملون مع هذه القصور، يعمرونها بمخزوناتهم المختلفة من حبوب وزيت وغيرها، وبالتالي عرفوا وظيفتها جيدا والحياة يدمائها تجري في شرايينها حركة وتوظيفا.

إن هذه القصور تحمل روحا، تحمل عبقا، تحمل ذاكرة جماعية افتقدناها منذ فترة عندما سيطرت الفردانية على عقولنا وانعكست على تصرفاتنا. وانخرطنا في التحديث والتطور والتمدن والحضارة وهجرنا قصورنا، التي بقيت شاهدة على عصر وعلى عبقرية وعلى روح وعلى تاريخ وبقيت خاوية على عروشها وروحها معلقة بين ذوئها الذين هجروها وتكبروا لها، فبقيت بين خواتمها وإهمالها وتداعيا للسقوط في بعض الأحيان تستغيث بأهلها الفارين من بين أحضانها. وظلت روحها معلقة بين هكلها وذوئها تننّ طالبة إعادة الاعتبار أو الأخذ بثأرها من أهلها الذين هجروها بالرغم من أنها تمثل عبقرية معمارية إبداعية بالوسائل المتاحة في ذلك الوقت (رغم طوابقها العديدة لم نر أي قصر منها كما انتهت العديد من العمارات التي تفنّن المهندسون في تصميمها لها وتسليحها بالحديد والإسمنت). عبقرية وهندسة ووظيفة كانت في التاريخ وإلى الآن ما العمل؟... تمثل القصور كثيرها من تراثنا الكثير والمتعدد والمتنوع من منسوجات، وفخاريات وملابس ومعالم ومواقع وحلي، وصناعات جلدية وغيرها التي يمكن استغلالها وتوظيفها في إبداعات جديدة يمكن أولا أن تُعيد الحياة لهذه الإبداعات الفنية المتميزة وتعطيها نفسا جديدا وتحديدا جديدا. وثانيا يمكن أن تكون موردا اقتصاديا هاما لمن يقرب منها ويشعر أن لها وجودا في وجدانه وأنها من الأشياء أو العناصر التي تكون هويته وثقافته وأن يضعها في المكان الصحيح بدون تهريج أو فلكلور يمسخ هذه الإبداعات أكثر مما يعيد لها الاعتبار. ولنا مثال سيئ في هذا المضمار عندما وقع توظيف هذه

القصور في مسلسل «ماطوس» بحيث أن الوظيفة الرئيسية لهذه القصور قد ضاعت ولم نستطع أن نوظفها كما يجب، إذ أن المسلسل وظّفها للسكن حتى تكون قصورا (بالقاف) بينما المسألة لم تكن كما طرح المخرج في ذلك المسلسل. ورغم أن التوظيف في المسلسل كان سيئا إذ أبعدنا عن وظيفتها الأساسية من الخزن الجماعي - بحكم الترحال - إلى مقر للسكن، ومقر مشوّه، ولكن رغم ذلك فإن المخرج قد أعاد هذه القصور إلى الحياة وإن كانت حياة اصطناعية، إلا أنها حياة وليس هناك كارثة أعظم من الموت، وخاصة ليس أي موت بل موت التراث، موت عنصر من عناصر تكوين الهوية والذات والروح والثقافة.

ويمكن لنا أن نوظّف هذه القصور في ثلاث إبداعات مرتبطة بالصورة ويكون لها مردود اقتصادي يعود بالنفع على أبنائها الضالعين بين التعلق بها والهروب منها بحثا عن مورد رزق:

1 - المسرح:

المسرح أبو الفنون وجامع الفنون ولد منذ 25 قرنا، وما زال في عتفان شبابه، منذ إبداعاته الأولى ارتبط بالألوهية وأخذ صفة من صفاتها وهي الخلود. تطوّر المسرح وتراجع دور الكلمة إلى حد كبير في مسرح الصورة وتقدّم الدور الخاص بالحركة والصورة بدرجة أكبر وأصبحت المسرحيات تمزج الآن بين المسرح والموسيقى والتلفزيون والسينما وأصبحت المسارح تهتم بدرجة أكبر بمشهدية الصورة أو السينوغرافيا... (4).

اختلطت الفنون المرئية بما فيها المسرح وزيادة عن السينوغرافيا التي يدخل فيها المعمار وفنّ العمارة، في هندسة ديكور أصبحت الصور الثابتة والمتحركة من المدعمات الأساسية للعرض المسرحي وهنا يمكن أن توظف القصور الصحراوية سواء في الديكور، أو في خلفية الركنح أو في الصور التي تدخل في العرض «إن التلاعب باتباء الجمهور يتم في المسرح وكذلك في

والإضافة، وعندما توافقه إبداعنا من تراث معماري وملابس ومفروشات وإكسسوارات مختلفة يستطيع من خلالها أن يضيف إلى تميزه الحرفي المسرحي تميزاً آخر على مستوى الديكور والملابس والإكسسوار. لكن المشكلة هي أنّ مسرحنا لا يعترف إلا بتراث المدينة ولذلك ينبغي أن نبحت عن من يحمل في طيات روحه هذا التراث، لأن جذوره تمتد في هذا التراث حين يوظفه في المسرح، وبالنسبة يكون هذا التراث قد استعاد حياته وأصبح عاملاً من عوامل تنمية الجهة.

2 - السينما :

السينما أكثر قدرة من المسرح على الانتشار (المسرح مؤسسة تقليدية والسينما مؤسسة تكنولوجية) وأكثر قدرة على نقل هذا التراث إلى صميم إبداعه لأن الآلة تساعد على نقل ما شاء وأراد، والصورة الملونة تمثل إمكانات وقدرات لا تقارن بالصورة الحية التي نراها في المسرح، لأن الصورة في السينما تستطيع أن تنتقل حيث شئت بينما في المسرح لا يمكن ذلك. حيث أنّ التكنولوجيا عامل حاسم في الإبداع السينمائي «وهكذا دخلت التكنولوجيا عالم الفن من أوسع أبوابه فنجدها حالياً شريكاً لكل الفنون، تحرك المنحوتات وقزج الأنغام الموسيقية وتشارك في صنع الديكور وتحكم في الإضاءة المسرحية وتنتج الخدع السينمائية وترسم اللوحات وتقوم بأرشفة التراث الفني وتحمل خيال المصمم المعماري إلى واقع ملموس بصورة لم يكن يتحكم بها في الماضي...» (8).

تعتبر التكنولوجيا وسيلة سحرية لنقل الإبداع إلى عوالم مختلفة، غريبة الأطوار، بعيدة عن الإبداع التقليدي وإمكانياته المحدودة. وهنا لا بد لنا أن نستغل السينما لنقل ونشر إبداعنا مع السينما، فقصورنا يمكن أن تكون فضاءات إبداعية متميزة يستغلها المخرج عنصرنا من عناصره الإبداعية فيعرف بها ويعرف بمبدعيها ومصمميها ومستعمليها وثقافتهم ولباسهم وحليهم ومنسوجاتهم، باختصار كل الإبداعات التي أنتجتها هذه المجموعة

السينما والتلفزيون من خلال ذلك المرح الخاص بين الصورة والحركة والصوت والإضاءة...» (5).

إنّ المخرج وخاصة من خلال إضاءة الديكور قادر على أن يعطي هذه المعالم حياة جديدة بعيداً عن المتحفية، ويمكن أن تكون دافعا لمن شاهد هذه القصور في الصورة وهي في إخراج جميل وإضاءة مدروسة قادرة على إبراز البعد الجمالي في هذه الهندسة المعمارية الفريدة، وبالتالي تكون دافعا لمشاهدتها في بيتها وموقعها عندما تتاح للمشاهد الفرصة. يعتبر دور المخرج أساسيا في هذه العملية إذ أنّه بحرفيته وفنياته وحسه الجمالي والوسائل التقنية الموضوعة على ذمته أو الخيل المتاحة لتدعيم معنى الرسالة البصرية، منها استعمال تقنية الحركة البطيئة في المسرح ضرورية إذ «الهدف من هذه الحركة هو إبطاء تصاعد الحدث أو التتابع للصور من أجل جعل المشاهد أكثر قدرة على ملاحظة التفاصيل وإدراكها، كذلك من أجل الإحياء بمعان سيكولوجية معينة قد ترتبط بالقلق أو التوقع أو التأمل أو ما شابه ذلك من انفعالات...» (6).

المسرح يملك قدرات هائلة للإقناع لأنه الفن الحسي بامتياز، وفن الحوار بامتياز ولا بأس أن نتجاوز مع ثقافتنا ويتحاور إبداعنا المعماري مع الآخر، مع المخالف، مع المغاير، المهم أن يثبت وجوده ويثبت قدرته على أن يكون جميلا، قادرا على الحياة، قادرا على أن يستقطب انتباه الناس (من حيث التخطيط، من حيث الارتفاع، من حيث الوظيفة، من حيث التحدي والشموخ، تحدي الطبيعة والإنسان والزمن)، ولربما بهذا التوظيف في الفن المسرحي أو غيره من الفنون «تستحضر ثقافتنا أمام جماهير ثقافة العولة الوافدة وستسلب منا تصوراتنا وتراثنا وتنازع إبداعنا تحت دعوى مزج الثقافات وحوار الحضارات...» (7).

باختصار، إنّ مسرحنا استطاع أن يتجاوز حدود الوطن ليصل إلى العرب شرقا وإلى الغرب بكل فروعه من ألمانيا إلى فنزويلا، ويكتسب قدرة على الإقناع

الاجتماعية، وهم يروجون للفوضى والتلقائية ويشيرون
الرغبات الجامحة على حساب سيادة العقل» (9).

الوسائل التي تنقل تراثنا، ومنها السينما، التي
نجهلها لأننا نحقرها وبالتالي سوف نبقي تحت رحمة
العارفين بها والذين لم يحسوا بهذا التراث كما نحس به
نحن الذين خلقنا بين أحضان الدافئة. هناك متغيرات لم
نفهمها ولم يفهمها أهل الجنوب الشرقي إذ أنهم مازالوا
لم يسمحو لأبنائهم بالإقبال على تعلم الفنون (هل هناك
طلبة من الجنوب الشرقي في الموسيقى، في المسرح، في
الرقص، في السينما....). إن هذه القصور لابد لها
من محامل فنية لتعيد لها الحياة وتصبح عاملا أساسيا
من عوامل التنمية في الجنوب الشرقي، ويمكن أن تكون
المهنة الفنية التي يحققرها الجنوبي مورد رزق لأبنائه،
وقد علمتنا التجارب أن هذه المهنة تدرّ أموالا طائلة على
المشتغلين بها تمثيلا وإخراجا وإدارة..

التكنولوجيا وآلاتها المختلفة نقلت المسرح إلى
السينما، وما هي تكنولوجيا المعلومات منتقل السينما
إلى الفن المتعدد الوسائط واختلطت الكثير من المسائل
بفضل تكنولوجيا المعلومات: السينما والإعلام المرئي
والتوثيق المرئي والفنون الإبداعية الأخرى التي أمكن
مزجها بالصورة، كلها اختلطت لتعطي مزيداً من الصور
ومزيداً من التوجيه لهذا الإنسان الذي أصبح مدمن
صورة بامتياز وهو مجبر على التعامل معها بطريقة أو
بأخرى.

قُصرت السينما والإعلام كذلك في نقل قصورنا إلى
خارج الوطن وحتى إلى داخل الوطن إلا في بعض
المناسبات النادرة مثل مناسبة مهرجان القصور، وبالتالي
لم نستطع أن نجعل هذه المعالم والمواقع المعمارية المتميزة
تخترق حدود وطننا حتى تصبح ذات مردود اقتصادي
سياحي أو غيره، وهذا تقصير منا نحن أبناء الجهة لأننا
لم نسهم بالإبداع، بالفن لنقدم تراثنا إلى الناس وإذا
لم نقدمه نحن فمن يقدمه؟ غيرنا!! لماذا؟ ببساطة لأننا
احتقرنا الفن، احتقرنا الفنون جميعا باستثناء الشعر وما
كان إلا أن همّشنا أنفسنا وهمّشنا تراثنا.

البشرية وخيالها الجمعي. كلنا يذكر الشهرة التي حققها
فيلم «حرب النجوم» للمخرج الأمريكي الذي وقع
تصويره في الجنوب الشرقي. إن هذه الخصوصيات الفنية
والإبداعية والثقافية نفتخر بها باعتبارها جزءاً من تراثنا،
جزءاً من روحنا ومن هويتنا، يمكن أن تكون ميزة على
غيرنا من سكان البلاد التونسية، في الشمال الغربي مثلاً
لا نجد مثل هذه الخصوصيات التي أصبح العالم المعولم
يبحث عنها لأنها تمثل شيئا مغايراً شيئا مخالفاً. فالعالم
اليوم يبحث عن النتائج الخصوصية لكل جهة سواء
كانت في الأكل أو اللبس أو الفنون وهذا ما يُصطلح
على تسديته بالفرنسية (les produits du terroir). وهذا
يساعدنا على النهوض بجهتنا اقتصاديا في ظروف لم
تعد الهجرة ممكنة كما جرت العادة عند سكان الجهة
بحكم فقرها وقساوة مناخها وعنف طبيعتها، ولكن
قلوب أهلها كبيرة وخيالهم ممتد امتداد الصحراء وكرمهم
وشهامتهم يتحدث عنها القاصي والداني. إن توظيف
القصور في السينما التونسية وغيرها من الإبداعات نادر
الحدوث وهذا جهل فادح وتقصير نلام عليه نحن أهل
الجهة لأن عقليتنا عقلية متحجرة ونظيرتنا للفن التي لا
تؤمن بأنه مهنة شريفة، ما زالت متخلفة جدا، كل فنان
عندنا، إلى اليوم، هو غير أخلاقي، وبائسي لا توجيه
أبناءها إلى المهنة الفنية لأنها محقرة عندنا وعقليتنا عقلية
فقيرة بالأساس، كما ذكر الأستاذ خليفة التليسي، نحقر
الفنون ولا نحترمها، وبالتالي لا نحترفها، والنتيجة أن
تراثنا الفني ما زال لم يلق حظّه من الرواج وهذه مهمة لا
يمكن أن يقوم بها ويُقيّنها إلا صاحب العلاقة لأنه يعطيها
من روحه وإحساسه وعواطفه، باختصار ينقلها بصدق
ومحبة وبروح العارف، بروح الجذور وعطر الهوية
وبخور العادات والتقاليد.

كما نرى أنه من الضروري أن تتغير عقليتنا وننظر إلى
الفن نظرة أكثر تسامحا وأكثر احتراما وأكثر إقبالا لأننا
-مع الأسف الشديد- مازالنا نهمل الفنون. وعموما فإن
نظيرتنا إلى الفن «أخيرة» بالانتهامات والتقد اللاذع...
الفن غير جاد وينظر إلى الفنانين كنوع من الطفيليات

الوسائل السمعية البصرية المتعددة الوسائط:

هذه قمة العلم، عندما نقول تكنولوجيا المعلومات فإننا نقول قمة العلم، العلم الذي بدوره يعتبر الإنسان جاهلاً. وإذا احترق أبناء جبهتنا الفنون (مسرح، موسيقى، رقص، سينما...) فإنهم لن يحرقوا العلم وقمته الإعلامية فقط بل احترقوا تراثهم الذي لا يمكن أن يعاد إليه الاعتبار إلا عن طريق هذه الإنجازات العلمية الفنية. هذا العلم الذي حرّر الناس وحرّر المبدعين وأخرجهم من عزلتهم الجغرافية وألقى بهم في يَمّ أمواجه متلاطمة وهو عصر العولمة، عولمة الاقتصاد والثقافة والعلوم.

كُلّ الصناعات الثقيلة والخفيفة تتطلب استثمارات كبيرة أو متوسطة إلا صناعة الذكاء في تكنولوجيا المعلومات فهي لا تتطلب استثمارات كبيرة. لا نحبّ الفنون وليس لنا رؤوس أموال كبيرة فما الحلّ إذن؟ الحل يكمن في أن نتعلّم السيطرة على التكنولوجيا والوسائل المتعددة الوسائط ونعتزّ بتراثنا ونوظفه توظيفاً جديداً عن طريق هذه الوسائل. يمثّل التراث مادة أولية هامة لصناعة الثقافة التي تمثل بدورها أهم صناعات عصر المعلومات «وليس أمّامنا في حالنا هذه إلا بديلان، إما أن نتخلى فناً متميّزاً وإما أن نستورده على حساب مزيد من اختلال ميزان مدفوعاتنا مادياً وثقافياً...» (10).

إنّ جمع التراث في الجهة، سواء التراث المعماري أو غيره، من الإبداعات ومنه قصورنا واستثماره في مواقع WEB يعدّ عملاً هاما سواء على المستوى الإبداعي أو على المستوى الاقتصادي «مثلما أسهمت تكنولوجيا المعلومات في صميم عملية الإبداع الفني الحديث، فهي توفر كذلك طرقاً عدّة لنشر إنتاج المبدع لتحرّره من قبضة الناشرين وأصحاب قاعات المعارض ولجان مقتنيات المتاحف. إنّ الأنترنت في طريقها لكي تصبح أكبر متحف لعرض الفنون وأكبر قاعة لسماع الموسيقى وأكبر سوق لتبادل منتجات الفنون وأكبر أرشيف لتراث الإبداع الفني...» (11).

قال العرب قديماً «ما حكّ جلدك مثل ظفرك» ونحن

نقول إنّ لم نقم نحن بخدمة جبهتنا وتراثها وثقافتها وفنونها فلن يخدمها أحد آخر إلا إذا سطا عليه وسرقه أعداؤنا ونحن ننظر لا حول لنا ولا قوة. فلنستغل تكنولوجيا المعلومات وما توفره وسائل الاتصال الحديثة والمعلوماتية وما توفره من إمكانيات هائلة للتعريف بهذا التراث وجعله ذا مردود اقتصادي يعود بالنفع على الجهة أولاً وعلى الوطن ثانياً: «يحتاج تراثنا الحضاري والفني إلى استخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة في صيانته وترميمه وأرشفته وإعادة استخدامه وتوظيفه. إنّ لم نتول نحن هذا الأمر فيستكفل به غيرنا خاصة وأنّ المادة التراثية الحام تعتبر في الكثير من الأحيان ملكية مشاعة للجميع، وحتى وإن لم تكن مشاعة فقد قمنا من تلقاء أنفسنا بتعريض تراثنا لنهب والضياع...» (12).

القصور تراث معماري فريد ومتفرد لا نجد له شبيهاً إلا في اليمن (هل هناك قرابة ما بين اليمن وبربر شمال إفريقيا؟) وهنا يمكن أن نعود إلى المقالات التاريخية القديمة التي تعتبر اللوبيين عرباً كنعانيين... ويعتبر هذا الفن مصدرنا أساسياً للصناعة السياحية في هذا البلد. إنّ هذا الفن المعماري سواء من حيث التخطيط أو من حيث الفضاءات، أو من حيث المواد الأولية المستعملة التي تألفت من البيئة والمناخ والطبيعة تعتبر ثروة هامة - مع الأسف الشديد - أصبحت آيلة إلى النسيان والإهمال ودخلنا عصر الإسمنت المسلح في حين أنّ الغرب يعيش أزمة فن العمارة «الآن في أزمة العمارة حيث اللقاء الساخر المباشر بين الفن والتكنولوجيا. لقد أدرك هذا الفن مدى الضرر الذي لحق به الحداثة بعد أن حصرته في نطاق وظيفي ضيّق لتطبيع بالقيم الجمالية وبخصوصية المكان وطابعه. لقد أعلن معمار التخطيط (Déconstruction) العصيان على رتابة الخطوط الأفقية والرأسية وانتظام المساحات والفراغات بل وثبوت الجدران والأعمدة أيضاً...» (13).

إذا تمكنا من الإعلامية وتكنولوجيا المعلومات فإننا سيطرنا على وسائل يمكن أن نستغلها أفضل استغلال في المحافظة على ثروتنا الروحية والمادية وإعادة توظيفها

الالتفات إلى تراثنا، إلى ذكرياتنا إلى إيماننا الذاتية لتتبدّر مورد رزقنا، فالخصار مضروب حولنا، الفقر أماننا والأعداء خلفنا.

نكره الفن ولم نتربّ عليه، معقول جدا، هذه عقليتنا وتغيير العقليات صعب، فلتنجه إلى تكنولوجيا المعلومات ولتسلّح بها ولتلتفت إلى تراثنا فهو معين لا ينضب وخاصة إذا عرفنا كيف نعيد إليه الاعتبار عن طريق توظيفه في إبداعاتنا، نحن أصحاب الشأن وأصحاب القرار وعلى ذلك فليتنافس المتنافسون.

حتى تكون ذات مردود اقتصادي وثقافي وحضاري نحن في أمسّ الحاجة إليه لأننا أصبحنا نعيش حصارا ثقافيا (ثقافتنا محاصرة لأنّ العربي منهم) وحصارا اقتصاديا لأنّ بضاعتنا غير مدعومة بألة عسكرية رهيبه ولا تملك تقاليد إنتاجية عريقة وحصارا اجتماعيا لأنّ الهجرة التي كنا نعتمد عليها منذ أقدم العصور باعتبارها مصدرا من مصادر رزق التونسي عموما، وخاصة في الجنوب الشرقي، فقد وقع التضيق عليها أو انعدمت، وبالتالي لم يعد أماننا من خيار سوى

الهوامش والإحالات

- 1) شاكر عبد الحميد: عصر الصورة، عالم المعرفة، الكويت، 2005، ص. 7.
- 2) نفس المصدر، ص. 9.
- 3) د/ نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، الكويت، 2001، ص. 8.
- 4) شاكر عبد الحميد: عصر الصورة، مصدر مذكور، ص. 302.
- 5) نفس المصدر، ص. 206.
- 6) نفس المصدر، ص. 297.
- 7) د/ نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، مصدر مذكور، ص. 30.
- 8) نفس المصدر، ص. 481.
- 9) نفس المصدر، ص. 481.
- 10) نفس المصدر، ص. 488.
- 11) نفس المصدر، ص. 484.
- 12) نفس المصدر، ص. 488.
- 13) نفس المصدر، ص. 492.

أطلس القصور بالجنوب التونسي (*)

تأليف هريرت بوب وعبد الفتاح الفاضل

حول القصور باللغة العربية، وهي ثغرة تحتاج لمن يملؤها من الباحثين الشبان.

ويمثل دراسة كمال لعروسي باحث الأنتروبولوجيا بمنطقة المناطق القاحلة بمدينين محاولة أولى لتقديم شامل ومسور لهذا التراث المعماري ثم جمعه في شكل قرص صلب (3). ورغم وجود بعض الدراسات الأكاديمية المتخصصة التي تناولت جوانب محدّدة من تراث القصور مثل العمارة أو التاريخ أو الزخرفة فإن عالم القصور أثبت أنه عالم معقد ومتشعب ويستدعي تضافر جهود عدّة باحثين من تخصصات علمية مختلفة للإحاطة بجوانبه المختلفة.

وفي مجال عمارة القصور على سبيل المثال تبين أن اشتراك عدّة كفاءات تونسية وإيطالية سمح بإنجاز دراسة قيمة مكنت من إبراز خصوصيات وميزات هذه العمارة (4).

وفي مقابل هذا العدد المحدود من الدراسات الأكاديمية فإن قصور الجنوب التونسي حظيت باهتمام كتب الإرشاد والدعاية السياحية وكذلك مواقع الانترنت

المؤلفات العلمية حول قصور الجنوب التونسي قليلة. ولا يزال كتاب أندري لوي حول القصور والفري الجبلية بالجنوب التونسي الذي صدر سنة 1975 مرجعا مهمّا (1) وهو يتميز بمقاربة سوسولوجية وأنتروبولوجية اعتمد فيها الكاتب على كمّ هائل من الدراسات والوثائق التاريخية التي أنجزت خلال الفترة الاستعمارية، وأثرها بمقابلات وشهادات شفاهية عديدة. لذلك فإن الكتاب يمثل مرجعا ضروريا لفهم التحولات السريعة التي شهدتها قصور الجنوب الشرقي بعد الاستقلال.

غير أن التركيز على التناقض والصراع بين العرب والبربر في هذا المجال الشبه صحراوي يبدو مبالغ فيه. لذلك فإن الكتاب الذي ألفه زايد عبد الصمد أستاذ الأدب والحضارة العربية حول عالم القصور يمثل محاولة لتعديل هذه النظرة (2). واعتمد المؤلف بشكل كبير على التاريخ الشفوي والزيارات الميدانية وركز بشكل خاص على الأبعاد التاريخية والاجتماعية والثقافية لعالم القصور. إلا أنه لا يوجد لحّد الآن مرجع شامل

(*) تقديم كتاب «أطلس القصور بالجنوب التونسي» وهو من تأليف أستاذ الجغرافيا الألماني هريرت بوب والجامعي التونسي عبد الفتاح الفاضل

إلا أنها تقدم في الغالب معلومات سطحية وأحيانا مشوهة عن هذه المعالم.

وفي كل الحالات فإن ما كان ينقص لحد الآن هو إحصاء شامل ودقيق لجميع قصور الجنوب الشرقي وقراءة تأليفية لهذا التراث من مختلف أبعاده التاريخية والجغرافية والاجتماعية والمعمارية والثقافية. ويمثل كتاب أطلس قصور الجنوب التونسي أول محاولة جادة لتحقيق هذا الهدف (5).

أغزى الكتاب في إطار برنامج بحث تونسي ألماني وألفه جغرافيان: الأستاذ هربرت بوب من جامعة بايرويت الألمانية والأستاذ عبد الفتاح القاصح من جامعة صفاقس. ويرز إعطاء الأولوية للمقاربة الجغرافية من خلال القيام بإحصاء شامل لجميع القصور الموجودة في الجنوب الشرقي والتركيز على تحديد مواقعها وتمثيلها خرائطيا وإبراز خصوصيات مواضعها بالاعتماد على الخرائط الطبوغرافية وصور الأقمار الاصطناعية وإحداثياتها الجغرافية. وهو ما يبرز اختيار اسم «الأطلس» لهذا المؤلف.

ويتضمن الكتاب بابين رئيسيين: وفي الباب الأول تم تقديم قراءة تأليفية شاملة للقصور من مختلف الجوانب: الطبيعية والتاريخية والاجتماعية والمعمارية والوظيفية. ويتبين من خلال هذه القراءة أن ظاهرة القصور تنتشر في التخوم شبه صحراوية بالمغرب العربي. وهي منشآت مبنية تتمثل وظيفتها الأصلية والأساسية في تخزين المحاصيل الزراعية للمجموعات السكانية التي تعيش في هذه التخوم، سواء كانت بدوية أو مستقرة. فالقصر هو عبارة عن مخزن جماعي ولكن داخله تكون خلايا الحزن، أي الغرف، ملكا لعائلات وأفراد. وهو ما يمثل توازنا فريدا وطريفا بين الفرد والمجموعة.

وتواجد القصور في هذه المناطق الجغرافية ليس

من قبيل الصدفة فهي أقاليم تتميز بالجفاف وعدم انتظام الأمطار مما يؤدي إلى عدم انتظام الإنتاج الفلاحي وهو ما يستلزم تخزين المحاصيل الزراعية ليتم استهلاكها طيلة سنوات عديدة. وتمثل هذه المدخرات الغذائية مطمعا للغزاة ونظرا لبعد هذه الأقاليم عن مركز السلطة السياسية فإن سكانها بحاجة مستمرة إلى الدفاع عن الذات من أجل البقاء. لذا فإن القصر يتخذ شكل بناية حصينة يقوم على حراستها من تكلفه المجموعة بذلك وعند الحاجة يتحول القصر إلى ملجأ آمن بإمكانه الصمود. وبالنسبة للمجموعات البدوية ذات نمط العيش الترحالي فإن القصر يستخدم أيضا لحفظ الأدوات الفلاحية للتخفيف من ثقل الأحمال عند الترحال.

وهكذا فإن القصر يمثل ضرورة للمجموعات البشرية القاطنة بهذه التخوم الصحراوية وهو كذلك اختيار لمواجهة التهديدات الخارجية والبقاء. ويتبين من خلال التحليل التاريخي أن القصر لم يكشف بعد عن الطرويق التي نشأ فيها. فالاعتماد على النقش الموجودة في مدخل القصر القديم أو قصر وثانيه بالطولونية والتي تُوِرُخ بناء القصر بسنة 480 من وفاة الرسول (أي ما يطابق سنة 490 هجرية وسنة 1096 للميلاد) يثير إشكالية بروز القصر كمعلم متكامل الهندسة والمعمار وجاهزا للاستخدام منذ نشأته الأولى. لذلك فالأرجح أن للقصور جذورا ضاربة في القدم وأنها شهدت تطورا مستمرا مستلهمة من مؤثرات حضارية ومعمارية عديدة ساهم الموقع الجغرافي بين حوض المتوسط والصحراء الكبرى في بلورتها وتطورها عبر العصور. وتمثل دراسة القصور في محيطها الجغرافي وسياقها التاريخي إحدى الإسهامات المميزة لهذا الكتاب.

والقبيلة هي المؤسس والمتصرف والمستفيد من مؤسسة القصر. وخلافا لقصور المغرب الأقصى والتي يطلق عليه

البناء وتطويرها لثلبية حاجاته الأساسية. وقد ساهم تطور تقنيات البناء في استخدام مواد بناء جديدة وأساليب مستحدثة لبناء الغرف إلا أن القصور حافظت عبر التاريخ على خصوصياتها المعمارية وجمالياتها التي تتحدى الزمن .

ورغم هذا التنوع والثراء فإن جميع القصور شهدت تراجعاً تدريجياً في وظيفتها الأصلية انتهى بها في الأخير إلى الإهمال والخراب. ويمثل انتصاب الأمن وانتفاء الحاجة للدفاع الذاتي وتفكك الروابط القبلية أهم العوامل التي ساهمت في التخلي التدريجي عن القصور كمخازن جماعية.

غير أن موقف السلطات العمومية منذ عهد الحماية وكذلك بعد الاستقلال عجل بتدهور القصور وخرابها. فالقصر كرمز للتسيير المحلي والاكتفاء الذاتي والسيطرة الثابتة يتناقض مع ما تسعى إليه كل سلطة مركزية من بسط نفوذها وتوحيد أسس التعايش والبقاء. وبالإضافة إلى ذلك فإن المفهوم السائد للحداثة لدى النخب التي قادت الحركة الوطنية يتناقض مع ما ترمز إليه القصور من انتماء قبلي وتشبث بالعادات وتمسك بنمط العيش التقليدي. وأمام هيمنة التصور الجديد للحداثة وحركة التعمير والتمددين التي شهدتها المنطقة تدخلت الجرافات لتزيل عددا كبيرا من القصور العريقة وتلتفح المجال لنمو حضري سريع وعشوائي شمل بالخصوص مدن مدين وجرجيس وبنقردان وبني خدّاش. ولحسن الحظ فقد حافظت عديد القصور النائية والمعزلة على طابعها الأصيل والمعيز إلا أنها لم تسلم من الإهمال والخراب.

وخلال السبعينات من القرن الماضي تظعن البعض إلى القيمة الجمالية والفنية للقصور. ومع تنامي السياحة كخيار تنموي ورافد أساسي للتنمية الإقليمية وقعت محاولات لترميم بعض القصور وتوظيفها سياحيا ولكن بقيت هذه المحاولات محدودة ولم تحقق

إسم الأغادير (جمع إيفودار) وإيغرم (جمع إيغرمان) والتي تنتمي لمجموعات قبلية كبيرة وشهدت استقرارا في تركيبها الاجتماعية لفترات طويلة، فإن الجنوب الشرقي التونسي غنيز بتواجد فسيفساء قبلية وتغيّر مستمر في التحالفات والولاءات وهو ما أدى إلى تعقيد كبير في الوضع العقاري للقصور وحقوق التملك داخلها.

ورغم ما يبدو من تشابه بين القصور واشترك في مكوناتها الرئيسية مثل السقيفة والساحة الوسطى والغرف والطوابق فإن قصور الجنوب التونسي تتميز بالثراء والتنوع باختلاف الأوساط الطبيعية والظروف التاريخية والبنى الاجتماعية. وتشير الدراسة إلى نقائص مختلف التصنيفات المعتمدة للقصور مثل التصنيف الطبوغرافي أو التاريخي أو القبلي أو المعماري أو الوضع الحالي للبيئات. ويمثل تصنيف القصور إلى ثلاث مجموعات: قصور القمم وقصور الجبال وقصور السهول، أفضل التصنيفات للتمييز بين مجموعات لها خصائص تاريخية ومعمارية وموضعية مشتركة.

فقصور القمم هي الأعلى والأقمت وتجاور القرى البربرية القديمة والمساكن المنقورة في الصخر ولها صيغة دفاعية. ونظرا لضيق المساحات التي بنيت فوقها فهي توسعت عموديا وتعددت طوابقها.

القصور الجبلية تقع أيضا فوق المرتفعات إلا أنها أقل حصانة وأيسر بلوغا وهي تشرف على الوديان والسهول المجاورة وتهيمن على مجالات زراعية ورعوية متنوعة ويكون السكن مشتتا على أطرافها.

أما القصور السهلية فهي الأحدث والأقل ارتفاعا ولا تمتلك خاصيات دفاعية بل تعدد فيها المنافذ والأبواب وأنشأتها المجموعات البدوية التي استقرت حديثا محاكية في ذلك القبائل والمجموعات المستقرة منذ القدم.

ومثل عمارة القصور درسا بليغا في تأقلم العمارة مع معطيات البيئة المحلية وتحكم الإنسان في تقنيات

التنمية السياحة المنشودة. وبقي التوظيف السياحي للقصور مقتصرًا على الزيارات العابرة والتقاط الصور والفرجة.

وفي السنوات الأخيرة نما الوعي لدى النخب وعديد الجماعات المحلية والجمعيات التنموية بالقيمة التراثية للقصور وإمكانية توظيفها في سياحة ثقافية راقية وإنجاز تنمية محلية تحقق المصالحة بين التراث والحداثة. لذلك تعددت مشاريع صيانة وترميم القصور وظهرت مبادرات جديدة من الخواص والجمعيات التنموية لتوظيف القصور سياحيا وثقافيا وتنمويًا.

وتمثل الفترة الحالية مرحلة هامة ودقيقة في حياة القصور فيعقبها يتجه إلى الخراب والزوال النهائي وبعضها يتم تغييره بشكل كلي وشامل والبعض الآخر يتم ترميمه دون تصوّر مسبق لما سيكون عليه استخدام المستقبل. فالقصور اليوم هي تراث ثقافي فريد جدير بأن يحفظ للأجيال القادمة. وفي كل الحالات فإن هذا الخزون التراثي الفريد بحاجة إلى تخصيص وتوظيف وتعريف قبل أن يشمل الخراب أو يحلّهُ التشويه. وهذه الأهداف هي التي سعى إلى تحقيقها أطلس القصور في بابيه الثاني.

يمثل الباب الثاني من كتاب أطلس القصور بالجندوب التونسي الجزء الأكبر من الكتاب ويتضمن وصفًا دقيقًا وتفصيليًا لـ 92 قصرًا. واتبعت نفس المنهجية في عرض كل قصر. فالمعطيات المقدمة تتضمن اسم القصر والأسماء الأخرى التي اشتهر بها أو كتب في المراجع والخرائط، والإحداثيات الجغرافية للقصر بناءً اعتماداً على المنظومة الشاملة لتحديد المراجع GPS، والموقع الإداري، وطريقة الوصول إلى القصر، ووصف المحيط الجاور للقصر، وتاريخ بنائه، والانتماء القبلي، وعدد الغرف، وعدد الطوابق، وعدد الأبواب، والحالة المعمارية الحالية للقصر ومؤهلاته السياحية.

وبالنسبة لهذا العنصر الأخير وحرصاً من المؤلفين على تنمية سياحة ثقافية راقية ومسؤولة، فقد تم تصنيف القصور حسب جاذبيتها السياحية إلى قصور جديرة في كل الحالات بالزيارة وقصور تستحق الزيارة وقصور تستحق اهتمام السائح وأخيراً قصور ليست ذات قيمة سياحية بسبب الخراب أو التشويه الذي لحقها.

وبالإضافة لهذه البيانات تتضمن الصفحات المخصصة لكل قصر صورة للقصر مأخوذة بالقمر الاصطناعي وخريطة طوبوغرافية تفصيلية للقصر في محيطه الجاور وعدداً كبيراً من الصور الملونة المأخوذة من مختلف الزوايا والجهات.

كما يشمل تقديم بعض القصور نسخاً من بطاقات بريدية تعود لبدايات القرن الماضي. ومن الطريف أن قصر النخلة بمدنين تم توثيقه ببطاقة بريدية قديمة تبرز مختلف مكوناته القديمة وإلى جانب هذه الصورة وضعت صورة حديثة لما تبقى من قصر النخلة... وهي النخلة (د. 199).

ويتضمن الكتاب عدداً من التصميمات الدقيقة لأجزاء القصور المولدة سياحياً كلياً أو جزئياً. وتشمل التصميمات الاستخدامات الحالية والتجهيزات المستحددة والمرافق السياحية.

وحتى يتسنى التحديد الدقيق لهذه القصور داخل مجالها الجغرافي وضعت خرائط شاملة وتفصيلية رسمت فوقها القصور مرقمة وهو ما يسهل عمليات التعرف عليها والوصول إليها. ويتضمن الكتاب فهرساً دقيقاً لجميع القصور المذكورة. ولا تقتصر قائمة المراجع على الدراسات والمقالات والبحوث التي تناولت قصور الجنوب التونسي بل تتجاوزها لقصور المغرب العربي بما في ذلك ليبيا والجزائر والمغرب.

وقد تم إنجاز الخرائط بناية فائقة في جامعة بايروت الألمانية. كما أن الطبع تم بشكل ممتاز ورفع بألمانيا

التخصصات العلمية وللمتدخلين في مجالات السياحة والتراث والتنمية وللسياح الراغبين في الاستكشاف وكذلك لجميع المولعين بالتراث الثقافي قاعدة بيانات شاملة ومتنوعة لتراث فريد جدير بالحفظ والصيانة والتوظيف.

حسب أحدث المواصفات التقنية وهو ما أكسب الكتاب قيمة علمية وفنية فريدة. وعموما يمثل أجلس الصور بالجنوب التونسي وثيقة علمية وتاريخية وفنية. وهو يوفر للباحثين في مختلف

الهوامش والإحالات

- 1) André Louis: Tunisie du Sud, ksars et villages de crêtes; CNRS Paris 1975, 370p.
- 2) Abdesmad Zaïed: Le monde des ksours du Sud-Est tunisien; 1ère édition; Beït Al Hikma Carthage 1992, 268p. 2ème édition sans mise à jour: Centre de Publication Universitaire Tunis 2006, 236p.
- 3) Kamel Laroussi: CD interactif Panorama des Gsour du Sud-Est tunisien 2004.
- 4) Marinella Arena & Paola Raffa (édit.): Ksour della regione di Tataouine, Edizioni Kappa Roma 2007.
- 5) Herbert Popp et Abdelfettah Kassah: Les ksour du Sud tunisien, Atlas illustré d'un patrimoine culturel; Bayreuth Allemagne 2010, 400p.

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

حوار مع القصر

المبروك الحمدي (*)

ريت كيف جواقصورنا يتمادي
وجود قصرنا من العادة
ووقناش حفروا ساسك
مجعول للفلاح يحفظ زاده
ووقناش ببنائك ضبط قياسك
بصوت الوفاء صارحني
أوقناش بوجودك اهتما ناسك
يا قصر نترجاك ما تمحني
وشيك شمش شيد على معتاده
يا قصر خوذ ابخاطري وانصحي
أوقناش برزوا وابندوا حراسك
إذا نصحتني البصحك إنال فاده
وفيك نجح ورغمة نصب ميعاده
يا قصر غير نخرجك سامحني
نسترشدك ألما جرت العادة
ووقناش ببيك اهتسوا
يا قصر ما انخبيني
وجعلوك مركز نجح بيك استوا
يا قصر نسأل يلزمك جاونبي
وقدأش في وسطك اعروش التوا
كثير جمعهم ولا قليل إغداذه
يا قصر نبحت للهدف قزبي
وكاتوش لجل المصلحة بلنتوا
اليوم جيت عبر نطلبك بشهادة
يعطوش قيمة للحكم والقاده
ياقصر من وقناش سورك مبني
وقدأش ببيك اعتزوا
وأش عشت في عمرك هناء وسعاده
وقدأش حراسك خروا وخزوا

(*) قصيدة للشاعر التونسي المبروك الحمدي تتمثل أهميتها إضافة إلى قيمتها الفنية المتميزة، في تصويرها للمفاصل التاريخية الثلاث في حياة القصر على مر العصور، قصيدة سجلها صوتها ودونها الباحث كمال العروسي.

وقد اش دخلوك حملو ايدزو
وقطعوا صحاري واسعة وحماة
وقد اش في عصر ك رجال غزوا
محاسن ايديهم للعطاء مداة

يا قصر في انتظارك
يا قصر جابو نستع لأخبارك
يا قصر مارشش خصص ومعارك
نهار دعة امر صوبغ واللباء
يا قصر وصخلي جميع اسرارك
ذليل كنت ولا تعيش ذات سيادة

يا قصر خود ايجاهي
يا قصر عشش في حياتك زاهي
في ما مضى كانوش فيك مقاهي
وناس إلى يحبوا الفن والعودا
ولا بوادي بكنفوا بالشاهي
وبعطوا الكرم للضيف وقت اقصادا

القصر قال اصبر
انقصر جوابي وزشداك وانخبر
نكهننت يا شاعر عليك انعب
احب التزيه وتقتنع بارشادا
كيف الصلاح كيف الطغي وتجبر
ليه عمر لازم ينتهي باعدادا

كانوش فيك سقايف؟
كانوش فيك سقايف

وكانوش في وسطك عبيد طوايف
وحفلوش فافراحت بنات عقايف
يجلوا على القلب الحزين كسادا
ودخلوش ميدانك اصحاب وظايف
القائد وشيخ المنطقة وافرادا
من الزاس حتى الشارب السوادا

نعطيك معلوماتي
وقصة طويلة مخصصة بحياتي
والفت اسماعك للخبر الاتي
فريقن عمري واربعين زيادا
وليامر نكبس عالذكر والعاني
وترخف عللي يزحفوا مزادا

دخلوكشي قومية؟
دخلوكشي قومية
وقوات وعساكر افرسايوة
وشواش محنوفين بمخازينة
وقبطان تنباقص انجور افرادا
وهوكة الجماعة لي يخدموا سرينة
شواشيد عند افرانسا قوادا

لثأمر ونجارهم

لثأمر ونجارهم

إذا عشت يا شاعر انشوف عجبهم
صناديد ياسر كُشروا مركبهم
بين الفتن والنصر واستشهاد
إذا توروا ابدوروا على صاحبهم
يخونوا العواهد يعكسوا مَرَمَادَ

في مرحلة شبابي

في مرحلة شبابي

حياة عز كنت العيش فوق هضابي
ترفرف علي راية الدثابي
في ظل هيبة نجعنا وقياد
وفيما انتصف عمري عملت احسابي
وليت نشعر بالخطر وابتدأ

لنكار مني حارت

ولثأمر بنكدها علي دارت
دخلت غلي افرانسا بكارط
وجوبشها تصعب على العداد
وقولها انا لي لعبار الفارط
الفارس يموت الصُبع فوق ازناد

رُذِمت على حوانيتي

ودخلت رخت الخيل في كنايتي
وشعلت حرايق في الشمن وزيتي
دخاخين لهبت نارها وقاد

أفريل 2010

الى الآن تاجد أثرها في حيطي
شطر قرن صابغ في الحيوط سواد

جابهت كل صعوبة

منين المدافع ترضوا القاروية
خشد نجعنا ورزمت اطبول احروية
تحس برز برهن على استعداد
ولعقاد جت امحدره مصلوبة
طوبر دمر في جيوش القطا صياد

انتشرت خُصم ومعارك

كل بطل غامر واندفع وشارك
من الشيخ لبيض الولد امبارك
والحاج ولي مثلهم قذاد
الناس الي يموتوا الصُبع فوق الحاراك
ولا حكم لستعمار واستبداد

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

حرب الفناء عتيلة

وحسن الهزيمة نجعنا تقربله
وفرر وطن اطرابلس يهوبله
وتطمان في القطر الشقيق اولاده
توقع خطر ابطاليا من قبيله
استسلم رجع مفهور ماله راده

لا من بقي بتكلم

خمد نجعنا بعد الهزيمة سلم
مفهور عايش في ظلامر امظلم
بذل جهد لاكن خاب في اجتهاده

الحياة الثقافية

وَأَنَا مَرِيضٌ ابْغَضْتَنِي نَتَأَلَّرُ
إِشْرَمَ أَخْبَالِي وَأَنْتَ طَعَجَ جَدَّادُ

تَعَانَيْتُ مِنْ نَكْسِهِ شَدِيدٍ مَرَضُهَا
عَلَى يَدِ صَاحِبِ مَقْدَرَةٍ وَبِرَادُ
رَفَعَ اسْمُ تُونِسٍ مُغْرِيقٌ قَدْهَا
دَحْرَ خَصْمٍ قَلَعَ مَلُوطُنَ إِزْصَادُ

أَوْهَامُ زَالَتْ مَتْنِي
اسْتَبْشَرْتُ وَلَّى خَاطِرِي مَتْنِي
تُونِسُ خَذَتْ الدَّخْلِيَّ وَشَمْلَنِي
وَخَابَتْ نَوَابِ مُنْغَصَّةَ حَسَادُ
تَرَابٍ عَسْكَرِي كَانَ الْعَدُوَّ جَاعِلْنِي
وَقَالَ الْجَنُوبُ أَمْلَدِينَ أَقْلَادُ

اسْتِفْلَالٌ قَالَ أَمْلَدُ
مِنْ الزَّاسِ لِلْهَيْبَةِ رَفُضٌ وَتَرْدُ
خَطْنٌ بِهِ بَرَقِيعةٌ رِطٌّ وَشَدُّ
وَزِيرٌ كَبَسَ وَشَدَّ مِلْعَقَادُ
وَلَكِنَّهُ رَجَعَ، مَتَّ الرِّسْنَ وَقَادُ

وَلَّى اعْتَرَفَ الزَّامِلُ
وَوَافَقَ عَلَى اسْتِفْلَالِ تُونِسٍ كَامِلُ
مِنْ السَّافِيَةِ الْفَارَةَ عَمْرُ الْهَامِلُ
لَطْرَابِلِسَ لِأَقْصَى الْبَحْرِ وَابْعَادُ
عَنَرُ وَطْنَا جَرَّ الْفَرْحَ الشَّامِلُ
وَالْفَضْلُ لِلدُّسْتُورِ وَلَّى قَادُ

قَدْ أَشَاشَ بَاشٌ أَنْغَرَفُ؟

تَقَاصَيْتُ لِأَخْرٍ دَرْجَةٍ
أَحْوَالُ تَاعِبَةٍ يَأْتِي الْكُرْهُمُ إِنْجَرَجَةٍ
سَكَنَتْ حِسَّ نَجْعِي لَا خَصَصَ لَا هَرْجَةٍ
طَفَى الْجَمْرُ عَقَبَ فَلْخَفَرُ زَمَادُ
وَحَلَسَ عَلَيْهِ الْخَصْمُ رَامِي سَرْجَةٍ
وَشَوَّكَ أَرْكَابَهُ وَلَخَّ فِي مِلْهَادُ

عَشْنَا عَلَى هَالِصِيْفَةٍ

عَشْنَا عَلَى هَالِصِيْفَةٍ
حَيَاةٌ ذَلٌّ فِي الْبَاطِلِ أَنْعِشُوا جَبِيْنَةَ (هَاشَاكُمُ)
وَكَبَسَ عَلَيْنَا الْخَصْمُ وَمَخَاطِيْفُهُ
وَالْفَرُّ غُلْغُلٌ فِي الْجَنُوبِ أَوْتَادُ
وَالْفَارُ عَالِقُ طُوسٍ عَامِلٌ كَيْفُهُ
وَالضَّرُّ لَا يَدُ وَالْقَطَا بِصُطَادُ

دَارُ النُّلُوكِ بِسَانُوَارُ
وَحَسَمِيَّتُ يَغْمُرُنِي فَرْحٌ وَابْشَارُ
وَلَيْتَا مَرْزِيَّ الْحَيْلِ عَالِجُ زَارُ
تَمَرُّشٌ وَشَبْرِي وَفَارَحَةُ وَكَسَادُ
وَكُلُّ مَا صَبَرْنَا مَا مَشَاشُ خَسَارُ
جَبِيْ يَوْمِ نَتَنَا الْمَرَضُ وَانْكَادُ

هَازِي صُورَ نَعْرَضُهَا

هَازِي صُورَ نَعْرَضُهَا
رَمُو حَالَ نَرْضَى رَغْبَتَكَ نَرَفُضُهَا

قدّاش باش انخرّف
تأمل جوابي منه زيد انعرّف
أمس على شط الهلاك انشرّف
نرى الفقر يجعلني محل اقصاء
واليوم مشري في البنوك انصرّف
اندعمر شرف الوطن واقتصاد

أصبحت الدول تعجبهم
من المانيا وسويسرا نجلبهم
جو النفاهة وتربتي ترغبهم
وفيهم التّيسى ما ترك في ابلا
إنناسب مناخي الفرحهم وطربهم
ونوم عذب يشعر بيه وقت رقاد

وكل من مشي مني رجع في محافل
خديت اسر في الخارج وتبل سعاد
وكل يوم تدخل من جديد فوافل
تفرغ وتقلّى صادرة ووزاد

انظنه جوابي كافي
انظنه جوابي كافي
تمعت يا شاعر خديت أوصافي
يكفي العلم التونسي رفرافي
وتتمتعوا بالفخر والسياد
والفضل يرجع للحبيب الصافي
والحزب ولبي يحسنوا القيادة

ريت كيف جو اقصورنا يتمادى
وجود قصرنا من العاد
مجهول للفلاح يحفظ زاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.com

سرت يقضتي في الغافل
وطقت في حضني قلبك ومافل

القصـور

علي الجليدي (*)

إن هزك الشوق أو سافتك أخبار
صانوا حماها وزادوا الأصل مفخرة
فاسأل قصورا كستها المجد آثار
لما كستها من الاسلام أنوار
يمضي الزمان ولا تمحى معالمها
أضحت رباطات دين الله ثابتة
وكيف يححو منبع العز أعصار
وزال عن أرضها الاشرار والعار
سل هذه الأرض كمر من أمة نهشت
منها بعد جيلوش الله صادقة
على ثراها وفيها الخير مديار
إن رامر قلعاتها الشماء كفار
سل القصور اذا ماشنت معرفة
فيها الذخائر والأموال أمانة
اذ خلف زخرفة الآثار أسرار
من سطوة الغدير إن الدهر غرار
سل كل نافذة فيها وزاوية
فيها يحل تراع القوم إن بطروا
عن أمه سينها للأفك بتار
بالسلمر حيناً والتنكيل إن جاروا
عن لوين بنوا أركانها ومضوا
سلها تجبك عن التاريخ ناطقة
بالصمت والصمت في التبليغ عتار
والعرب من بعدهم في الخير قد ساروا

(*) شاعر، تونس

عن الشجاعة والإكرام في سرف

عن التحدي ولو في ذاك أضرار

عن شدة البربر الأجلاف عن عرب

والعرب من قبل في التاريخ أخبار

قد وجد الدين فيما بينهم وطنا

والدين إن حل في الأعماق طهار

غذتهم الأرض حب الشمس فاصبروا

كالمعدن الحر فيه الضوء والنار

سل عنهم الغاصب المحتل ما فعلت

هذي القصور وجيش الغدر جرار

سل قائد الحزب في الخضراء عن

غرف لما كسأه من الأهلين إيثار

هذي القصور سنحني مجدها أبدا

حتى ولو أن هذا المجد أحجار

إن كان من قبلنا لم يرول همته

نحر القصور فما في ذاك إنكار

من يذكر الشمس لما تبد وساطعه

ما دون أنوارها البيضاء أستار

إن أهملوها فما في ذاك مظلمة

قد آخرتهم عن التكرهر أعتاد

قد كبل الغاصب المحتل رغبتهم

واليوم في تونس الخضراء أحرار

اليوم نوليك ما برضيك من كرم

في مهرجان بصدق الحب زخار

في مهرجان به السراء ظاهرة

تعلو الوجوه وفي الأعماق أوار

أرحل معي عبر مئات الشنين تجد

شعبا عريقا على الأوطان نغار

الحب في قلبه للأرض ما بقيت

فيه الحياة عزيز النفس صبار

قد كان في نجعه بالأمس تحوسه

مواكب الحبل في الظلمات أثمار

لها صهيل يخيف الخصر إن خطرت

للمر في نفسه والغدر أفكار

كمر قر من شارد قد ند عن ابل

ردته ذي الحبل فيه العزم منهار

كمر أشبعت قويا بالصيد إن قرموا

والصيد من حوتها في البيد أهدار

إن شئت أن تشهد الأجيال في عجل

فالمهرجان شريط فيه أخبار

فيه العروض تشد العين في عجب

ما شهدت مثلها من قبل أنظار

فيه البطولة في أثرابها ظهرت

للعين برافة ما فوقها قار

فيه العروية وجه باسم نظر

غطته في حكم عهد الظلم أطار

اليوم لم يبق في الخضراء محتكر

في كفه سلطة التضييل سمسار

اليوم في تونس الفتحاء مجتمع

لم يبق في صفة للشتر أوكار

لأعاش في تونس المرتد ما بقيت

للناس في الأرض طول النهر أعمار

